الإبتلاءات
طبيعتها وسُبل النجاة

تأليف
أسامة الجوهرى

مُراجعة
د. محمد محمود الشاذلى

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : الإبتلاءات طبيعتها وسُبل النجاة
المؤلف : أسامة الجوهرى
غلاف : محمد عطية
إخراج: محمد سالم
المقاس ١٧ × ٢٤
رقم الإيداع : ٢٨٣٢ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 61 - 8

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى كل من ضاق صدره وظن أن الدنيا أصبحت أضيق من ثُقب الإبرة

إلى كل من يُعانى ويتألم ويظن أن الله قد تخلى عنه

إلى كل مهموم وكل حزين وكل مُكتئب

إلى كل مُبتلى

أبشروا جميعاً فإن فرج الله قريب، وإليكم أهدى هذا الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

لماذا خلقنا الله

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة - ٣٠).

خلق الله الإنسان، ورفع مكانته وكرمه ليحقق غاية العبودية له سبحانه، أن يخلف من كان قبله من الجن الذين أفسدوا فى الأرض، فيقيم العدل ويعمل الصالحات وفقاً لمراد الله.

وزود الله هذا الإنسان بمجموعة من الصفات الجسدية والعقلية التى تؤهله لأداء هذه المهمة، فأعطاه الإرادة الحرة، والعقل الذى يستقبل المعلومات ويجمعها ويحللها ويربط بينها ويستخلص منها خبرات، وبه يستطيع الإنسان أن يُميز بين الخير والشر، وزوده أيضاً بالدوافع والشهوات التى تُحرك السلوك، والعواطف المختلفة للتعبير عن هذا السلوك، هذا بالإضافة للقدرات الجسدية والعضلية المختلفة لتنفيذ هذا السلوك.

وقدر رب العالمين لهذا الإنسان معيشته، وهيئ له الأرض لاستقباله، فيقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (النحل: ١٠ - ١٦).

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ ﴾ **(النحل: ٨٠ - ٨١).**

وزود الله الإنسان بالمنهج والمسار الذى يجب عليه أن يسلكه حتى يُحقق مراد الله، والغاية من خلقه.

نعم زود الله الإنسان بخريطة تفصيلية للتعامل مع الأحداث المختلفة، وللتعامل مع المواهب والقدرات والنعم التى وهبه إياها، هذا بالإضافة إلى شئ فى غاية الأهمية، وهو كيفية التعامل مع الشهوات، فمن ضمن الصفات التى غرسها رب العالمين فى الإنسان، الشهوات، وهى غرائز تدفع الإنسان دفعاً لإشباعها، ونتيجة لشدة هذه الغرائز فقد زود الله الإنسان بمنهج لكيفية التعامل معها، وتطويعها لتكون دافع للخير.

﴿ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾ **(الأنعام - ١٦٥).**

وبعد أن هيئ الله الأرض لاستقبال الإنسان، وبعد أن زوده بالصفات والقدرات اللازمة لإداء مهمته، وزوده بالمنهج والمسار، وضعه فى موضع الاختبار، فجعل الناس مُتفاوتين فى الصفات والقدرات، وجعل كل ما يملكه الإنسان من حسب ونسب وأموال، وكل ما لديه من مواهب وذكاء وقدرات، جعل من كل ذلك محلاً للاختبار، لينظر ماذا سيفعل هذا الإنسان بكل ما يملكه، هل سيركن إلى الحياة الدنيا المحدودة المؤقتة، ويركن إلى ما لديه من قدرات وإمكانات، أم يستغل ذلك كله لتنفيذ مراد الله؟

وبالتالى لا تنظر إلى الوضع الذى أنت فيه الآن من منطلق أن الله امتن عليك بكل ما لديك لتعيش فى راحة وهناء وفقط، كلا!

إن الوضع الذى أنت فيه الآن هو محل اختبارك، أنت تُختبر به الآن،

فحسبك ونسبك، وأموالك وقدراتك، ومصادر قوتك، كل ذلك هو بيئة اختبارك التى وضعك الله فيه، ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس - ١٤).

وجعل الله فترة الاختبار محدودة بعمر الإنسان، وبانتهاء أجل الإنسان بالموت يفقد كل ما امتلكه فى الدنيا من أموال وبنين وحسب ونسب، ويبقى شئ واحد، عمله، ما قدمه فى الحياة الدنيا، وكيف استغل فيها ما وهبه الله إياه من صفات وقدرات، لينطلق الإنسان بعد ذلك فى رحلة خلود مُستحقة، فإما إلى جنة، وإما إلى نار، فإن كان من أهل الجنة استرد أعظم مما ترك فى الدنيا، ورجع إلى أهله، وعاش فى نعيم دائم، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ (الطور: ١٧ - ٢٤).

بينما من كان من أهل النار، خسر كل ما كان يملكه فى الدنيا: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر - ١٥)، بل وخسر الصفات البشرية التى كرمه الله بها من سمع وبصر وعقل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف - ١٧٩).

لقد استحق هؤلاء هذه المهانة، لأنهم انشغلوا بما آتاهم الله فى الدنيا عن السبب الأساسى لوجودهم فيها، فظنوا أنهم خالدين فى الدنيا بأموالهم وأولادهم، فعملوا على زيادة أموالهم وتعظيمها بأى وسيلة كانت، لتنتقل باسمهم بعد ذلك لورثتهم، فيظل الاسم محفوظاً كعظيم من العظماء، هذا فى الدنيا، بينما فى الآخرة شأن آخر، والآخرة خير وأبقى لمن أمن وعمل صالحاً وفقط.

نأتى إلى الدنيا ونحن سواسية ... طفلُ الملوك هنا، كطفل الحاشية
ونغادر الدنيا ونحن كما ترى ... متشابهون على قبور حافية

أعمالنـا تُعلى وتخفض شأننـا وحسابُنـا بالحـق يوم الغاشية
حـورٌ، وأنهـارٌ، قصـورٌ عاليـة وجهنـمٌ تُصلـى، ونـارٌ حاميـة
فاختر لنفسك ما تُحب وتبتغـى مـا دام يومُـك والليـالى باقيـة
وغداً مصيرك لا تراجـع بعـده إما جنان الخلد وإما الهاوية [1]

قـرأ قـارئ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ (التكوير: ١-٣)، وفى الحاضرين أبو الوفاء ابن عقيل، فقال له قائل:

يا سـيدى، هب أنـه (أى الله) أنشـر الموتى للبعث والحسـاب، وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، **فلِم هدم الأبنية، وسير الجبال، ودك الأرض، وفطر السماء، ونثر النجوم، وكور الشمس؟**

فقال: إنما بنى لهم الدار للسـكنى والتمتع، وجعلها، وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم مـن الدار، خربها لانتقال السـاكن منها، فـأراد أن يُعلمهم بـأن الكونين (يعنى السـموات والأرض) كانت معمورة بهم، وفـى إحالة الأحوال وإظهار تلك الأهوال وبيـان المَقـدرة بعد بيان العزة، وتكذيـب لأهل الإلحاد وزنادقـة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت، وأن معبوداتهم قد انتثرت وانفطرت، ومحالها قد تشـققت، ظهـرت فضائحهم وتبـين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب مُحـدَث مُدَبر، له رب يصرفه كيف يشـاء، تكذيباً لملاحدة الفلاسـفة القائلين بالقـدم، فكم لله من حكمة فى هدم هذه الديار، ودلالة على عِظم عزته وقدرته وسـلطانه، وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانه لمشيئته فتبارك الله رب العالمين[2].

(١) الأبيات لأبى العتاهية
(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم، الجزء الثالث

منهج الاختبار
الإسلام لله

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام - ٧١).

الإسلام هو دين الله ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران - ١٩)، من لدن آدم إلى محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد أرسل الله الرسل للناس بقضية أساسية وهى توحيده وإفراده بالعبودية، فيقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل - ٣٦)

فهذا هو أمر رب العالمين الذى جاءت به الرسل جميعاً وجاء به رسول الله محمد ﷺ أن الله واحد أحد لم يلد ولم يولد وليس له شريك فى الملك، وأنه ليس كمثله شيء.

وهذه هى (صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع، توحيد الألوهية التى يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق فى الكون بالعبودية، وتوحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله، فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى، ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى، ومن ثم يكون الدين الذى يقبله الله من عباده هو «الإسلام» وهو فى هذه الحالة، الاستسلام المطلق للقوامة الإلهية، والتلقى من هذا المصدر وحده فى كل شأن من شؤون الحياة، والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هذا المصدر، واتباع الرسل الذين نزل عليهم الكتاب، وهو فى صميمه كتاب واحد، وهو فى صميمه دين واحد، الإسلام)[1].

(١) فى ظلال القرآن سورة آل عمران

رسالة رسول الله ﷺ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

أرسل رب العالمين رسولاً هو محمد ﷺ، النبى العربى الصادق الأمين، أرسله إلى الناس كافة برسالة تتضمن طريقاً ومنهجاً، فمن اتبع الطريق وسار على المنهج فلا يضل ولا يشقى وهو فى الآخرة من الفائزين، ومن اتبع غير هذا الطريق وجعل إلهه هواه، فقد ضل ضلالاً مبيناً وهو فى الآخرة من الخاسرين.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء: ١١٥)

– أما الطريق فهو الإسلام فيقول تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥).

– وأما المنهج فهو كتاب الله وسنة رسوله الكريم محمد ﷺ الذى قال: (إنى قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتى)[1].

أرسل رب العالمين، رسوله محمد ﷺ ليتمم البناء الذى تم تشييده من لدن آدم عليه السلام، بناء التوحيد الخالص لله، فعن جابر رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: (مثلى ومثل الأنبياء، كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع اللبنة، قال رسول الله ﷻ: فأنا موضع اللبنة، جئت فختمت الأنبياء)[2].

---

(١) رواه الحاكم فى مستدركه عن أبى هريرة

(٢) رواه مسلم

فأصل الدين واحد، وهو الإسلام لله، توحيده، ونفى الشريك له، وعبادته وطاعته والانقياد لأوامره، وقد جاء كل رسول إلى قومة بشرعة ومنهاج ليتناسب مع تطور القوم وقدراتهم العقلية والنفسية والعلمية، وأرسل الله رسولنا الكريم ﷺ ليكون النبى الخاتم، لكل الناس، ويخرجهم من الظلمات التى عاشوا فيها وتراكمت عبر الأجيال المتتابعة، إلى نور الإيمان بالله وتوحيده، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١)، ولذلك جاء الإسلام تاماً فى بناءه، قوياً صلباً ضد مُنكرى رسالة رب العالمين، تشد تعاليمه وفرائضه بعضها بعضاً، يخاطب الفطرة ويخاطب العقل والمنطق، ويقودهما إلى معرفة رب العالمين، والهدف أن يسيروا على المنهج الذى إرتضاه رب العالمين فيكونوا من السعداء فى الدنيا والآخرة.

رأس الأمر الإسلام

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال:

كنت مع النبى ﷺ فى سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبى الله، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة، ويباعدنى من النار؟

قال: (لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت)

ثم قال:

(ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنةٌ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النارَ، وصلاة الرجل فى جوف الليل)، ثم قرأ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾ (السجدة: ١٦ - ١٧).

ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟)

فقلت: بلى يا رسول الله.

قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)[1].

رأس الأمر الإسلام: أى أن يكون الإسلام هو دليلك ومرشدك، فى رحلة حياتك الدنيا إلى الآخرة، فالرأس تحدد المسار والإتجاه، فأنت كمسلم إرتضيت بالله رباً وشهدت بذلك، وإرتضيت بالإسلام ديناً، وبالتالى يجب أن يكون هناك دليل على ذلك، يجب عليك أن تجعل من الإسلام دستوراً لحياتك ومعيشتك، وتسير فى مساره وتدور مع دورانه، وتخضع إرادتك له، وتعرض حياتك على منهجه، هل يستقيم إسلامك مع ما تقوم به وتحيا من أجله أم تتبع هواك؟ فإن استقام أسلوب حياتك مع الإسلام فأنت مسلماً حقاً، وإلا فراجع نفسك فالحياة الدنيا أقصر من أن تكون أكبر همك.

الإسلام ليس مجرد لفظ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) دون أن تصبح واقعا عملياً فى كل مناحى حياتك.

وهذا هو عين اختبارك، فأنت تُختبر كمسلم بمدى التزامك بالمنهج الذى ارتضاه الله لك ولسائر البشر، فهل ستخضع إرادتك الحرة لمراد الله الذى يُحبك أن تكون عليه؟ أم ستتمرد نفسك وتتبع هواها؟

فى هذا الكتاب سوف نتعرف على معنى الابتلاءات ولماذا نصاب بها؟ وهل هناك حكمة فى نوع الابتلاء الذى يصيب الإنسان؟ مع استعراض لبعض الابتلاءات التى قد تصيب المؤمنين.

كما سوف نجُيب عن بعض الأسئلة التى قد تدور فى عقل البعض منا، مثل:

لماذا خلقنا الله؟ ولماذا يبتلينا؟!

لماذا هناك شخص مُنعم بكل أنواع النعم، وآخر معدوم ليس لديه شىء؟!

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح

هــل الله غير عادل بإصابته لنا بالابتــلاءات أم أن هناك حكمة خفية لم نُدركها بعد؟!

ماذا يعنى أن أصبر على الابتلاءات؟ وما هى حدود هذا الصبر؟

وهل هناك مخرج من ذلك كله؟!

والهدف من ذلك أن نســتطيع اجتياز اختبارات الحياة الدنيا بنجاح فنكون من الفائزين برضوان الله يوم القيامة.

الفصل الأول

أنــت تصلى وتصوم وتتصــدق وتفعل الخيرات وتؤمن بــالله، وتبذل جهدك فى ســبيل إتباع سنة رسول الله ﷺ، ولكن هل تظن أنك مؤمن حقاً وأن الإيمان قد ثبت فى قلبك لن يزحزحه شئ؟

جاءت ساعة الحقيقة... ساعة الاختبار...

جاءت الابتلاءات ، الساعة التى يظهر فيها مستوى الإيمان الحقيقى فى قلبك! فاستعد.

معنى الابتلاء

– البلاء والابتلاء يلتقيان فى معنى الاختبار والامتحان.

جاء فى لسان العرب: (وقال ابن الأعرابى: ابتلاه الله: امتحنه).

وقال الفيروزآبادى: (وابتليته: اختبرته، والبلاء: الغم كأنه يبلى الجسم، والتكليف بلاء، لأنه شاق على البدن أو لأنه اختبار، والبلاء يكون منحة ويكون محنة) [1].

وفى المعجم الوسيط:

(ابتلاه: جرَّبه وعرفه، والبلاء: الحادث ينزل بالمرء لُيختبر به، والبلاء الغم والحزن، والبلاء: مبالغة الجهد فى الأمر) [2].

وقال القرطبى:

قال أبو الهيثم: البلاء يكون حسناً، ويكون سيئاً، وأصله المحِنة، والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التى يكرهها ليمتحن صبره، فقيل للحسن بلاء وللسيئ بلاء [3].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: ٣٥).

وقال أبو هلال العسكرى الابتلاء هو: استخراج ما عند المُبتَلى، وتعرف حاله فى الطاعة والمعصية بتحميله المشقة، ويقال للنعمة بلاء، لأنه يستخرج بها الشكر.

– من المفاهيم السابقة عن الابتلاء يمكن القول إن الابتلاء ينزل بالإنسان كاختبار فى ظروف الحياة الدنيا، وقد يكون مع شدة ومبالغة فى الجَهْد، أو يكون

(١) القاموس المحيط جـ ٤ بتصرف.

(٢) المعجم الوسيط جـ ١

(٣) الجامع لأحكام القرآن. تفسير سورة البقرة، آية: ٤٩

حسناً مما تستهويه النفس، فيُختبر المرء بالخير والشر لإظهار مكنونات نفسه، ومعرفة حقيقة إيمانه.

– كذلك يأتى الابتلاء بمعنى المحنة: ومنه قوله تعالى: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (الحجرات: ٣)، أى: الذين ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى طهرت وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق[1].

فالمحن تأتى لتنقية قلوب المؤمنين مما علق فيها حب الدنيا والركون إليها، ومن أمراض القلوب التى قد تصيبها، وتزيل منها كل شائبة، حتى تصير صافية، طاهرة.

(١) تفسير المراغى، بتصرف، سورة الحجرات

تمهيد

قبل الحديث عن الابتلاءات التى قد يتعرض لها المؤمن بالله، لابد من إرساء مجموعة من القواعد الأساسية، والتى يجب عليك أن تكون على يقين بها، وأن تغرسها فى قلبك، وتراقبها فى حياتك العملية، وخاصة عند مواجهتك لهذه الابتلاءات، فهى ستمثل المعيار الصحيح الذى ينبغى أن تبنى عليه قناعاتك حتى تستطيع إن شاء الله الصبر والثبات فى خلال فترة تعرضك لها.

القاعدة الأولى:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾

اعلم أن ما أصابك، وما سيصيبك فى هذه الحياة الدنيا سواء من خير أو من شر، هو كله بقضاء الله وقدره، ومكتوب عنده فى اللوح المحفوظ، ولو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوك بشئ، لن ينفعوك إلا بما كتب الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ، لن يضروك إلا بمقدار ما كتب الله عليك، وهذا بعلم الله قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال رسول الله ﷺ: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء) [1].

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ **(الأنعام - ٥٩).**

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ **(النمل - ٧٥)**

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ **(الحديد - ٢٢).**

وعن عبد الواحد بن سليم قال: (قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبى رباح، فقلت له: يا أبا محمد: إن أهل البصرة يقولون فى القدر، قال: يا بنى أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فاقرأ الزخرف، قال: فقرأت: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾ (الزخرف: ١ - ٤)، فقال: أتدرى ما أم الكتاب؟

قلت: الله ورسوله أعلم! قال: فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السماوات، وقبل أن يخلق الأرض، فيه أن فرعون من أهل النار، وفيه تبت يد أبى لهب وتب،

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٦٥٣

قال عطاء: فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول ﷺ فسألته: ما كانت وصية أبيك عند الموت؟

قال: دعانى أبى فقال لى: يا بنى، اتق الله، واعلم أنك لن تتقى الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر خيره وشره، فإن مت على غير هذا دخلت النار، وإنى سمعت رسول ﷺ يقول: (إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد)[1].

وروى الإمام أحمد فى مسنده، عن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت يا أبتاه أوصنى واجتهد لى.

فقال أجلسونى، قال يا بنى إنك لن تطعم طعم الإيمان ولن تبلغ حق حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره.

قال: قلت: يا أبتاه فكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره؟

قال تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بنى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم ثم قال اكتب فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، يا بنى إن مت ولست على ذلك دخلت النار)[2].

وعن على رضي الله عنه قال: كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخصرة، فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال:

(ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كُتبت شقية أو سعيدة) قال، فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟!

فقال: (من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة)

---

(١) رواه الترمذى – القدر (٢١٥٥)، وقال: حسن صحيح غريب

(٢) رواة أحمد وأبو داود والترمذى بإسناد حسن

فقال: (اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فيُيَسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة)، ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾[1] (الليل: ٥-١٠)، ومنها أيضاً قول النبى ﷺ لأبى هريرة: (جف القلم بما أنت لاق)[2].

وبما أن الله قد خلق كل شئ بقدر، فإن كل ما يحدث لك ولغيرك ولكل موجود أوجده الله، هو بمشيئة رب العالمين، وله سبب وحكمة، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فالله هو المدبر لهذا الوجود الذى نعيش فيه، بمشيئة مطلقة وعلم إحاطة وتدبير حكيم، ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (الأنعام-٨٠)، وبالتالى فإن الابتلاءات التى تصيبك، لها أهداف، وأسباب ونتائج، والواجب عليك كمؤمن أن تخضع لحكم الله وترضى بقضاءه وقدره، سواء علمت مراد الله فى تدبيره أم لم تعلم.

القاعدة الثانية:

أنه لا مفر من الابتلاء، يصيب الله به المؤمنين كل حسب قوة إيمانه وتقواه.

نعم إن الله سيبتليك ليختبرك، إن اتخذت الإسلام منهج لحياتك، وإن اخترت أن تكون مؤمناً بالله ثابتاً على ذلك، لا محالة ستقع فى الاختبار، فسُنة الابتلاء سُنة شاملة تشمل جميع أفراد الأمة دون استثناء أو محاباة لأحد، حتى الأنبياء، ستوضع فى اختبار تلو اختبار بحكمة الله وبعلمه، وستقابل مضايقات شديده مصحوبة بآلام ومعاناة، وعليك أن تتحملها وتتغلب عليها.

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: ٢١٤)

وقال: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن

(١) متفق عليه وهذا لفظ مسلم برقم ٢٦٤٧
(٢) متفق عليه

قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ **(آل عمران: ١٨٦).**

وقال: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ **(العنكبوت: ٢ - ٣).**

قال الشيخ أحمد المراغى[١] فى تفسير هذه الآية الأخيرة: يقول تعالى: (أيها الناس لا تظنوا أنيّ خلقتكم سُدى بل خلقتكم لترقوا إلى عالم أعظم من عالمكم وأرقى منه فى كل شؤونه، ولا يتم ذلك إلا بتكليفكم بعلم وعمل، واختباركم من آن إلى آخر بانزال النوازل والمصائب فى الأنفس والأموال والثمرات والتخلى عن بعض الشهوات، وفعل التكاليف من الزكاة والحج والصيام ونحوها، فحياتكم حياة جهاد وشدة، شئتم أم أبيتم، وبمقدار ما تصبرون على هذا الاختبار وتفوزون بالنجاح فيه يكون مقدار الجزاء والثواب، وتلك سنة الله فيكم وفى الأمم الماضية من قبلكم وتاريخ الأديان ملىء بأخبار هذا البلاء وما لقيه المؤمنون من المكذبين بالرسل)[٢].

قال المروزى: دخلت يوماً على أحمد، فقلت: كيف أصبحت؟

قال: كيف أصبح من ربه يُطالبه بأداء الفرائض، ونبيه يُطالبه بأداء السُنة، والملكان يُطالبانِه بتصحيح العمل، ونفسه تُطالبه بهواها، وإبليس يُطالبه بالفحشاء، وملك الموت يُطالبه بقبض روحه، وعياله يُطالبونه بنفقتهم؟[٣].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد)[٤].

---

(١) هو الأستاذ أحمد مصطفى المراغى عالم من الأزهر، مفسر مصرى من العلماء تخرج بدار العلوم، القاهرة، ١٩٠٩ م، عمل مدرسًا للشريعة واللغة العربية بالقاهرة والخرطوم (ت ١٩٥٢ م) بالقاهرة

(٢) تفسير المراغى سورة العنكبوت

(٣) تهذيب الأداب الشرعية، ص ٢١٢

(٤) متفق عليه

قال العلماء: معنى الحديث أن المؤمن كثير الآلام فى بدنه أو أهله أو ماله، وذلك مُكفر لسيئاته، ورافع لدرجاته، وأما الكافر فقليلها، وإن وقع به شئ لم يُكفر شئ من سيئاته، بل يأتى بها يوم القيامة كاملة[1].

ويقول صاحب الظلال رحمه الله: (والمؤمن ذو نسب عريق، ضارب فى شعاب الزمان، إنه واحد من ذلك الموكب الكريم، الذى يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون: ٥٢).

هذا الموكب الكريم، الممتد فى شعاب الزمان من قديم، يواجه مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول العصور، وكر الدهور، وتغير المكان، وتعدد الأقوام، يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغى، والتهديد والتشريد.

ولكنه يمضى فى طريقه ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقا من نصر الله، متعلقا بالرجاء فيه، متوقعا فى كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ (إبراهيم: ١٣ - ١٤).

موقف واحد وتجربة واحدة، وتهديد واحد، ويقين واحد، ووعد واحد للموكب الكريم، وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون فى نهاية المطاف، وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد)[2].

قال ابن الجوزى: (أما بعد، فإنى رأيت عموم الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجًا يزيد عن الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت! وهل ينتظر الصحيح إلاّ السقم؟! والكبير إلاّ الهرم؟! والموجود سوى العدم؟!)[3].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج١٧

(٢) الظلال، المقدمة

(٣) الثبات عند الممات لابن الجوزي

وكلما عظم البلاء، عظم الجزاء، ولله الحكمة أنه إذا أحب قوماً ابتلاهم بالشدائد، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط، قال رسول الله ﷺ: (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، لقد كان أحدهم يُبتلى بالفقر حتى ما يجد إلاّ العباءة، يجوبُها[1] فيلبسها، ويُبتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء)[2].

القاعدة الثالثة:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

وهذا من عدل الله، فالله يكلفنا بما نقدر عليه ونطيقه، وما ستتعرض له من فتن وابتلاءات، مهما كانت شدتها، كالفقر والحاجة، وفقدان المال والولد، والسجن والتضييق والتشريد ومهما كانت نظرتك إليها، أنها محنة عظيمة وأن النجاة منها قد تكون مستحيلة، فإنك تستطيع أن تتغلب عليها إن صبرت واحتسبت، وأن الله سيجعل لك منها فرجاً ومخرجاً، وهذا هو اختبارك فإن مع العسر يسرا، قال ابن القيم رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾ (الشرح: ٥-٦)، فالعسر – وإن تكرر مرتين – فتكرر بلفظ المعرفة، فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة، فهو يسران، فالعسر محفوف بيسرين، يسر قبله، ويسر بعده، فلن يغلب عسر يسرين)[3].

إن الله يختبر عباده بشدائد الأمور ولكن بفضله يجعل مع كل شدة سبيل النجاة.

عندما اشتد إيذاء قريش للمسلمين، ورأى رسول الله ﷺ أنه لابد من أرض أخرى تساعده على نشر دعوته، أمر صحابته بالهجرة، وبالفعل بدأ الصحابة

(١) أى يقطع وسطها ليلبسها
(٢) صحيح، السلسلة الصحيحة، رقم ١٤٤
(٣) بدائع الفوائد، ٢

بالهجرة فى الخفاء، وانتظر رسول الله ﷺ الإذن من رب العالمين حتى يُهاجر هو أيضاً، وفى نفس الوقت كان زعماء قريش يعلمون أن رسول الله ﷺ سوف يلحق بصحابته، إن عاجلاً أو أجلاً، ولذلك فقد عقدوا اجتماع للتشاور ولتقرير ماذا ينبغى عليهم عمله ضد رسول الله ﷺ.

وفى اجتماعهم قرروا أن يقتلوا رسول الله ﷺ بطريقة تجُبر عائلته أن يقبلوا بالدية بدون قتال وبدون أخذٍ للثأر، وأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه عند خروجه من بيته صباحاً، وبالفعل أحاطوا بالمنزل استعداداً لتنفيذ الخطة، ولكن!!!

لماذا أذن الله لرسوله بالهجرة فى هذا الوقت تحديداً وهم محُيطون بالمنزل؟! لماذا ليس قبل ذلك وهم غير مُستعدون هذا الاستعداد؟!

لماذا حتى بعد أن خرج رسول الله ﷺ من منزله والتجأ إلى غار ثور، وصل المشركون إلى حافة الغار حتى قال أبا بكر الصديق رضى الله عنه، لو نظر أحدهم أسفل قدميه لرآنا؟!

هى رسالة من رب العالمين للدعاة إليه، وللسائرين فى طريقه على صراط مستقيم، أن لا تجزع ولا تخاف، حتى وإن أحيط بك وظننت أنك هالك لا محالة، فاعلم أن هناك رب، يسمع ويرى، يُدبر بعلمه، وهو ناصر ومؤيد عباده المؤمنين وسيجعل لهم سبيل النجاة، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، وما ينبغى عليك هو اليقين بذلك، فمهما اشتد العُسر فإنه لن يغلب يُسر الله.

القاعدة الرابعة:

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩٠)

قال رسول الله ﷺ فى خطبته ذات يوم: (ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا، كل مال نحلته عبدا حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا، **وإن الله نظر إلى أهل**

الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب...)[1].

الله خلق الخلق، وهيئ لهم الأرض ورزقهم كما سبق وأشرت، ثم جاءت الشياطين وأضلت بنى آدم وجعلتهم يعبدون الأوثان، حتى أن الله عندما اطلع على أهل الأرض بغضهم أشد البُغض، إلا القليل الباقى من أهل الكتاب الذى ظل متمسكاً بدينه، وكان ذلك قبل بعثة رسول الله ﷺ، ولكن عندما بعث الله رسوله ﷺ، وأنزل عليه القرآن نرى عجباً، إن سور القرآن لم تبدأ ببسم الله المنتقم الجبار، أو بسم الله شديد العقاب، زجراً لمن كفر من الناس، وتحذيراً من عقاب رب العالمين، بل على العكس نزلت سور القرآن ببسم الله الرحمن الرحيم، وبل وتكرر الرحمن الرحيم فى أول سورة من القرآن الكريم فى ترتيب المصحف الشريف فقال الله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ (الفاتحة - ١:٣).

والسبب أن رحمة الله سبقت غضبه، وعفوه سبق انتقامه، فهو يريد الرحمة للناس، ولا يريد لهم العذاب والألم والمشقة ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء - ١٤٧).

عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: قدم على النبى ﷺ بسبى، وإذا امرأة من السبى يتحلب ثدياها، كلما وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها، فقال رسول الله ﷺ: (أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ قالوا: لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه، فقال: والله، لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها)[2].

وقال رسول الله ﷺ: (جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)[3].

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٨٦٥، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار

(٢) متفق عليه

(٣) متفق عليه، وهذا لفظ مسلم برقم ٢٧٥٢

هـذه هى رحمة رب العالمين، رحمة أعظـم مما يمكنك تخيلها، يقول تعالى عن نفسـه: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأعـراف: ١٥٦)، وضرب رسـول الله ﷺ مثـالاً لكى يمكننا تصور بعضـاً من هذه الرحمة عندما سـأل صحابته (أترون هذه المـرأة طارحـة ولدها فى النار؟)، وكان ردهم الطبيعـى (لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه).

والمعنـى المقصود أن رحمة الله قريبة منك فـلا تظن فى الابتلاءات التى تتعرض لها أن الله يريد لك المشقة والألم والمعاناة، بل ما أرسل عليك هذه الابتلاءات إلا لأنه يحبـك ويريد لك الخير وعليـك أن تفطن لذلك وتفهم حكمة الله من هذه الابتلاءات كما سنرى بعد قليل.

القاعدة الخامسة:

لست وحدك من يتعرض للابتلاءات

بل ابتُلىَ و يُبتَلىَ كل المؤمنين من لدن آدم إلى قيام السـاعة بالخير والشـر، بل وابتلى من هم خير منك أنبياء الله عليهم السـلام ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الانعـام: ٣٤)، وبمـا أن الكثيرين من المؤمنين اسـتطاع الصبر على البلاء وتحمل مشـقته وفتنته، فيمكنك أنت أيضا، وإعلم أن قوة إيمانك هى التى ستحدد طريقة تعاملك مع الابتلاء وصبرك عليه.

قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

(عن خَبّاب بن الأرت رضى الله عنه قال: شـكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا. فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشـار فيوضع على رأسـه

فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)[1].

وفي ابتلائك، أمرك كله خير إن صبرت على الضراء كان خير لك وإن شكرت على السراء كان خير لك.

إن الله خلقك إبتداءً وهو يعلم أنك ستتعرض لهذه المحن وهذه الابتلاءات، وجعل فى ذلك اختبار لك ولتحصل على المكانة الكريمة التى أعدها لك، ولو نظرت جيداً إلى حقيقة الابتلاء ستدرك أن الابتلاء ماهو إلا تكريم من رب العالمين لك، أن اختارك أنت ليُعْدك لتكون عبد من عبيده الفائزين فى الآخرة وجند من جنده فى الدنيا.

القاعدة السادسة:

(إن الله مطلع عليك يسمع ويرى، ينظر ماذا تعمل)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ **(يونس - ٦١).**

وقال رسول الله ﷺ: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن اللهّ مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون)[2].

وعندما جاء الأمر لنبى الله موسى عليه السلام بالذهاب هو وهارون إلى فرعون قالا: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ **(طه - ٤٥)، فكان رد رب العالمين:** ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ **(طه - ٤٦).**

---

(١) صحيح البخارى – كتاب الإكراه – باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر
(٢) صحيح مسلم، كتاب الرقائق

نعم إن الله يسمع ويرى ما أنت فيه، فأرى الله من نفسك صبر وجلد، وإن أخلصت له دينك سيكون معك ويهديك، فأنت لست وحدك بل معك رب العالمين، وليكن شعارك ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف - ٨٦).

قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور - ٤٨).

وقال: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الشعراء: ٦١ - ٦٢).

وفى الهجرة فزع أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وهما فى الغار وخاف على النبى ﷺ وقال: (يَا رَسُول اللَّه، لَو أَنَّ أَحَدَهُم نَظَرَ إلى قَدَمَيْه أبصرنا تحت قدميه، قال له: **يَا أَبَا بكر، ما ظَنُّك باثنين اللَّه ثالثهما؟**)[1]

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا، فقال النبى ﷺ: (أيها الناس اربعوا[2] على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ولكن تدعون سميعا بصيرا)[3].

إن الله لم يغفل عن حبة فى ظلمات الأرض، فهل يغفل عن عباده المؤمنين؟!

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام: ٥٩).

فكن على يقين أنه لن يغفل عنك، ولن ينساك، فهو يسمعك ويرى مكانك، واعلم أن الله هو من أرسل عليك الابتلاء، وهو من يُلهمك الصبر إن إستعنت به، ويريد الله أن يرى ثباتك وقوة خطواتك فى السير على المنهج الذى إرتضاه لك.

---

(١) متفق عليه

(٢) أى ارفقوا ولا تجهدوا أنفسكم

(٣) صحيح البخارى – كتاب الدعوات

القاعدة السابعة:

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ (طه - ٣٩)

– إن البلاء ليس كله شر، بل يتضمن خيراً أيضاً، فأنت فى فترة الابتلاء تكتشف نفسك، وتكتشف طبيعتها التى كانت غائبة عنك ولم تظهر إلا بنزول البلاء، والمؤمن الفطن هو من يستطيع أن يلحظ ذلك، فهو لا يدع الحوادث تمر هكذا، مر الكرام.

– فى البلاء يكتشف المؤمن نقاط القوة والضعف فى نفسه، وإن أراد لنفسه خيراً سعى فى إصلاح الخلل (فهو أدرى الناس بنفسه) ليستحق تكريم رب العالمين بالإستخلاف والتمكين.

– إنك كمؤمن لن تستطيع أن تغير ما فى نفسك، حتى تكتشف ما فى نفسك أولاً، تكتشف عيوبها وثغراتها[1]، تكتشف ضعفها وعجزها، تكتشف جبنها وبخلها.

فى الابتلاء أنت تأخذ الفرصة كاملة لترى نفسك على حقيقتها، مجردة من الأهواء، مجردة من الشهوات، مجردة من حب الدنيا.

فى الابتلاء أنت تكتشف الإيجابيات والسلبيات التى فى نفسك.

وإن أردت لنفسك ولدينك الخير ستفهم رسالة رب العالمين فى الابتلاء وستسعى جاهداً لإصلاح نفسك وإصلاح ما حولك.

– قال الحسن البصرى رحمه الله:

لا تكرهوا البلايا الواقعة، والنقمات الحادثة، فَلَرُبّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك، ولَرُبّ أمرٍ تؤثره فيه عطبك (أى هلاكك).

وقال الفضل بن سهل: إن فى العلل لنعَماً لا ينبغى للعاقل أن يجهلها، فهى

---

(١) أماكن الضعف فى نفسك والتى ينفذ منها الشيطان إلى نفسك

تمحيص للذنوب، وتعرّض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وتذكير بالنعمة فى حال الصحة، واستدعاء للتوبة، وحضّ على الصدقة.

القاعدة الثامنة:

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم - ٤٧)

إن العاقبة للمتقين، والنصر لا محالة سيكون للمؤمنين، ومعيار النصر ليس فقط كما قد يتصور البعض بأن تغلب عدوك وأن تظهر عليه، ويكون لك التمكين، بل إن من النصر الثبات على الإيمان، حتى تموت عليه، فهو نصر عظيم يضع صاحبه فى مراتب الشهداء، فهو نوع آخر من الاصطفاء لمن يرى فيه الله استحقاقه للشهادة، ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ (آل عمران - ١٤٠).

إن النصر الحقيقى هو الثبات والصبر وتحمل المشاق حتى يأتى الفرج من الله بالتمكين لدينه، أو اصطفاء المؤمن شهيداً.

وبالتالى فإن مقياس الأمور هو عاقبتها ونهايتها، بينما المراحل فهى أزمنة عابره، بعسرها ويسرها، فمن صبر فله النصر ومن ارتد على عقبيه، فقد خسر آخرته بدنيا فانية والآخرة خير وأبقى، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

– عندما خرج رسول الله ﷺ مهاجراً، خرج هو والصديق رضى الله عنه، رجلان وفقط تتبعهما مكة عن بكرة أبيها تبحث عن رسول الله ﷺ لترده عن سبيله وتقتله، واستطاع النجاة منهم بفضل الله ومعونته، وتمر السنين ويرجع رسول الله ﷺ بصحبة عشرة آلاف مُقاتل، فيهرب منه أهل مكه، فمنهم من يلزم بيته ومنهم من يلزم المسجد الحرام طمعاً فى النجاة.

نتألم ونحزن عندما نقرأ عن رسول الله ﷺ وهو ينظر إلى مكة فى ساعة الهجرة وهو يتألم أن يتركها وهى أحب البلاد إليه، ولكن نسعد ونفرح ونستبشر عندما نقرأ عن دخوله مكة معززاً مُكرماً فى كتائب المسلمين، هذا هو تأييد رب العالمين الذى يؤيد بنصره من يشاء إن سار على طريقه ولم يُغير أو يُبدل، فلا تنظر للابتلاء

الذى يصيبك الآن أنه هو النهاية ولا مخرج لك، بل استبشر وكن دائم الصلة بالله حتى تستحق منه المعونة.

قال تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾(غافر - ٥١)

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية: (وهذه سنة الله فى قديم الدهر وحديثه أن ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا ويقرأعينهم ممن أذاهم.

وقال السدّى: لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلونهم فيذهب ذلك القرن، حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم فى الدنيا، فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقتلون فى الدنيا وهم منصورون فيها) ((١)).

(ومعنى ذلك أن المؤمنين وهم أهل الحق هم المنصورون وإن قتلهم أهل الباطل وانتصروا عليهم فى الظاهرإلا أن العاقبة للمؤمنين ولو بعد حين، حيث يأتى من يعاقب المبطلين ويقتلهم جزاء ما فعلوه بأهل الحق، وهذه علامة على اندحار أهل الباطل وغلبة أهل الحق عليهم) ((٢)).

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ (الصافات: ١٧١ - ١٧٣).

القاعدة التاسعة والأخيرة:

(بعد الموت لا يوجد فناء، ولكن يوجد خلود)

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾

الخلود: أى الدوام والبقاء.

أبدا: ظرف زمان للمستقبل، ويدُل على الاستمرار.

وخالدين أبداً: أى حياة دائمة وباقية باستمرار، بلا موت.

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٤، ص ٢٢٩

(٢) السنن الإلهية د. عبد الكريم زيدان

الموت، مرحلة انتقالية فى دورة حياة الإنسان، الذى لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أصبح جنيناً فى بطن أمه ليبدأ دورة حياته، ثم خرج منها، فى طور جديد، وتدرج من ضعف إلى قوة، واستمرت حياته حتى عادت من قوة إلى ضعف، ثم تبدأ دورة جديدة بالموت، فهو ليس فناء للإنسان ولكنه تحول من مرحلة العمر المحدود إلى مرحلة الخلود.

مكان الخلود: (مكانين لا ثالث لهما):

١ – جنة الرحمن حيث سعادة وهناء دائم، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فيها ما لم يخطر على قلبك أو على قلب بشر، فيها مُلك لا يبلى، والأعظم من ذلك، أن هذا النعيم يصحبه خلود بلا موت، (سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول أى رب! كيف؟! وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيُقال له: أترضى أن يكون لك **مثل ملك ملك من ملوك الدنيا؟** فيقول: رضيت رب! فيقول: **لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله.** فقال فى الخامسة: رضيت رب! فيقول: **هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك.** فيقول: رضيت، رب!

قال: رب! فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدى، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر)[1].

ومصداقه فى كتاب الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة - ١٧).

٢ – ولكن، هناك خلود من نوع آخر، هناك نار تلظى، عذاب وشقاء دائم لا ينقطع، يأكلون من شجر الزقوم، شرابهم من الحميم (تخيل الحمم البركانية)، يصطرخون فيها، ربنا أخرجنا منها نعمل غير الذى كنا نعمل، سنتبع صراطك

(١) رواه مسلم برقم ١٨٩

المستقيم، ولكن أخرجنا من النار، ولكن كلا إنهم لابثين فيها أحقابا (تقاس الحقبة بملايين السنين)، ولا يموتون فيها فهم خالدون، أى عذاب هذا؟! أى شقاء هذا؟! ومن أجل ماذا؟!

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ (المدثر:٤٢ - ٤٧).

- ما هى الأعمال التى أوجبت لهؤلاء عذاب الجحيم؟!

ترك الصلاة: والتى تعنى ترك الخضوع لأوامر الله، فالصلاة هى عمود الإسلام والأساس الصلب الذى يقوم عليه، فهى الركن الثانى من أركان الإسلام بعد توحيد رب العالمين والاعتراف برسالة رسوله ﷺ، وبها يتحدد مدى صلاح الأعمال ومدى فسادها، فإن صلحت الصلاة، فهذا يعنى أن المُحافظ عليها يُحافظ على تنفيذ أوامر الله، ويعنى بالتالى أن يصلح باقى العمل، بينما إن فسدت الصلاة وضيعها صاحبها، فهو لغيرها من أوامر الله أضيع، وبالتالى فسد كل عمله، واستحق العقاب من رب العالمين.

ترك الصدقة: فقد كانوا يبخلون بأموالهم فى الدنيا، ولم يُعطوا الفقراء حقوقهم، ففى الوقت الذى كانوا يكنزون هم الذهب والفضة ويعلون فى البنيان، كان هناك فقير بجوارهم، لا يجد ما يسد به جوعه، فكان يُعانى وهم يتنعمون، ولو أخرجوا صدقات أموالهم لرفعوا عن هؤلاء الفقراء كل المعاناة التى تعرضوا لها، ولجزاهم الله عنها خير الجزاء فى الآخرة، ولكنه شُح النفس التى لم تؤمن بالله.

الخوض مع الخائضين، السير فى ركاب الظالمين، ومشاركة أهل الفساد فى إفسادهم، سواء بعلم أو بغير علم، ونقل الشائعات والخوض فى المحرمات، والخوض فى أعراض المسلمين، فلم يكن هناك إيمان يمنعهم من ذلك بل كانوا يتبعون هوى النفس.

والتكذيب بيوم الدين، فلو أنهم كانوا يوقنون بيوم الدين حقاً، لو أنهم كانوا مُوقنين بالحساب والجنة والنار، لما ضيعوا الصلاة، ولما فرطوا فى أوامر الله

ونواهيه، ولأدوا زكاة أموالهم، ففقدانهم اليقين بيوم الدين كان السبب الرئيسى الذى جعلهم يخوضون فى المعاصى والآثام بدون تحرج وبدون وازع من ضمير.

وبالتالى: فأنت فى فترة عمرك الزمنية المحدودة فى هذه الحياة الدنيا من تصنع مصير خلودك الآن، فإما خلود بلا موت فى جنة الرحمن، وإما خلود بلا موت فى السعير، فاختر لنفسك!

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ **(آل عمران - ١٨٥).**

الفصل الثانى

حكمة الإبتلاء

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (الملك_٢).

لماذا ينزل الابتلاء بالمؤمنين؟

ينزل الابتلاء بالناس كافة، فالحياة الدنيا هى دار ابتلاء وشدة، وليست دار مُستقر وراحة، ولكن ما سأتعرض له هو الابتلاءات التى تصيب المؤمنين، فهى تنزل بهم لأسباب كثيرة، منها ما نعلم حكمته، ومنها ما لا نعلم الحكمة منه، ولكن نرضى بقضاء الله وقدره، ونسعى جاهدين لمعرفة هذه الحكمة، ومن هذه الأسباب:

١ – اختبار صدق العبد: فيما يدعى من حب الله وطاعته، واختبار صبره على أداء الأوامر الإلهية، والانتهاء عند نواهيها، فالإدعاء بالإيمان لا يُغنى شيئا بدون دليل على هذا الإيمان، وهى الأعمال التى تُثبت ذلك.

٢ – تحديد مستوى إيمان المؤمن:

إن الإيمان درجات، وما يحدد درجة إيمانك هو نجاحك فى الاختبارات التى تتعرض لها (الابتلاءات)، فالابتلاءات أنواع ومستويات من الشدة، كما سنرى بعد قليل، وبالتالى كلما نجحت واجتزت هذه المستويات، كلما دل ذلك على مستوى الإيمان الذى أنت فيه، وبالتالى بالنظر إلى الابتلاء الذى تتعرض له الآن، ستعلم ما هو مستوى إيمانك عند رب العالمين.

٣ – تمكين الإيمان من قلوب المؤمنين: فإن الابتلاء يحمل حكمة، ورسالة من رب العالمين، إن فهمها المؤمن حقق الابتلاء هدفه من إظهارالمعدن الأصيل للمؤمن، وقاد خطاه لتسمو نفسه فوق الشهوات، ليحقق معنى الإيمان كاملاً، فإنه لتحقيق العبودية والتوحيد الخالص لله، لابد أن يكون الإيمان ممُكَّن فى قلوب المؤمنين، ولذلك كان لزاماً إعداد المؤمنين بالاختبارات (الابتلاءات)، لتهذيب أنفسهم وتنقيتها مما علق بها من حب الدنيا، وتقويم سبيلهم، وتدريبهم على الصبر على الصعوبات التى ستواجههم فى الحياة الدنيا حتى يكون الدين كله لله.

٤ – أن يعلم المؤمن أن الدنيا ليست دار مُستقر: ولذلك يصاب فيها بالابتلاءات،

فيتجه بقلبه إلى العمل لدار المُستقر الدائم فى الجنة، فقد جعل الله الابتلاءات الشديدة وسيلة أن يرى المؤمن الحياة الدنيا على حقيقتها، وهى مجردة من الزينة، مجردة من الزخرف الذى قد ينخدع به فى فترة من الفترات، وعندها يفهم المؤمن حقيقتها، ويفهم مراد الله فى أرضه، وأن هذه الحياة ما هى إلا سلسلة متواصلة من الابتلاءات سواء بالخير أو بالشر، فتنطلق روحة ومشاعره فى طريقها الصحيح، لا تأخذه فى الله لومة لائم، قوى النفس فى السمع والطاعة، قوى النفس فى المنشط والمكره، قوى النفس فى الإنفاق فى سبيل الله فى العسر واليسر، قوى النفس فى الدفاع عن منهج الإسلام كما يدافع عن أهله وماله.

يقول الشيخ الشعراوى رحمه الله: (ما معنى الابتلاء؟ الناس يظنون أنه شر ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك، لأن الابتلاء هو امتحان، إن نجحنا فيه فهو خير، وإن رسبنا فيه فهو شر، فالابتلاء ليس شر ولكنه مقياس لاختبار الخير والشر، فالذى إبتلى هو الله، هو الرب، والرب معناه المربى، **الذى يأخذ من يُرَبيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منَه**، ومن أساس التربية أن يمتحن المربى من يربيه ليعلم هل نجح فى التربية أم لا؟) [1].

٥ – وملخص لما سبق، فإن الابتلاء ينزل لمصلحة المؤمن الشخصية، فالله يعلم ونحن لا نعلم، فالابتلاء تكفير للذنب، ورفع للدرجات، وتهذيب للأخلاق، وتربية للنفس، وتقويم لسبيل المؤمن، وسنرى ذلك كله خلال عرض أنواع من الابتلاءات.

– واعلم أخى الكريم أنه لا أحد فوق الابتلاء، بل الجميع سيُبتلى، مهما علا شأنه، وزادت مكانته العلمية والاجتماعية، فلابد له من الابتلاء، **ليتميز موقعه فى الصف المسلم.**

– وكما أن الإيمان درجات متفاوتة، فإن الابتلاء يتفاوت بين الناس كل حسب

(١) تفسير الشعراوى سورة البقرة آية ١٢٤

إيمانه، فإن الله سبحانه وتعالى يبتلى الناس ليميزهم ويصنفهم فى درجات، ويظل الابتــلاء فى الناس، حتى يتميــز الصف المؤمن، ويظهر صــف المنافقين وأصحاب المصــالح وذوى الأهواء وأصحــاب النفوس الضعيفة، بالإضافــة إلى إعداد المؤمنين، بأنواع معينة من الابتلاءات، حتى إذا استعدت النفس المؤمنة لتحمل تبعات حمل رسالة رب العالمين، أتى نصر الله لعباده المؤمنين بالتمكين لهم فى الأرض.

الدروس والحكمة الخفية فى الابتلاء

– لو نظرنا إلى الحياة الدنيا كداراختبار وابتلاء، سنجد أن فى كل يوم جديد اختبار جديد، ستتعرض فيه لفتن وبتلاءات ومواقف شتى، وكلها لها حكمة وقدر، والمؤمن الكيس الفطن هو الذى يغتنم الفرصة اليومية الجديدة فيحاول تعلم طرق النجاح فى الاختبار، ويستعد لما سيأتى بعد ذلك.

– إن الله خلق عباده لتحقيق العبودية الكاملة له سبحانه، وكل العبادات التى يؤديها المسلم فى مجملها هى لتحقيق هذه العبودية ليقوم المسلم بتنفيذ أوامر الله ويجتنب نواهيه، ومن جانب آخر فإنه بعبوديته لله، يتعرف على الله ويتقرب منه، وكلما إزداد المسلم حرصاً على القيام بواجباته وأداء ما افترضه الله عليه، كلما إزداد إيمانه، وارتقت نفسه، والعكس، فكلما أهمل المسلم أداء واجباته وما إفترضه الله عليه، كلما قل إيمانه وران على قلبه، فيأتى الابتلاء ليصيب الإثنين من أطاع الله ومن عصاه، ليقود خُطى الإثنين للارتقاء أعلى وأعلى فى مستويات الإيمان، وما ذلك إلا رحمة من رب العالمين بعباده، فهو يريد لهم الرحمة والدرجات العلا فى الجنة، ودرجتك تتحدد حسب مستوى إيمانك.

– الأمر أشبه بالطفل الذى يدخل المدرسة لأول مرة فى حياته، ويذهب إليها يومياً ليتعلم دروساً جديدة، فإن كان طالباً مجتهداً، فإنه سيسعى إلى تحصيل العلم الكافى الذى يُمكّنه من اجتياز الاختبارات المتكررة خلال العام، حتى يأتى الامتحان الأصعب فى نهاية كل سنة دراسية(والذى يشبه تدرج شدة الابتلاءات كما سنرى)، وفى نهاية كل مرحلة دراسية وباجتيازها بنجاح ينطلق الطالب إلى مستوى أعلى، والذى سوف يواجه فيه منهج أشد، وبالتالى اختبارات أشد، وبالتالى أيضاً وجب عليه أن يزيد فى أداء واجباته، حتى يستطيع اجتياز العقبات الجديدة، وهكذا يرتقى الطالب فى المستويات الدراسية، (وهكذا يرتقى المؤمن فى

المستويات الإيمانية)، حتى يصل الطالب إلى السنة الدراسية الأخيرة والتى تحدد مسار حياته التالى.

– ارجع بذاكرتك إلى موقف مؤلم تعرضت له، إلى حادثة مررت بها، أو سمعت بها وكان لها وقع شديد على نفسك، هل تعلمت منها شيئا؟ هل علمت الحكمة منها؟

– اعلم أن الله قبل خلق السماوات والأرض، قد أعد لك هذه الحادثة، فى هذا الوقت تحديداً، ليختبرك بها، وليعلمك منها درس وليمنحك منها حكمة.

واعلم أن الفتن التى يُعانى منها المسلم لها دور رئيسى فى تحديد مواطن الخلل فى قلب المسلم[1]، بينما الابتلاء له دور رئيسى فى علاج هذا الخلل.

– واعلم أن أى ابتلاء يصيبك حتى وإن تشابه مع ابتلاء فرد آخر، إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون له نفس الحكمة ونفس الرسالة التعليمية، وذلك لأن الطبيعة الشخصية(القلبية) لكل فرد، وطبيعة نشأته تختلف من إنسان لآخر، وبالتالى فإن كل ابتلاء مُعد بحكمة بحيث يتناسب مع ما يجب على المؤمن تعلمه حتى ترتقى نفسه ويكتمل إيمانه.

وصدق القائل:

نوائب الدهر أدبتنى .... وإنما يُوعظ الأديب
قد ذُقت حُلواً وذقت مُراً .... كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم .... إلا ولى فيهما نصيب
كذلك من صاحب الليالى .... تغذُوه من دَرَّها الخُطوب[2]

إن من أسماء الله الحسنى: الخبير، العليم، الحكيم، اللطيف

الخبير: أى الخبير بأمور عباده فلا يخفى عنه شئ، (هو الذى لا تعزب عنه

(١) وهو ما سأبينه إن شاء الله فى كتاب (فتنة الدهيماء)
(٢) آداب الدنيا والدين ٢٥٦

الأخبـــار الباطنة، ولا يجرى فى الملك والملكوت شـــئ ولا يتحرك ذرة ولا يســـكن، ولا يضطرب نَفَس ولا يطمئن إلا ويكون عنده خبر)[1].

العليم: أى المُحيط بكل شئ علماً.

الحكيم: أى يضع الأشياء فى موضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها فى الأمور المختلفة، لما يُعطى أحســن النتائج، ولمــا كانت الحكمة تقتضى أن يكون الحكيــم ذا علم بكل الاحتمالات الممكنة، حتى يختــار منها ما هو الأحكم، يأتى ذكر العليم الحكيم معاً ا ختياراً كامل التلائم فى الثناء على التصاريف الربانية فى الكون بصورة عامة، وفى العباد ذوى الإرادات الحرة بصورة خاصة[2].

اللطيـف: هو الذى يُجــرى تدابيره وأعماله برفــق، أى أن أعماله تجرى دون أن تُــدرك بإحســاس، حتى تظهــر نتائجها، وقد تجرى على خــلاف المظنون من الأسباب[3].

إن الله خبــير بأنفس عباده، خبير بطــرق علاجها وتقويمها، حكيم فى إختيار نــوع الابتلاءات والأحداث التى يُمكن أن تســوق المؤمــن إلى أن يتبع المنهج الربانى كاملاً إن فطن إلى ذلك، لطيف بطريقة صياغة الأحداث فتهون بذلك على قلب المؤمن.

* فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (التوبــة - ١١٥)، (أى أن الله لا يحكم على قوم بالضلال حتى يُبين لهــم ما يجب عليهم أن يحذروا منه ويتقوه (أى إلتزام أمر الله ونهيه)، فإن وافقوا هذا البيان هداهم هداية معونة، وإلا كانوا من الضالين)[4].

(١) الإمام الغزالى: المقصد الأسنى
(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر، (١٠ / ٧٤١)
(٣) المرجع السابق بتصرف
(٤) انظر تفسير الشعراوى، وابن كثير والقرطبى للآية

أمثلة على بعض من الحكم الخفية فى الابتلاءات[1]

• المثال الأول:

قــد ترجع من عملك فى يوم من الأيام (وقد يكون دائماً)، وأنت مُرهق وتكاد أن تســقط فاقداً الوعى من شــدة التعب، ونتيجة لتعبك قد تُهمل أداء الصلاة، أو أداء واجبات يجب عليك أداءها قبل الراحة.

فى هذا اليوم عندما رجعت إلى بيتك وجدت ابنك مريض بشدة، فى هذه اللحظة قد تتردد قليلاً أن تســتريح أولاً، ثم تذهب بعد ذلك بابنك إلى الطبيب، ولكن شدة مرض ابنك تجعلك تنفض عن نفســك التعب والإرهاق وتأخذ ابنك سريعاً إلى أقرب طبيب.

ما هى الحكمة من هذا الابتلاء فى هذا الوقت تحديداً؟!

– للوهلة الأولى سنقول هو ابتلاء من عند الله يُكفر به بعض الذنوب، وهذا حق.

– ولكــن من الحكمة الخفية والدرس التعليمى الذى يجب أن يفطن إليه المؤمن، هو أن هذا الابتلاء جاء برسالة: **ألا تُهمل تنفيذ أوامر رب العالمين.**

لقد ألقيت التعب والإرهاق جانباً وانطلقت ســريعاً لإنقاذ ابنك، أفلا يكون أولى أن تُنقذ نفسك من عقاب رب العالمين وتؤدى الصلوات، والواجبات قبل راحتك، إن المؤمن الفطن هو من سيعى الدرس، فالتعب والكسل لم يكن حقيقياً، بل هو وسوسة شــيطان حتى لا تقوم بتنفيذ أوامر رب العالمين، مثل حديث رسول الله ﷺ: (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة – عليك ليــل طويل فارقد – فإن اســتيقظ فذكــرالله انحلت عقدة، فإن توضــأ انحلت عقدة،

(١) لا أدعى أن هذه هى الحكمة التى أرادها رب العالمين، ولكنها مُحاولة لفهم طريقة عمل الابتلاء، وطبيعتها

فإن صلـى انحلت عقدة، فأصبح نشـيطا طيب النفس، وإلا أصبـح خبيث النفس، كسلان)[1] بينما الغافل سيمرعليه الحدث فلا يتعلم منه شئ.

• المثال الثانى:

طالب مُجتهد فى دراسته، يؤدى واجباته كما ينبغى، وفجأة قبل الاختبار النهائى بيوم واحد يُصاب بمرض شديد يمنعه من الإستذكار قبل الاختبار، ما هى الحكمة من ذلك؟!

– بالنسبة للطالب المجتهد فإن المرض لن يُغير من علمه شئ، لانه كان مُستعداً قبل ذلك، واحتمالية أن يتجاوز الاختبار بكفاءة إحتمالية كبيرة.

– بينما الطالب غير المجتهد، فسيكون المرض عليه بلاء شديد، فهو أساساً غير مُستعد للاختبار، يزيد على ذلك المرض، وبالتالى فاحتمال تجاوز الاختبار ضعيف جداً.

– فى العادة سـنقول إنه قضاء وقدر، ولا يوجد نصيب، هو ابتلاء وكفى، وهذا أيضاً حق، ولكن!!!

– إن الحكمة الخفية للمؤمن أنه **يجب عليه أن يستعد دائماً بالأعمال الصالحة**، ويأخذ جانب الحيطة والحذر من تقلبات الحياة الدنيا.

فـلا تدرى نفس تقلبات القلوب فى الفتن، ولذلك كانت وصية رسـول الله ﷺ: (بادروا بالأعمال سـبعاً، هل تنتظرون إلا فقرا مُنسـياً، أو غنـى مُطغياً، أو مرضاً مفسـداً، أو هرماً مُفنداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدجال فشـرغائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر)[2]، تتقلب الأحوال والأزمان، فمن كان مُستعداً لذلك فسيكون الأمر عليه يسيراً.

وكذلك لا تدرى نفس متى سـتموت، فالموت يأتى بغتة، وفجأة سـتجد نفسـك

(١) متفق عليه

(٢) رواه الترمذى وقال: حديث حسن

أمـام ملائكة رب العالمين، إنتهت الدنيا، انتهى الإختبار، فإن لم تكن مستعداً، فستنادى: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠)، كلا، كانت لديك الفرصة كاملة وأنت لم تستفد منها، لا يوجد رجوع لتصحيح الأخطاء، ولذلك فحكمة الابتلاء إما أن تعمل صالحاً من الأن، وإما أنك ستقع فريسة للحياة الدنيا، فيضيع عمرك ذات اليمين وذات الشمال حتى تُلاقى ربك وليس لك حُجة تُنقذ بها نفسك.

• المثال الثالث:

قد تكون مهتماً جداً بموضوع معين، وتستعد له، وتقوم بترتيب حياتك عليه، ثـم يحدث أمر ما يُعطلك عن هذا الموضـوع، وتفقد ما كنت تأمل أن تحصل عليه من مكسـب، قد يكون مالاً، قد تكون وظيفة كبيرة، وقد يكون غير ذلك، وانتشـر بين النـاس مقولة لا تصح أن تُقال وهى: (يا مسـتعجل عطلـك الله)، ولكن أيضاً ما هى الحكمة من فوات الفرصة التى كنت تتمناها وتتطلع إليها؟

– هـى رسـالة إلى كل صاحب عقل، أن متاع الحيـاة الدنيا إن فاتك، فإن الحياة ستستمر، وستظهر غير هذه الفرصة فرص أخرى كثيرة، فلا تجعل من الدنيا أكبر همـك ومبلغ علمك، فيكون سـبب فـى هلاكك، ولن تحصل منهـا إلا على ما كتب الله لـك، وفى نفس الوقت احـذر أن يفوتك عمل الآخـرة، لأن فواته قد لا يُمكنك تعويضه، كمن لم يصم يوم فى رمضان مثلاً، أو كمن كان فى استطاعته رفع الظلم عن مسلم ولم يفعل ذلك.

• المثال الرابع:

قد يُصاب أحد أفراد أسرتك التى تُحبها وتبذل حياتك من أجلها، بمرض شديد يدفعك إلى أن تُنفق الأموال الطائلة فى سبيل علاجه، وقد يموت بعد كل المحاولاتك التى قمت بها.

بالنظرة الأولى سنرى أنه ابتلاء بالصبر، وابتلاء بتكفير السيئات ورفع الدرجات.

ولكن، أين الحكمة الخفية التى ينبغى عليك أن تتعلمها من هذا الابتلاء؟

– إنك فى سبيل علاجك لأحد أفراد أسرتك قد أنفقت كل هذه الأموال الطائلة، ولكــن على الجانب الآخر فإن الله قد أمرك بأقل من ذلــك بكثير، أمرك بأداء زكاة أموالــك، وأمــرك بالصدقة على الفقراء والمســاكين، وأن تصل بهــذا المال رحمك، بــل لقد جعل فى الصدقة (التى لم تقوم بها) الشــفاء، فقــال ﷺ: (داووا مرضاكم بالصدقة)[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ (سبأ- ٣٩)، فمهما أنفقت من شئ فى سبيل الله سواء قل أو كثر فإن الله سيُخلفه فى الدنيا، قبل الثواب العظيم فى الآخرة.

قد تكون بخلت بمالك أن تُنفق منه فى سبيل الله، فجاء الابتلاء ليعلمك الدرس: ليس المال الذى تكنزه هو الثروة الحقيقية، إن يشــأ الله يجعله هباء منثوراً، ولكن الثروة الحقيقية هى ما ستجده من ثواب نتيجة إنفاقك عند رب العالمين فى الآخرة، فعن أم المؤمنين عائشــة رضى الله عنها: (أنهم ذبحوا شــاة)، فقال النبى ﷺ: (ما بقى منها؟)، قالت: ما بقى منها إلا كتفها، قال: (بقيت كلُّها غير كتفها)[2].

وصدق رســول الله ﷺ، فما تصدقت به هو الباقــى، وما أكلت فهو الفانى، وما تكنزه سيكون به عذابك إن لم تؤدى حقه.

• المثال الخامس والأخير:

فــى الابتلاءات العامة والشــديدة التــى تجتاح مناطق كاملة مثــل زلزال مدمر أوفيضان مُهلك، فيموت الكثير، ويتشرد الأكثرية، وينجو القليل، فإن هذا الابتلاء يحمــل فى طياتــه ابتلاء التحذير من غضب ونقمــة رب العالمين، ولكنه وفى نفس الوقت يحمل حكمة خفية!

– هذه الحكمة لها جانبان: جانب عام وجانب خاص.

(١) أخرجه الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع الصغير وزيادته، برقم ٣٣٥٨ وحسنه
(٢) حديث صحيح، رواه الترمذي

الجانب العام:

إنــه ينبغى على النــاس أن يتكاتفوا جميعاً لرفع آثار هذا الابتلاء، والعمل على تقليل حجم الأضرار الناشــئة عنه، فلن يســتطيع واحداً بمفرده أن يقوم بذلك ولا حتــى مجموعة قليلة من الأفــراد، بل يجب على كل قادر منهــم أن يتعاون، وإلا هلكوا جميعاً وذلك لأن وجود جثث الموتى، بالإضافة إلى غياب الرعاية الصحية قد يؤدى إلى إنتشار الأمراض المُهلكة إن لم يتم إنقاذ سريع، والحكمة أنه عندما يزيد المنكر فى المجتمع، ويخرج عن الســيطرة، علــى الصالحين من أبناء المجتمع، أن يتركوا خلافاتهم، و يتكاتفوا لتغيير هذا المنكر، وإلا هلكوا جميعاً، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على ســفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا مــن الماء مروا على من فوقهــم، فقالوا: لو أنا خرقنا **فى نصيبنا**[1] خرقًا ولم نؤذِ مَــن فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكــوا جميعًا، **وإن أخذوا على أيديهم** نجوا ونجوا جميعا)[2].

بينما الجانب الخاص:

– عندما يرى كل فرد أن كل ما اكتسبه فى حياته الدنيا، وضيع من أجله سنوات عمره، قد هلك واختفى هكذا فى غمضة عين، أو كان قريباً من أن يضيع كله، فهذا الابتلاء رسالة: أن لا يرتكن المؤمن إلى الدنيا لأنها فانية، وكل ما فيها فان، وعليه أن يوجه عمله إلى الدار الباقية التى لا تزول، وهى الدار الآخرة.

– هذا الابتلاء جاء لتعليم كل فرد أن له دور فى المجتمع يجب عليه أن يؤديه، جــاء لتعريفه بقيمته الحقيقية فى المجتمع، فكل فرد له قيمته، وليس كّلٌ مهمل

(١) أشبه بمن يقول الحرية الشخصية، وليفعل كل امرء ما يشاء
(٢) رواه البخاري

بلا قيمة، وبالتالى لا يُقلل أحد من شـأن نفسـه، ولا من شـأن مساهمته فى إصلاح مجتمعه.

– هـذا الابتلاء يجعلـك ترى الجانب الخير فـى الناس وهم يتعاونون سـوياً من أجـل إصلاح ما يمكن إصلاحه، فقاعـدة أن الناس إنتهازيـين، وأنهم يعملون لمصلحتهـم وفقط تختفى فى هذه اللحظة، فجانـب الخير موجود ولكنه فى حاجة لمن وما يُخرجه.

– هذا الابتلاء يُعلمك الإيثار والتضحية التى فقدناها نتيجة الإقبال على الدنيا، وترك العمل للأخرة، ففيه يبذل كل فرد كل ما يسـتطيع من جهد ومعونة من أجل الآخرين، إبتغاء وجه رب العالمين.

الفصل الثالث

أنواع من الابتلاءات

فى هذا الجزء من الكتاب سوف أتعرض لثمانية أنواع من الابتلاءات، والتى يأتى كل ابتلاء منها لسبب وحكمة تختلف عن غيره من الابتلاءات، ولكنها تجتمع جميعاً لخدمة الغاية الأساسية من وجود الابتلاءات فى حياة المؤمنين، التى ذكرتها سابقاً، وليس بالضرورة أن يُبتلى المؤمن بابتلاء واحد فى المرة الواحدة، فقد يتعرض المؤمن لمجموعة من الابتلاءات فى وقت واحد، ولئن صبر على ذلك كله فسوف يفوز فوزاً عظيماً إن شاء الله.

١ - اختبار الإيمان
وفية يتم تمييز وتنقية الصف المؤمن

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران - ١٧٩)

أى أنه من حكمة الله ومن سنته فى عباده المؤمنين ألا يتركهم على إيمانهم دون أن يبتليهم بالابتلاءات الشديدة حتى يتميز بينهم صف المُنافقين، الخُبثاء.

فالكل يدعى محبة الله ورسوله ﷺ، الكل يدعى إيمانه بالله وتوكله عليه، الكل يدعـي أنه يضحى بالغالى والنفيس فى سـبيل الله، لذلك جاءت الاختبارات تباعاً، ومراراً وتكراراً ليميز الله الخبيث من الطيب، ليرى قوة إيمانك ومدى صدقك وكذبك فيما ادعيت، وهل حقاً تستحق أن تكون من خير أمة أخرجت للناس؟

﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۖ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ (آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧).

إن من المسـلمين من هو ضعيف الإيمان، فينقلـب على عقبيه بمجرد وقوعه فى فتنة أو ابتلاء يصيبه، وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحج - ١١).

فيصـور رب العالمين فى هذه الآية حالة من يعبده مـن أجل تحقيق منفعته فى الحيـاة الدنيـا، فهو يقيم بين المؤمنـين طالما كانوا فى عافيـة وأمن، ولكن بمجرد تعرضه لفتنه أو ابتلاء قد يؤثر على مصالحه، فإنه يرتد سـريعاً ويبحث عن طريق منفعة أخر غير سبيل المؤمنين.

بل من عجيب أمر المنافق الموجود فى الصف المؤمن أنه قد لا ينتظر وقوع البلاء، ولا ينتظر أن يعانى ويكابد كما يعانى المؤمنين، كلا، إنه ينسـحب مبكراً، بمجرد ظهور أولى إشـارات الابتلاء على طريق الإيمـان، يبدأ فى البحث عن طريق يُمكّنه

من الهرب من الصف المؤمن، ولذلك تجده يُسارع فى موالات الكافرين، وأيضاً يسوق الحجج والبراهين التى لن تغنى عنه من الله شيئاً، فهو لا يُريد أن يُبتلى، بل يعبد الله كما يشتهى هواه، وكيفما كانت المنفعة المرجوه من وراء ذلك.

قال الفضيل بن عياض: (الناس ما داموا فى عافية، مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم، فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه).

فى غزوة أحد:

استشار النبى ﷺ أصحابه قبل المعركة، فكان رأى عبد الله بن أبيّ بن سلول (وهو رأس النفاق) التحصّن فى المدينة، وعدم الخروج لمواجهة المشركين، لكن الشباب والمتحمسين وخاصة من الذين لم يشهدوا غزوة بدر، كانوا يرون فى الخروج للقتال أفضليه، ورجوا أن يصيبهم من الثواب والفضيلة ما أصاب أهل بدر، فنزل النبى ﷺ على رأيهم، وخرج فى ألف رجل.

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأُحد انخذل عنه عبد الله بن أبى بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصانى، ما ندرى **علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟**

فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام السلمى والد جابر بن عبد الله فقال: يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم، عند ما حضر من عدوهم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكنا لا نرى أن يكون قتال.

فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيُغنى الله عنكم نبيه.

وكذلك ما حدث فى غزوة الخندق[1]، فقد ارتعب المنافقون، وأخذوا فى البحث

(١) للزيادة فى هذا الموضوع يمكنك أخى الكريم قراءة السيرة النبويه وموقف المنافقين فى غزوتى أحد و الأحزاب.

عن وسيلة للهروب، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الأحزاب: ١٣ - ١٥).

– ومن ابتلاء الإيمان أيضاً: الابتلاء بالعبادات والأوامر الشديدة على النفس، وكلما اشتد الأمر على النفس وصعب كلما تميز الصف، وظهر المؤمن وهو يسارع فى تنفيذ أمر رب العالمين، وظهر تكاسل المنافق وركونة إلى هواه.

قال الله عن تغيير القبلة: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ (البقرة - ١٤٣).

قال ابن عباس: لنميز أهل اليقين من أهل الشرك والريبة.

قال ابن زيد فى قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ قال: من إذا دخلته شبهة رجع عن الله، وانقلب كافرا على عقبيه[1].

وقال الإمام فخر الدين الرازى: (إلا لنميز هؤلاء من هؤلاء بانكشاف ما فى قلوبهم من الإخلاص والنفاق، فيعلم المؤمنون من يوالون منهم ومن يعادون، فسمى التمييز عِلما، لأنه أحد فوائد العلم وثمراته)[2].

– ومثال أخر لننظر إلى ميعاد صلاة الفجر، جعلها الله فى وقت ترغب فيه النفس بشدة أن ترتاح وتستكين، فمن يلبى داعى الله وينفض النوم عن نفسه ويقوم ويصلى فذلك المؤمن حقاً، الذى ضحى براحة نفسه من أجل طاعة أمر رب العالمين، بينما المتكاسل والمنافق ومن جعل إلهه هواه، يجد فى صلاة الفجر صعوبة شديدة لدرجة المستحيل فى أدائها، ويؤديها (إن أداها) عندما ترغب نفسه، بعد طلوع الشمس بكثير....

(١) تفسير الطبرى.

(٢) ()التفسير الكبير لفخر الدين الرازى.

قال رسول الله ﷺ: (إنَّ أَثْقَل صلاة على المُنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر)[1]، قال الحافظ: وإنَّما كانت العشاء والفجر أثقل عليهم من غيرهما لقوة الدَّاعِي إلى تركِهِمَا، لِأَنَّ العشاء وقت السكون والراحة والصُّبْح وقت لذة النوم.

هناك فروق شاسعة بين من يأتمر بأوامر الله ومن يأتمر بهوى نفسه، لذلك جاء اختبار الإيمان لتمييز الصف المؤمن، وكشف حقيقة إيمان مُدعى الإيمان.

اختبار الإيمان هو مرحله تمهيدية قبل الإختبارات الأصعب، إن نجحت فيها كمؤمن، تنتقل لمستوى أخر من الاختبارات (الابتلاءات) والتى تزداد شدتها كلما إزداد مستوى إيمانك وتذكر

(فيُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلبا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقَّة ابتُلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة)[2].

(١) متفق عليه

(٢) رواه الترمذى (٢٣٩٨) وصححه، وابن ماجة (٤٠٢٣) وصححه الألبانى فى صحيح الترمذي

٢ - اختبار الصبر
وفيه تصنيف و تربية المؤمنين

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٢).

الصبر هو نصف الإيمان، فالإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر[٣].

قال ذو النون المصرى: الصبر: التباعد من المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة[٤].

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٥).

وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة - ٢١٤).

وقال: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (آل عمران - ١٨٦).

إن للإيمان درجات، فهناك مؤمن قوى فى إيمانه، وهناك مؤمن ضعيف فى إيمانه وما يُميز هذا عن ذاك (الصبر على البلاء)، فالمؤمن الضعيف الإيمان، ييأس سريعاً، ولا تثبت نفسه إن نزل به الابتلاء أو طال وقته، عن أنس رضى الله عنه قال: (مر النبى ﷺ على امرأة تبكى عند قبر، فقال: اتق الله واصبري. فقالت: إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى، ولم تعرفه.

---

(٣) مدارج السالكين، ج٢
(٤) المرجع السابق

فقيل لها إنه النبى ﷺ فأتت باب النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[1].

– والمصيبة الحقيقية أن عدم صبر المؤمن مع ضعف إيمانه، قد يدفعه إلى التنازل فى أمر دينه حتى يدفع عن نفسه البلاء، مما قد يؤدى إلى فقدانه لإيمانه مع كثرة التنازلات ويلتحق بصفوف المنافقين.

بينما المؤمن الثابت، الصلب، القوى فى إيمانه، يصبر ويصبر مهما طال وقت الابتلاء، وحتى لو قضى عمره بالكامل فى الصبر، فلا طريق لدخول اليأس إلى قلبه، وهو على يقين أنه: ﴿لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف - ٨٧).

عن عطاء بن أبى رباح قال: قال لى ابن عباس رضى الله عنهما: (ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلتك بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبى ﷺ فقالت: إنى أُصرع، وإنى أتكشف، فأدع الله تعالى لي. قال: (إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك) فقالت: اصبر، فقالت: إنى اتكشف، فادع الله لى ألا اتكشف، فدعا لها)[2].

لم يدعوا رسول الله ﷺ لها ان يرفع الله عنها هذا البلاء، وذلك لأن ثواب صبرها أعظم وأعظم من آلام الابتلاء.

– وعن قُرة بن إياس، قال: كان نبى الله ﷺ إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير، يأتيه من خلف ظهره، فيُقعده بين يديه، فهلك، فامتنع الرجل لأن يحضر الحلقة لِذكر إبنه[3]، فحزن عليه، ففقده النبى ﷺ، فقال: (ما لى لا أرى فُلانا؟!)

---

(١) متفق عليه وفى رواية لمسلم تبكى على صبى لها

(٢) متفق عليه

(٣) أى أن الرجل لم يحضر مجلس رسول الله ﷺ بعد موت ابنه، لأن المجلس كان يُذكره بإبنه وهو يلعب حوله ويجلس بين يديه.

قالوا: يارسول الله بُنَيُّه الذى رأيته هلك، فلقيه النبى ﷺ، فسأله عن بُنيه؟ فأخبره أنه هلك، فعزاه عليه، ثم قال:

(يا فلان، أيما كان أحب إليك، أن تمَتع به عُمُرك؟ أولا تأتى غداً إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟)

قال: يا نبى الله، بل يسبقنى إلى باب الجنة فيفتحها لى، **لهو أحب إلى.**

قال: فذاك لك[1].

وفى رواية أخرى تُبين مدى حب هذا الرجل لابنه، أن رسول الله ﷺ قال له: (أتحبه؟)، فكانت إجابة الرجل: (أحبك الله كما أحبه)[2].

تخيلوا هذا الحب، وتخيلوا صبر الرجل على فقدان إبنه، والثواب العظيم الذى سيناله بهذا الصبر رضاءً بقضاء رب العالمين، وهذه الفرحة يوم القيامة، أن يجد الرجل ابنه الذى كان قرة عينه فى الدنيا، وقد سبقه ليفتح له أبواب الجنه، هل هناك أعظم من ذلك بشارة لمن صبر على فُقدان ابن من أبنائه.

إن الله يبتلى المؤمنين بالابتلاءات الطويلة الأمد، الشديدة الوطأة، ليختبر صبرهم، ويصنفهم بين الصابرين وغير الصابرين، فالمؤمن الذى يصبر هو فقط من يستحق الصعود إلى الدرجة الأعلى التى يعدها الله له.

و فى اختبار الصبر، يرى الله الصادق فى إدعائه محبتة من الكاذب، (فإن بقوة الصبر على المكاره فى مراد المحبوب يعلم صحة مُحبيه، ومن هنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة، لأنهم كلهم إدعوا محبة الله تعالى، وحين امتحنهم بالمكاره إنخلعوا عن حقيقة المحبة، ولم يثبت معه إلا الصابرين، فلولا تحمل المشاق وتجشم المكاره بالصبر، لما ثبتت صحة محبتهم، وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً)[3]

(١) صحيح سنن النسائى برقم ٢٠٨٧، كتاب الجنائز
(٢) صحيح سنن النسائى برقم ١٨٦٩، كتاب الجنائز
(٣) مدارج السالكين، ج٢

ولذلك يُحذر ابن الجوزى رحمه الله فيقول: (إياك إياك أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مُبتلى بالبلاء، مُتعَبد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء)[1].

عن ابن مُليكة قال: أتيت أسماء[2] بعد قتل عبد الله بن الزبير، فقالت: بلغنى إنهم صلبوا عبد الله مُنكساً، وعلقوا معه هرة، والله إنى لوددت أنى لا أموت حتى يُدفع إلى فأغسله وأحنطه وأكفنه، ثم أدفنه، فما لبث أن جاء كتاب عبد الملك أن يُدفع إلى أهله، فأتيت به أسماء، فَغَسَّلَته وحنطته وكفَّنته ثم دفنته[3].

وعندما كان عبد الله بن الزبير مصلوباً، دخل عبد الله بن عمر المسجد فقالوا: هذه أسماء، فأتاها وذَكَّرها ووعظها فقال: إن الجُثة ليست بشئ، وإن الأرواح عند الله فاصبرى وإحتسبى، فقالت: وما يمنعنى من الصبر وقد أُهديَ رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل[4].

ولكن على ماذا يجب أن نصبر[5]؟

١ – الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به، والانتهاء عما نهى الله عنه، وبذلك تكون العبادة خالصة لله، ويصح دين المؤمن.

وهذا النوع من الصبر ينشأ من الخوف من الله، فمن خاف الله عز وجل صبر على طاعته، (عن أبى ظبيان قال: كنا عند علقمة فقرئ عنده هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (التغابن:١١)، فسئل عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم)[6].

---

(١) صيد الخاطر

(٢) الصحابية الجليلة أسماء بنت أبى بكر الصديق، زوج الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ، ووالدة عبد الله بن الزبيررضى الله عنهم جميعاً

(٣) إسناده صحيح ذكره ابن أبى شيبة فى مصنفه باب الفتن

(٤) إسناده صحيح، المرجع السابق

(٥) للمزيد، انظر آداب الدنيا والدين، للماوردى ٢٤٩

(٦) تفسير ابن كثير، سورة التغابن

٢ – الصبر على ما ينزل من ابتلاءات، فإن الصبر عليها يعقبه راحة منها، بالإضافة إلى المثوبة عنها، قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (لقمان: ١٧)، وصدق الإمام على رضى الله عنه إذ يقول: إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت، جرى عليك القلم وأنت مأزور.

٣ – الصبر على ما لم تستطع تحصيله، وذلك لأنه ليس لك فيه نصيب فلا تجزع عليه.

وفيه قال بعض الحكماء: (اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنلْه، مثل ما لا يخطر ببالك فلم تَقُلْه).

٤ – الصبر على الخوف مما يُتوقع حدوثه، كمثل الذى يخشى وقوع مصيبة أو ابتلاء، فلا يجب عليه أن يتعجل هَمَّ ما لم يأتى بعد، فإن أكثر هذا النوع من الهموم كاذبة، ولذلك يقول الحسن البصرى رحمه الله: (لا تحملن على يومك هَمَّ غدك، فحسب كل يوم همُّه).

٥ – الصبر على ما يرجوا حدوثه ويتوقعه، لأن المؤمن قد يعيش فترة من الزمن يتوقع حدوث نعمة ما، ويستعجل ذلك وينتظر بكل شغف، فتمر الأيام وتُغلق الأبواب ولا يأتيه ما كان يتوقعه، فيكون ذلك عليه شديد البلاء، لذلك جاء الصبر على ما ترجوا حدوثه، لترفع عن نفسك ابتلاء الجزع والحزن.

• ولذلك وكجزاء وفاقاً من رب العالمين للصابرين، فإنه يجزيهم أجرهم بغير حساب، ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر - ١٠)، بل و ينالون الدرجات العلا بالصبر، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد - ٢٣:٢٤).

أتت امرأة إلى النبى ﷺ بصبى لها فقالت: يا نبى الله! ادع الله له، فلقد دفنت ثلاثة!

قال: دفنت ثلاثة؟! قالت نعم. قال: لقد احتظرت بحظار شديد[1] من النار)[2].

ولحث المؤمنين على الصبر، قال ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[3].

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول (ما ابتلى الله عبدًا ببلاء وهو على طريقة يكرهها، إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وطهورا، ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله عزَّ وجلَّ أو يدعو غير الله فى كشفه)[4].

لماذا لا نصبر؟!

١. ضعف اليقين:

وهو السبب الأساسى فى أن كثير من المسلمين لا يصبرون على الابتلاءات، أو لا يصبرون على أوامر الله ونواهيه، فلو علم المسلم يقيناً ما له من ثواب على الصبر وما عليه من عقاب بتهاونه وتنازله فى أمر دينه نتيجة عدم صبره، لصبر على الابتلاء مهما كانت شدته، ولصبر على أوامر الله ونواهيه مهما إشتدت صعوبتها على نفسه ولبذل أقصى جهده فى سبيل أدائها، **فقدان اليقين بموعود الله هو أساس عدم الصبر.**

٢. استعجال النتائج:

يحب البشر أن يروا ثمار أعمالهم سريعاً، ويحبوا أن ينالوا ما تطمع فيه أنفسهم فى أقرب وقت ممكن، وبالمقابل يكره البشر الانتظار، ويكره البشر نزول المكروه بهم.

(١) أى احتمت بحمى عظيم من النار يقيها حرها ويؤمنها من دخولها لأنها صبرت على فقد أبنائها
(٢) رواه مسلم برقم ٢٦٢٦
(٣) رواه مسلم
(٤) رواه ابن أبى الدنيا وحسنه الألبانى، صحيح الترغيب والترهيب ٣٤٠

ونتيجه لذلك فإن بعض الناس لا تستطيع أن تصبر على أوامر الله الشديدة على النفس مثال فى العبادات: القيام لصلاة الفجر، لأنه فى هذه الحالة يجب عليه أن يضحى براحته الآن، بينما ثواب ذلك فى الآخرة، فتفتر نفسه عن الصلاة لقلة يقينه مع استعجاله للثواب (ثمن أعماله)، فلو كان الأمر لمكسب مادى لقام الرجل بكل نشاط ابتغاء نصيبه من الحياة الدنيا أما للآخرة فالثواب ليس الآن وبالتالى تفتر النفس عن تأدية الواجبات الشرعية المفروضة.

ومثال فى التعاملات: من يُعرض عليه المال الحرام، فهو قد يصبر على عدم الاقتراب منه فترات من الزمن، ولكن استعجال الثروة، والرغبة الملحة فى الغنى والتملك، تدفع صاحبها إلى الاعتداء على أموال الناس بالباطل، ويأخذ من المال الحرام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والسبب عدم الصبر على انتظار الغنى من المال الحلال، واستعجال الثروة.

وهناك الكثير من الابتلاءات التى تحتاج من المؤمن الصبر عليها حتى يتغلب عليها، إلا أن استعجال النتائج، والركون إلى الحياة الدنيا والتى هى فى متناول اليد يقيناً(لأن نتائج الصبر فى الحياة الدنيا يُرى فى الغالب بعد فترة طويلة، وثوابه يكون عند رب العالمين فى الأخرة، وبالتالى فإنتظار ثواب الصبر يحتاج إلى صبر)، يجعل البعض لا يصبرون على الاختبارات التى يتعرضون لها.

رسالة إلى الذين لا يصبرون

هل تعلم أنك ستقف أمام رب العالمين وسيحاسبك على الصغيرة والكبيرة؟
نعم تعلم، ولكنك أيضاً لا تستطيع أن تصبر!
هل تعلم أن طول يوم الحساب هو خمسين ألف سنة؟!
نعم خمسين ألف سنة!!!!

ستقف منتظراً حتى يأتى دورك! ستقف وستصبر على الوقوف رغماً عنك، ستقف وسط جموع هائلة من البشر، وقد دنت الشمس من الرؤوس، فيتصبب العرق

مــن الناس بغزارة، فيكون النَّاس عَلَى قــدر أعمالهم فى العرق فمنهم من يكون إلى كعبيــه ومنهــم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكــون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً! تخيل رجلاً يغرق فى عرقه! وعلى الرغم من هذه الشدة، على الرغم من هذه المعاناة، سيصبر رغماً عنه، سيصبر لأنه رأى يقيناً ما أخبر به رب العالمين فى كتابه وعلم كم كان ظالماً لنفسه ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة - ١٢).

الاختيار لك: إما أن تصبر على ابتلاء الله لك.
إما أن تصبر على نواهى الله التى نهاك عنها.
إما أن تصبر على أوامر الله التى إفترضها عليك.

وإما عليك أن تنتظر عقوبة من رب العالمين تتناسب وحجم الجرم الذى ارتكبته فى حق نفســك، وفى حق دينك، وتذكر دائماً خمســين ألف ســنة للوقوف فى يوم الحساب، فما بالك لو كان الجزاء بعد ذلك إلى النار أعاذنا الله منها جميعاً.

صوره من ابتلاء الصبر

- صبر النبى ﷺ:

كانت حياة النبى ﷺ صورة من صور الجهاد والصبر لله رب العالمين، ولكن منعاً للإطالة سآخذ صورة واحده من صور صبره ﷺ فيقول:

(قــد أُخفت[1] فى الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت فى الله وما يُؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعامٌ يأكله ذو كبد، إلا شيء يواريه إبط بلال)[2].

يبــين هذا الحديث جزء من الشــدة التى ابتُلى بها رســول الله ﷺ فى ســبيل

(١) من الإخافة أى هددت وتوعدت بالتعذيب والقتل
(٢) رواه الترمذى، وأخرجه ابن ماجه وابن حبان ، قال المناوي بإسناد صحيح

دعوته ونصرة دين الله، حيث لاقى فى سبيل ذلك الخوف والشدة والجوع، فيصف نفسه ﷺ بقوله بأنه أوذى فى الوقت الذى لم يؤذى فيه أحد، وهُدد بالتعذيب والقتل فى سبيل دعوته فى الوقت الذى لم يُخوف فيه أحد، فخوف وحده وأوذى وحدة، بل ولقى من الجوع ما لا يكاد يتصور أن نبى الله ﷺ، وأكرم الخلق على الله، يمضى عليه ثلاثون يوما بليله ونهاره لا يجد من الطعام إلا ما يحمله بلال رضى الله عنه تحت إبطه، كناية على أن هذا الشىء الذى يحمله من طعام شىء قليل حتى يستطيع أن يحمله بلال تحت إبطه، قد تكون كسرات من خبز أو تمرات معدودات، وصبر على ذلك وعلى أصعب من ذلك، إبتغاء وجه رب العالمين.

هذا الابتلاء تعرض له أنبياء الله جميعاً وهم أكرم الخلق على الله، وبالتالى وجب عليك كمسلم أن تُعد نفسك للإبتلاءات مهما كانت شدتها إقتداء برسل الله، وابتغاء الثواب من الله.

- **صبر نبى الله أيوب** عليه السلام:

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام والعبيد والمواشى، والأراضى المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران، فسُلب منه ذلك جميعاً، وابتلى فى جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بهما، وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكر الله عز وجل فى ليله ونهاره وصباحه ومسائه، وطال مرضه حتى عافاه الجليس، وأُخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنوا عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته، وضعف حاله وقل مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر، لتطعمه وتقوم بأوده، رضى الله عنها وأرضاها، وهى صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد وخدمة الناس، بعد

السعادة والنعمة والخدمة والحرمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون)[1].

(١) قصص الأنبياء لابن كثير

٣ - ابتلاء رفع الدرجات وتكفير السيئات

اعلم أخى الكريم أن الله يحب المُتقين، يحب لعبادة أن يسيروا على الصراط المستقيم، ويحب لهم أن ينالوا الدرجات العلا فى الجنة، ولكنه ترك للإنسان الإرادة الحره فى اختيار طريقه، والنتيجه أنه قد يحيد المسلم عن المنهج الذى وضعه الله له، وقد يرتكب من السيئات ما تمنعه عن الدرجة التى أعدها له رب العالمين، لذلك جاء الابتلاء ليكفر عن المسلم بعض ذنوبه التى إرتكبها، وترفع من درجته التى لم يكن لينالها لو لم يصيبه الابتلاء ويصبر عليه.

قال عكرمة: ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها، أو درجة لم يكن الله ليبلغها إلا بها[١].

وعن أبى هريرة قال: (لما نزلت ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسددوا ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها أو الشوكة يشاكها)[٢].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله وفى ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)[٣].

وعنه رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمله فما يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغها)[٤].

• ولكن! قد يسأل سائل، ألم يقل الله (لا إكراه فى الدين)، ألم يقل (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)، لماذا الابتلاء إذاً؟! فليفعل كل امرئ ما يشاء، ثم يُحاسب رب العالمين الناس يوم القيامة؟!

---

(١) تفسير القرطبى سورة الشورى آية ٣٠

(٢) متفق عليه

(٣) سنن الترمذى، باب ما جاء فى الصبر على البلاء حديث ٢٣٩٩ وصححه الألبانى

(٤) رواه أبو يعلى وفى رواية له: «يكون له عند الله المنزلة الرفيعة»، ورجاله ثقات

– سـؤال فى غاية الأهمية، وإجابته هى سـبيل المسـلم حتى يفهم مراد الله فى الابتلاء:

١ – إن الله رحيم بعباده الموحدين، وعندما يصيبه بابتلاء فى الدنيا فإنه يكفر عنه من بعض ذنوبه، وذلك أخف بكثير مما لو عذبه بهذه الذنوب يوم القيامة.

عـن أبى جُحيفة قـال: دخلت على علّى بن أبى طالب رضـى الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغى لكل مؤمن أن يعيه؟ قال: فسـألناه، فتلا هذه الآية ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (الشـورى: ٣٠)، قال: ما عاقب الله به فى الدنيا فالله أحلم من أن يُثَنى عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه فى الدنيا، فالله أكرم من أن يعود فى عفوه يوم القيامة[١].

٢ – لتصحيح المسـار، فإن الابتلاء فى الدنيا عـلاج لأمراض النفس التى قد تصيب بعض الموحدين لله، مثل العُجب بالنفس، والرياء، والحسد، وغير ذلك، فيأت الابتلاء، تذكيراً بالله، وعلاجاً، وتهديداً!

تهديداً أنه لا ينبغى لك كموحد بالله أن تحيد عن الطريق أو أن يكون فى قلبك مثـل هذه الأمراض الخبيثة، فإما أن تلتزم بمنهج الله، وإما العقاب الشـديد، الـذى قد يكون فى الدنيا قبل عذاب الآخرة، وهذا أيضاً من رحمة رب العالمين بعباده الموحدين أن يعالج نفوسهم حتى لا يضلوا الطريق.

– قال ابن القيم رحمه الله[٢]:

إن ابتلاء المؤمن كالدواء له، يستخرج منه الأدواء[٣] التى لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويسـتعد به لتمام الأجر، وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمـه كما قال النبـى ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك

(١) تفسير ابن كثير سورة الشورى آية ٣٠
(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان
(٣) الأدواء جمع داء

لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[1].

٣ – حتى نتقى الله، لأن الإنسان من طبيعته النسيان، ومع طول العمر وكثرت المسئوليات، ينسى الموحد لله الهدف من خَلقه، وطبيعة التزامه بتوصيل دعوة الله إلى الناس، ومع نسيانه يكون من السهل وقوعه فى الفتن والمعاصى، فيأتى الابتلاء تذكيراً للموحد، أن هذه الحياة الدنيا ليست دار مُستقر فلا تركن إليها، بل هى دار كَبد ومُعاناة ومشقة، لذلك يجب عليك كموحد أن تنظر إلى دار الخلد التى وعد الله المتقين، فإرجع إلى الصراط المستقيم، وهذا أيضاً من فضل الله ورحمته.

عن النبى ﷺ قال: (إن الله ليحمى عبده الدنيا وهو يحبه، كما يظل أحدُكم يحمى سقيمه الماء)[2].

فيوضح رسول الله ﷺ للمؤمنين، كيف أن الله يحميهم من الدنيا، فيبتليهم فيها بأنواع من الابتلاءات ، كما يحمى أحدنا إبنه أن يشرب الماء نتيجة مرضه، لأنه يعلم أن هناك ضرر من شربه لهذا الماء فى هذه المرحلة.

٤ – فى الابتلاء قد تتعرض لفقد عزيز لديك، قد تفقد والديك، قد تفقد أحد أبناءك أو كلهم، قد تفقد زوجتك، وأحب الناس إليك، وهى رسالة من رب العالمين، أنك ستأتى بمفردك، لن يكون معك أحداً يؤنس وحشتك فى قبرك، لن يخبرك أحد ماذا ستقول عند سؤال الملكين، بل أنت وحدك ومعك عملك، الذى سيظل معك حتى تقف أمام رب العالمين.

لن يُغنى عنك أحداً منهم شيئاً، ولن يحمل منهم أحداً عنك وزرك، بل أنت وعملك، رسالة لابد أن تغرسها فى أعماق قلبك، حتى لا يشغلك مالك أو كائن من كان عن أداء حق الله.

---

(١) رواه مسلم ٢٩٩٩

(٢) صحيح رواه الترمذى وحسنه برقم ٢٠٣٦

• ولو نظرنا لمجمل هذه الأسباب سنرى أن الله يبتلى عباده المؤمنين بهذا النوع من الابتلاءات لأنه يُحبهم، ويحب لهم الخير، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود - ٩٠)، ولذلك فهو يقود خطاهم حتى يسيروا على الصراط المستقيم فى الدنيا، فينجوا على صراط الأخرة، ولذلك يُستحب الحمد لله عند المصائب، فهو دليل على رضى العبد بقضاء الله وقدره، بالإضافة إلى فهمة لحكمة وتدبير رب العالمين فيما أصابه من ابتلاء.

ومثال لهذا الإبتلاء

ما كان من أمر عُروة بن الزبير[١]:

كان عروة بن الزبير أحد فقهاء المدينة الذين يلوذ بهم المسلمون لمعرفة أمر دينهم، وقد جمع بين العلم والعمل، فقد كان صواماً قواماً، رطب اللسان دائماً بذكر الله، مُلازماً لكتاب الله عز وجل، فكان يقرأ رُبع القرآن كل نهار نظراً فى المصحف، ثم يقوم به الليل تلاوة عن ظهر قلب.

وفى ذات سنة من خلافة الوليد بن عبد الملك[٢] شاء الله عز وجل أن يمتحن عروة بن الزبير إمتحاناً شديداً، فلقد دعاه خليفة المسلمين لزيارته فى دمشق، فلبى دعوته وصحب معه أكبر بنيه، ولما قَدِم على الخليفه رحب بمَقدمه أعظم الترحيب، وبالغ فى الحفاوة به.

وفى ذات يوم، دخل ابن عروة على إصطبل الوليد ليتفرج على جياده، فرفسته دابة بضربة شديدة أودت بحياته.

ولم يكد الأب المفجوع ينفض يديه من تراب قبر ولَدَه، حتى أصابت إحدى قدميه الآكلة، فتورمت ساقه، وجعل الورم يشتد وينتشر بسرعة كبيرة.

---

(١) والده هو الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ، وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، وجدته لأبيه هى صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وخالته هى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

(٢) سادس خلفاء بنى أمية

فاستدعى الخليفة لضيفه الأطباء من كل جهة، وحضهم على مُعالجته بأى وسيلة، ولكنهم أجمعوا على أنه لا مفر من بتر ساق عروة قبل أن يسرى الورم إلى جسده كله، ويكون سبباً فى القضاء عليه.

ولما حضر الجراح لبتر الساق، وأحضر معه مَبَاضعه لشق اللحم، ومناشيره لنشرالعظم، قال الطبيب لعروة: أرى أن نُسقيك جُرعة من مُسكِر لكى لا تشعر بآلام البتر المُبرحة.

فقال عروة: هيهات، لا أستعين بحرام على ما أرجوه من العافية.

فقال الجراح: إذا نسقيك المُخدر.

فقال عروة: ما أُحب أن أُسلب عضو من أعضائى دون أن أشعر بألمه، وأحتسب ذلك عند الله.

ولما هَمَّ الجراح بقطع الساق، تقدم نحو عروة طائفة من الرجال ليمسكوه حتى لا يجذب قدمه عندما يشتد عليه الألم فيتضرر بذلك.

فقال عروة: رُدوهم، لا حاجة لى بهم وإنى لأرجوا أن أكفيكم ذلك بالذكر والتسبيح.

ثم أقبل عليه الطبيب، فقطع اللحم بالمبضع، ولما بلغ العظم، وضع عليه المُنشار وطفق ينشره به، وعروة يقول: لا إله إلا الله والله أكبر، وظل على التهليل والتكبير حتى بُترت الساق تماماً.

ثم أُغلى الزيت فى مغارف الحديد وغمست به ساق عروة لإيقاف تدفق الدماء، وحسم الجراح، فأُغمى عليه إغمائة طويلة، فلم يقرأ حصته من كتاب الله فى ذلك اليوم، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى فاته فيها وِرده القرأنى منذ صدر شبابه.

ولما صحا عُروة دعا بقدمه المبتورة فناولوه إياها، فجعل يُقلبُها بيده وهو يقول:

أما والذى حملنى عليك فى عتمات الليل إلى المساجد، إنه ليعلم أننى ما مشيت بك إلى حرام قط.

وقد شــق على الخليفة ما نزل بضيفه من النوازل، فلقد فقد إبنه وفقد ســاقه فى أيام معدودات، فجعل يحتال لتعزيته وتصبيره على ما أصابه.

وصــادف أن نزل بدار الخلافة جماعة من بنى عبس فيهم رجل ضرير، فســأله الخليفة عن سبب كف بصره فقال:

يا أمير المؤمنين لم يكن فى بنى عبس رجل أوفر منى مالاً، ولا أكثر أهلاً وولداً، فنزلت مع مإلى وعيالى فى بطن وادٍ من منازل قومى، فطَرَقنا ســيل لم نر مثله قط، فذهب الســيل بما كان لى من مال وأهل وولد، ولم يترك لى غير بعير واحد، وطفل صغــير حديث الولادة، وكان البعــير صعباً، فَنَدَّ منى(أى شَــرد)، فتركت الصبى علــى الأرض ولحقت بالبعير، فلم أُجــاوز مكانى قليلاً حتى سمعت صيحة الطفل، فالتفت، فإذا رأسه فى فم الذئب وهو يأكله.

فبادرت إليه، غير أنى لم أســتطع إنقاذه إذ كان قد أتى عليه، فلحقت بالبعير، فلما دنوت منه، رمانى برجله على وجهى رمية حطمت جبينى وذهبت ببصرى، وهكذا وجدت نفسى قد عدوت فى ليلة واحدة من غير أهل ولا ولد ولا مال ولا بصر[1].

وهكذا يظل المؤمن فى إختبارات وإبتلاءات فى حياته الدنيا، حتى يلقى الله وقد كفــر عنه ذنوبه فى الدنيا، وهذا من فضل الله على المؤمنين حتى يرفع درجتهم فى الآخرة.

(١) صور من حياة التابعين د. عبد الرحمن رأفت الباشا، بتصرف

٤ - ابتلاء التحذير
وفيه تقويم لسبيل المؤمن[١]

وهو أشد من ابتلاء تكفير السيئات، ويأتى هذا النوع من الابتلاء فى فترة من فترات إنشغال المؤمن عن المنهج والمهمة التى إصطفاه الله لها، فينشغل بالحياة الدنيا وزخرفها، ينشغل بالراحة والأمن والأمان الذى يعيشه ويترك الدعوة لدين الله، ينشغل بجمع المال والعلو فى البنيان، وتكون الدنيا هى أكبرهمه، وأولى أولوياته عن العمل للأخرة وإبتغاء وجه ربه الكريم، بل قد يصل الأمر أن ينحرف مؤمن إلى طريق إكتساب خصال النفاق، فيتبع الهوى و يضل ضلالاً مبيناً، بل وأكبر من ذلك فقد يترك الإسلام بالكلية، ولك أن تقرأ أخى الكريم قصة الرجال بن عنفوة، الذى ارتد عن الإسلام وأيد مسيلمة الكذاب، لتعرف مدى خطورة الأمر، وقد قال عنه الصحابى الجليل رافع بن خديج[٢]: (كان بالرجال من الخشوع ولزوم قراءة القرآن والخير – فيما يُرى – شىء عجيب)[٣].

وقال ابن عمر: (وكان من أفضل الوفد عندنا، فكان أعظم فتنة على أهل اليمامة من غيره لما كان يُعرف به)[٤].

وصدق الله ربُنا فى قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (السجدة - ٢٢).

---

(١) غالب الإبتلاءات التى تقع للكافرين تكون تحت هذا النوع من الابتلاءات، ولكن الحديث فى هذا الكتاب فقط عن الابتلاء للمسلمين

(٢) من سير أعلام النبلاء: ابن رافع بن عدى بن زيد الأنصارى، استشهد يوم بدر، وشهد أحدا والمشاهد، وأصابه سهم يوم أحد، فانتزعه، فبقى النصل فى لحمه إلى أن مات، وقيل: إن النبى ﷺ قال: أنا أشهد لك يوم القيامة

(٣) مختصر السيرة النبويه، تأليف الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

(٤) المرجع السابق

وقد يسأل سائل، كيف لرجل آمن بالله رباً وارتضى الإسلام ديناً، أن يرتد عن الإسلام أو أن ينافق؟!

السبب أن هناك فرق شاسع بين إيمان الإنسان والصفات الشخصية الخفية لهذا الإنسان والحالة التى يوجد عليها قلبه، فالدور الذى يُفترض أن يقوم به الإيمان هو تقويم للصفات الشخصية للإنسان وسلوكه الظاهر و الباطن حتى يسير على صراط مستقيم متبعاً منهج الله، ولكن قد يكون هذا الإنسان لديه من الأمراض القلبية ما تؤدى به إلى الهلكة، بينما ما نراه نحن من التقوى والعمل الصالح، ما هو إلا صورة تُزين هذا المظهر الداخلى القبيح، فالأمر خاص بالقلوب، الإيمان القلبى وليس الإيمان الشكلى الذى لا يَثبُت بصاحبة لحظة الاختبار الحقيقى، وعندما تأتى هذه اللحظة يظهر إيمانه على حقيقته فيرتد على عقبيه.

كذلك فى حديث ضياع الأمانة الذى رواه الشيخان، وهو حديث حذيفة رضي الله عنه (إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال.....) ، فبعد أن كان الرجل أميناً، يأتى عليه زمان تفسد فيه الأوضاع الإجتماعية فساد كبير، وتفسد فيه التعاملات بين الناس، حتى تضيع الأمانة بينهم، حتى لا يتبقى منها فى قلب الرجل إلا مظاهر الخداع والنفاق.

نعم قد يضل المؤمن الطريق، فيأتى ابتلاء التحذير كالصفعة، أو كهزة عنيفة، يأتى كصيحة تحذير أن إستيقظ من غفلتك، أنت على خطر عظيم، إرجع إلى طريق ربك قبل فوات الأوان، ولا يفهم هذه الرسالة إلا المؤمن.

عن ابن عباس قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة:٢١): مصائب الدنيا وأسقامها وبلاؤها مما يبتلى الله بها العباد حتى يتوبوا.

قال ابن القيم: (فلولا أنه سبحانه يداوى عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه، أهَّله

لأشرف مراتب الدنيا، وهى عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه)[1].

(إن الضُر يُسقط عن الفطرة رُكام الأهواء والشهوات، ويعريها من العوامل المصطنعة التى تحجب عنها الحق الكامن فيها وفى ضمير هذا الوجود، فعندئذ ترى الله وتعرفه وتتجه إليه وحده)[2].

و يكون ابتلاء التحذير على صورة ضرر شديد يصيب المرء فى نفسه أو فى أهله وأحبائه، أو فى ماله ومعيشته.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾ (الأعراف - ٩٤).

البأساء: الجوع والمشقة والفقر وضنك العيش والحرب.

الضراء: الشدة وكل حالة تضر فى الأموال والأنفس.

التضرع: هو التذلل والخضوع.

– دلت هذه الآية على سنة من سنن الله عز وجل التذكيرية التأديبية، التى يُعالج الله عز وجل بها عباده، وقد أجراها جلت حكمته فى كل الأمم الذين كفروا، أو أسرفوا فى الانحراف عن صراط الله المستقيم، بالمعاصى والمخالفات، وكثرة الفساد والإفساد فى الأرض، والغرض من إنزاله المكاره فى هذه الأمم، ابتلاؤهم بما يُثير فطرتهم الإيمانية التى فطرهم الله عليها والتى يوقظها فى الناس غالباً (وإن كانوا من أهل الكفر والشرك بالله)، مس آلام الشدائد والمصائب، وفقد الضروريات للحياة، فيتضرعون لله خاضعين مُتذللين داعين أن يكشف عنهم ما هم فيه من مصائب وشدائد ومكاره)[3].

– قال الله عن اليهود عندما اتبعوا أهوائهم وعصوا أوامر ربهم ﴿ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٨).

(١) زاد المعاد (٤ / ١٩٥)

(٢) فى ظلال القرآن سورة الزمر

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر د. عبد الرحمن الميدانى (٤ / ٤٣٣)

(وهذه سنة الله فى عقاب الأمم التى تفسق عن أمره وتخالف أوامر دينه، وهى كما تنطبق على اليهود، تنطبق على غيرهم من الأمم التى لا ترعوى عن غيها، بل تتمادى فى فجورها وطغيانها وتسير قدماً فى غوايتها وضلالها)[1].

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، (أى رغبة فى أن يستيقظوا من غفلاتهم، ويعلموا أن الله – جلت حكمته، وعظم سُلطانه – يُذكرهم بنفسه، عن طريق تنويع مقاديره فيهم، ليرجعوا تائبين إليه فى أحوال المصائب والمكاره التى تسوؤهم، وشاكرين مُطيعين فى أحوال النعم والعطايا التى تسرهم، وليعملوا بشريعته ومنهجه)[2].

وفى غزوة أحد يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(آل عمران:١٥٢)

(عن البراء رضى الله عنه قال: لقينا المشركين يومئذ(فى غزوة أحد) وأجلس النبى ﷺ جيشا من الرماة، وأمر عليهم عبد الله (عبد الله بن جبير) وقال، لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا، فلما لقينا، هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون الغنيمة.. الغنيمة، فقال عبد الله عهد إلى النبى ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا، صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلا)[3].

وقال ابن مسعود: ما علمنا أن أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ كان يريد الدنيا وعرَضَها، حتى كان يومئذ[4].

---

(١) تفسير المراغى سورة الأعراف

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر(٤ / ٦٩٤)

(٣) صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة أحد

(٤) تفسير الطبرى سورة آل عمران الآية ١٥٢

وقال تعالى أيضاً عن مصيبة غزوة أحد ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَابَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٦٥ - ١٦٦)

(لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه، حملة رايته، وأصحاب عقيدته، ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان فى قلوبهم، وباستيفاء مقتضيات الإيمان فى تنظيمهم وسلوكهم، وباستكمال العدة التى فى طاقتهم، وببذل الجهد الذى فى وسعهم، فهذه سنة الله، وسنة الله لا تحابى أحدا، فأما حين يقصرون فى أحد هذه الأمور، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير، فإن كونهم مسلمين لا يقتضى خرق السنن لهم وأبطال الناموس، فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن، ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس.

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدرا كذلك، ولا يضيع هباء، فإن استسلامهم لله، وحملهم لرايته، وعزمهم على طاعته، والتزام منهجه، من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيرا وبركة فى النهاية – بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح – وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروسا وتجارب، تزيد فى نقاء العقيدة، وتمحيص القلوب، وتطهير الصفوف، وتؤهل للنصر الموعود، وتنتهى بالخير والبركة، ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته وعنايته، بل تمدهم بزاد الطريق مهما يمسهم من البرح والألم والضيق فى أثناء الطريق)[1].

وكذلك فى غزوة حنين، عندما شعر المسلمون بكثرة عددهم وأنهم أصبحوا أهل قوة، وعِزة ومِنعة، وقال قائل من القوم لن نُغلب اليوم من قلة، فكانت الهزيمة الأولى فى بداية الغزوة، قال تعالى ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ (التوبة - ٢٥)

قال ابن القيم: (واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة

(١) الظلال آل عمران

والكسـرة مع كثرة عَدَدِهم وعُدَدِهم وقوة شوكتهم، ليضع رؤوسا رُفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسـول الله ﷺ واضعا رأسه منحنيا على فرسه حتى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعا لربه وخضوعا لعظمته واستكانة لعزته)[1].

– إن ابتلاء التحذير هو إشارة للمؤمن، انتبه أنت لا تسير على الطريق الصحيح، ينبغى عليك تعديل المسار الذى تعيش به.

ولذلك فإن المؤمن المُبتلى ينبغى له أن ينظر إلى الابتلاء على أنه اختبار وتوجيه فـى نفس الوقت، توجيهـه إلى أن الطريقة التى يحى بها كمؤمـن، والنظام الذى يتبعه لحياته يحتاج إلى تعديل وتنظيم حتى يتوافق مع الأسلوب والحياة التى جاء بها المنهج الإلهى الذى وضعه الله للبشر عامة وللمؤمنين خاصه، لا ان يجعل المنهج يتناسب مع حياته وطريقة معيشته.

عـن صفية (زوج عبد الله بن عمر بـن الخطاب) قالت: تزلزلت المدينة على عهد عمر بن الخطاب، وابن عمر رضى الله عنهما، قائم لا يشـعر حتى اصطفقت السـرر فلما أصبح عمر رضى الله عنه قال: يا أيها الناس ما أسرع ما أحدثتم؟ (وفى لفظ)لإن عادت لأخرجن من بين أظهركم[2].

– ومن ابتلاء التحذير أيضاً، ظهور الفساد وانتشارة، قال تعالى:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم - ٤١).

فيبين الله الارتباط الوثيق بين طبيعة الحياة، والأوضاع التى يعيشها الناس وبين أعمالهم والطريق التى يسـيرون فيه، فنتيجة لعدم اتباع منهج الله، ينتشر الفساد براً وبحراً، ويسـيطر على جميع مناحى الحيـاة، لدرجة أن يتذوقة الناس فى كل

(١) زاد المعاد (٣ / ٤٧٧)

(٢) أخرجه أبوبكر ابن أبى شيبة فى «المصنف»، ونعيم بن حماد فى «الفتن»، وابن أبى الدنيا فى «العقوبات»، والبيهقى فى «السنن الكبرى»

مناحـــى حياتهم، وما ذلـــك إلا بتدبير من رب العالمين ليُرى النـــاس أثر البُعد عن المنهج، تخويفاً لهم لعلهم يتوبوا ويرجعوا إلى طريق ربهم.

أمـــا كيف يقود الله خطـــى العاصين لعلهم يتوبـــوا ويرجعوا إليه؟

فـإن الله يبتليهـم بالابتـلاءات من نفـس جنس المعصيـة التى يعصـون الله بهـا ليذوقوا وبال أمرهم، فيعلمـوا أن معاصيهم هذه هى سبب ابتلائهم، كما فى الحديث عن رسول الله ﷺ:

(يا معشر المهاجرين، خصال خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن:

١ – لم تظهر الفاحشـــة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا.

٢ – و لم ينقصوا المكيال و الميزان إلا أخذوا بالسنين[١] و شدة المؤنة و جور السلطان عليهم.

٣ – ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا.

٤ – ولم ينقضوا عهد الله وعهد رســـوله إلا ســـلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم،

٥ – و ما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا[٢] مما أنزل الله إلا جعل الله بأســـهم بينهم)[٣].

• فنجد أن ســـبب الأمراض والطاعون والآلام التى لم تكن موجودة من قبل، هو عقاب من رب العالمين للقوم الذين إنتشر بينهم الفاحشة (الزنا) وأعلنوا بها، فهى تذكير لهم أن يتوبوا ويرجعوا، ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

(١) أى جدب وقحط

(٢) أى يطلبوا الخير، أى: وما لم يطلبوا الخير والسعادة مما أنزل الله

(٣) صحيح الجامع برقم ٧٩٧٨، وأخرجه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبى: صحيح

• بينمـا الجدب والقحط وشـدة الفقر وظلم الحكام، فإنه بسـبب نقص المكيال والميزان.

• الجفاف وانقطاع المطر نتيجة منع الزكاة، فمن منع زكاة ماله فإنه يُضيق على الفقراء ويضيع أمر الله، فيُضيق الله عليه، لعله يتذكر أو يخشى.

• غزو العدو للبلاد واسـتيلاءه عليها وعلى خيراتها، بسـبب نقض عهد الله[1] ورسوله ﷺ.

ومعنى نقض عهد الله ورسوله ﷺ، أى عدم الوفاء بما أعلن الإنسان الالتزام به، أو قطعه على نفسه من عهد أو ميثاق، بينه وبين الله تعالى[2].

• قتال المسـلمين بعضهم البعض، وشـدة الظلم بينهم والشحناء والبغضاء، إذا ترك ولاة الأمور الحكم بما أنزل الله، ولم يتبعوا المنهج الربانى.

وبالتالى وجب عليك كمسـلم مؤمن بالله أن لا تتجاوز حدك فـى عصيان أوامـر رب العالمـين، فمعصيتك تُطلق نـوع مُعين من الابتـلاء، والـذى يكـون الهـدف منه هـو أن يـردك إلى الصراط المستقيم.

– بـل ويجعل الله من بعض العصاة عبرة لغيرهم، فيعاقبهم عقاباً شـديداً حتى يرجع من يفعل مثلهم عن طريق الفسـق والفجور فيقول رسـول الله ﷺ: (فى هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: إذا ظهرت القيان والمعازف، وشربت الخمور)[3].

وقال: (ليشـربن ناس مـن أمتى الخمر يسـمونها بغير اسمهـا، يعزف على

(١) عهد الله: قال الراغب فى المفردات: عهد الله تارة يكون بما ركزه فى عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب والسنة، وتارة بما نلتزمة وليس بلازم فى أصل الشرع، كالنذور وما يجرى مجراها

(٢) نضرة النعيم: (١١ / ٥٦٣٣)

(٣) رواه الترمذى ٢٢١٢، وقال غريب، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى

رؤوسهم بالمعازف، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير)[1].

• إن ابتلاء التحذير يكون بمثابة ردع عن الإنحراف، و إيقاظ من الغفلة، وإعادة إنطلاق جديده للمؤمن، ليسير فى الطريق الصحيح وعلى المنهج الذى رسمه رب العالمين.

يقول ابن قيم الجوزية:

(إذا ابتلى الله عبده بشئ من أنواع البلايا والمحن، فإن ردّه ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به.

والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد ان كان شارداً عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائياً عنه، وانطراحه على بابه بعد ان كان مُعرِضاً، وللوقوف على أبواب غيره مُتعَرضاً)[2].

(كان لبّان يخلط الماء باللبن، فجاء سيل، فذهب بالغنم، فجعل يبكى ويقول: اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلاً، ولسان الجزاء يُناديه: يداك أوكتا، وفوك نفخ، فأنت الجانى أولاً والبادى أظلم)[3].

صورة من ابتلاء التحذير

(قصة أصحاب الجنة)

قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ

(١) صحيح رواه ابن ماجه ٣٢٦٣

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين

(٣) المدهش لابن الجوزى ٣٨٩، بتصرف يسير

﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ **(القلم:١٧ - ٣٣).**

إخوة مـن اهل الكتاب مؤمنين بالله، ورثوا من أبيهم بُسـتاناً (جنة)، وقد كان أبوهم رجلاً صالحاً فكان يؤدى حق الفقراء والمساكين من ثمرات بستانه، ويسير فيه سيرة حسنة، فكان ما يجمع من ثمرات بستانه يقسمه إلى ثلاثة أقسام:

– فيأخذ ما يحتاجه البستان للسنة القادمة فيجعله قسماً، ويعزله ليرده فيه.

– ويدخر لعياله قوت سنتهم، وهذا هو القسم الثانى.

– ويتصدق بما فضل عن القسمين السابقين على الفقراء والمساكين، وهذا هو القسم الثالث.

فلما مات هذا الرجل وورثه بنوه، شـحَّت نفوسـهم عن إعطاء الفقراء والمساكين حقوقهـم، وقام بينهم جدل، إذ كان أوسـطهم حريصاً على أن يتبع سـيرة أبيه، لكن إخوته لم يوافقوه، فسـايرهم وإتفقوا على أن يقطعوا ثمرات جنتهم فى الصباح الباكر، دون أن يشـعر بهم المُسـتحقون من الفقراء و المسـاكين، فيأتوهم على عادة أبيهم.

ثم ذهب كل فرد إلى بيته، فناموا وهم مطمئنين أن كل الخير الموجود فى البستان سيكون لهم، ولن يُعطوا منه شئ لأحد من الفقراء والمساكين.

ولكـن الله مُطلع على تدبيرهم، يسـمع ويرى، فعلم الله مـا اتفقوا عليه، فأهلك ثمـرات جنتهم ليـلاً إهلاكاً شـاملاً، تأديباً لهم على اسـتهانتهم بحق الله، وحق الفقراء والمساكين.

وخرج الإخوة مع طلوع الفجر، وقبل أن تشـرق الشـمس، متسللين، يتهامسون بينهم خوفاً أن يشـعر بهم أحد، عازمين على فعـل ما قرروه بالأمس، فلما وصلوا إلى جنتهم، رأوها خاوية على عروشـها، قد احترقت واسـودت، وتلفت ثمارها،

فأخذوا يتلفتون حولهم، أهذا بُستاننا؟ أم نكون قد ضللنا الطريق؟ وعندما تيقنوا أن هذا بُستانهم الذى كان عامراً بالأمس، ندموا على ما كان من عزمهم، وصاروا يتلاومون فيما بينهم، وإعترفوا بذنبهم، فتابوا إلى ربهم، وسألوه أن يُبدلهم خيراً من جنتهم وثمراتهم التى أتلفها الله لهم[1].

والآن: لننظر إلى حال هؤلاء الإخوة، كيف ستكون حالتهم النفسية لو لم يحترق بستانهم؟ بل كيف سيكون دينهم فى هذه الحالة؟

لو لم يحترق بستانهم، لامتلاءت نفوسهم شرهاً وحباً للمال أكثر، ولأقبلوا على الدنيا، وأهملوا العمل للآخرة، وهذا بالتإلى سيؤثر على دينهم، فالشره لإمتلاك المال يعمى عن رؤية الحرام، فيمتنعوا عن أداء زكاة أموالهم، فيأكلوا حق الفقراء كما كانوا ينوون، هذا إن لم يتطور الأمر معهم إلى التعاملات المادية الحرام لتنمية أموالهم وزيادتها، فطريق الضلال يبدأ بخطوة يتنازل فيها المرء عن جزء يسير من دينه، يتبعا خطوات وخطوات حتى يتنازل المرء عن كل دينه.

والآن: لننظر إلى جانب آخر، وهو رد فعل الناس المحيطين بهم، من جيران وأقارب ومعارف، كيف سيتكون نظرتهم إليهم؟

نعم، نظرة شفقة ورحمة وأنهم لا يستحقون هذا الابتلاء العظيم بعد موت والدهم الرجل المؤمن التقى، بل قد يصل الأمر ببعض الناس إلى إتهام الله بالظلم لتعريضه هؤلاء الإخوة لهذا الابتلاء.

ولكن الحقيقة أن الله رحيم بعباده، أن الله يريد أن يهديهم ويتوب عليهم، لذلك فقد أصابهم بهذا الابتلاء العنيف ليستيقظوا من غفلتهم، لينظروا جيداً أين تسير خطاهم، وهذا ما حدث فعلاً، لقد تابوا وأنابوا إلى الله، وتحول الطمع والكبر الذى كان فى نفوسهم إلى خضوع وتذلل لله رب العالمين، وهذا يعنى أنهم قد فهموا مراد الله من ابتلاءه لهم، **وبهذا يكون الابتلاء قد حقق الهدف منه.**

(١) انظر معارج التفكر ودقائق التدبر (١ / ٢٣٥)

ثم يستطرد رب العالمين بعد نهاية القصة بتعليق يُظهر مدى رحمته بعباده، وهو ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (القلم- ٣٣)، فلو لم ينزل بهم هذا الابتلاء لكان مصيرهم إلى النار وهو أشد وأكبر.

فكان هذا مثال لكل عاصى، ولكل من حاد عن طريق الله، أن الله لا يغفل عما يعمل، وإنه يريد بعباده المؤمنين الخير، ولذلك فهو يُعاقبهم فى الدنيا حتى يفهموا رسالة ربهم إليهم، فيتوبوا ويرجعوا إلى الصراط المستقيم، وإلا فإن عذاب الآخرة أشد وأبقى.

٥ - ابتلاء الضنك

من عصى الله سلّط الله عليه جُنديان لا ينفكان عن قلبه حتى يتوب: الهمّ، والغم[١].

الضنك: الضيق فى كل شىء (يستوى فيه المذكر والمؤنث) تقول لغة: (عَيْش ضنك، ومَعيشة ضنك)، أى: ضيقة، لا سعة فيها، وقد يكون ضيقاً نفسياً ولو كان المضيق عليه ذا سعة من المال)[٢].

ابتلاء الإصابة بالضنك، ويلتحق بابتلاءات تكفير السيئات والتحذير السابقين، وهو من الابتلاءات الشديدة، والخطيرة، وخطورته تكمن فى أنه ابتلاء خفى قلما يفطن الناس إلى أسبابه، وفيه يشعر المسلم بضيق فى صدره، بهم وغم مستمر، بوحشة فى قلبه حتى وهو بين الناس، **والهدف من ابتلاءك بهذا النوع من الابتلاءات، ليس فقط تكفير السيئات، ولكنه رسالة إنذار أنك بعدت بُعداً كبيراً عن الله**، وإن أردت الراحة القلبية فعليك أن تعود سريعاً، ولذلك يبتليك الله بهذا النوع من الابتلاءات ليس لأن تصرخ، وأن تتعصب، أو أن تمشى هائماً على وجهك لا تدرى إلى أين تسير، أو أن تطلق زفرات الهم والكبت التى فى نفسك، أو حتى تنتحر كما يفعل البعض، ولكن حتى ترجع إليه وتتوب عن المعاصى التى وقفت حاجزاً بينك وبين الله، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ (النساء:٢٧ - ٢٨).

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ (طه - ١٢٤).

---

(١) ابن قيم الجوزية

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر، د. عبد الرحمن الميدانى (٨ / ٣٥٧)

(هــذا البيان من توابع ما أبان الله عــز وجل لآدم عليه السلام، بعد إهباطه مع زوجته من الجنة إلى الأرض.

وهــو يتعلــق بمؤمن أعرض عن الذكر الربانى المُنَــزل، وترك العمل بما جاء فى هُداه، فكان سُــلوكه مُشابهاً ســلوك الكافرين، وقد جعل الله له عقابين مُرَتبين على إعراضه عن الذكر بعد أن آمن به عالماً بما جاء فيه من هُدى.

العقاب الأول: أن يجعل له معيشة ضنكاً فى الحياة الدنيا.

العقاب الثانى: أن يحشره الله يوم القيامة بعد البعث أعمى، نظير حشر الكافرين عُميا، لمُشابهته لهم فى أعمالهم)[1].

يقول الشيخ الشــعراوى رحمه الله: (الضنك: هو الضيق الشديد الذى تحاول أن تُفلت منه هنا وهناك فلا تســتطيع، والمعيشــة الضنك هذه تأتى من أعرض عن الله، لأن من آمن بالله، إن عَزَّت عليه الأســباب لا تضيق به الحياة أبداً، لأنه يعلم أن له رباً يُخرجه مما هو فيه، المؤمن يقول: لى رب يرزقنى ويفرج كربى، أما غير المؤمن فحينما تضيق به الأسباب وتُعجزه، لا يجد من يلجأ إليه، فينتحر)[2].

فهــذا الذى يُعــرض عن الله ويقع فى فتن الحياة الدنيــا، تمتلئ حياته بالهموم والمشــاكل (لأنه يخالف منهج الله، وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس: خالفنا منهج الله وفلحنا، لذلك **كان لابد أن توجد المشاكل لتنبهنا أن منهج الله يجب أن يُسيطر**)[3].

(١) المرجع السابق بتصرف يسير
(٢) تفسير الشعراوى، سورة طه أيه ١٢٤، بتصرف يسير
(٣) تفسير الشعراوى، سورة البقرة، جزء من تفسير الأية ١٨٧

ولكن كيف بَعُد المؤمن بالله، عن الله؟!

فمعرفة سبب ابتعاد المؤمن عن الله بعد أن هداه الله تساعد على سهولة العلاج، وسهولة الرجوع إلى الله، فمعرفة أصل المرض فى هذه الحالة، أكثر أهمية من أعراض المرض.

يرجع سبب إبتعاد المؤمن عن الله إلى ثلاث أمور متصلة اتصال وثيق، إذا بدأ الأمر الأول، جاء فى أثره الثانى، والذى يقود إلى الأمر الثالث فى سلسلة تؤدى إلى تقلب القلب ومرضه ثم موته، إن لم يُعالج العلاج الصحيح، أما هذه الأمور فهى:

١ – فقدان الصلة بالله.

٢ – حب الدنيا.

٣ – عدم الخوف من الله.

أولاً: فقدان الصلة بالله:

اعلم أن أول وأقوى أسلحتك فى مواجهة شياطين الجن والإنس هو صلتك بالله وارتباطك به، ويعلم إبليس ذلك، ولذلك فإن أول خطوة من خطوات إبليس هى أن يُبعدك عن مصدر قوتك، فيزيد ضعفك وبالتالى يسهل افتراسك بعد ذلك، وبالنظر إلى قصة آدم عليه السلام كأول مثال للبشر عن كيفية خداع إبليس وطريقة هجومه، نجد أن أول خطأ وقع فيه آدم عليه السلام هو عدم التجاءه إلى الله عندما بدأ إبليس وسوسته، ولذلك يوصى الله المُسلمين فى القرآن فيقول: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

فلا تظن أن الشيطان غلب وانتصر بسبب قوته وضعفك، وعلمه وجهلك، بل انتصر عليك لسببين: إعراضك عن الالتجاء إلى الله، وإعراض الله عنك فتركك لنفسك.

فقد أثبت الله فى قرآنه أن كيد الشيطان ضعيفا، ولكن هذا الكيد الضعيف أثر تأثيراً كبيراً على نفسك لأنك سمحت له بذلك، وفتحت له الباب على مصراعيه ليُضلك كيفما يشاء، أنت المسئول الأول، ولذلك ليس من العجيب أن يتبرأ إبليس

ممن اتبعه يوم القيامة فيقول ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ (إبراهيم - ٢٢).

إن كنت لا تصلى، أو لديك خلل فى الصلاة، سواء فى اكتمال خشوعها، أوالتزام وقتها، فإعلم أنه تم تجريدك من سلاحك الأول والأقوى فى مواجهة إبليس وأعوانه، وبالتالى فانهزامك فى باقى الجوانب سيكون محصلة طبيعية حتمية، فالصلاة تمثل الصلة الأساسية المباشرة بينك وبين الله (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء)[1].

ثانياً: حب الدنيا:

بعد أن يُفقدك إبليس أقوى أسلحتك، بعد أن يُضعف صلتك بالله، يُزين لك الدنيا، فيحببها إليك، فتكون هى دار اليقين التى تبذل جهدك فى العمل لها، فيتجه عقلك وقلبك إليها تسعى أن تمتلك كل ما تستطيع أن تمتلكه، وتسعى جاهداً، وتسعى، حتى تتم عملية استبدال فى قلبك وأنت لا تشعر(لأن إبليس يُزين لك عملك وسعيك فتظن أنك على صراط مُستقيم)، تقل صلتك بالله ويزيد حبك للدنيا، حتى تنسى ربك وتنسى دينك.

ومن يقع فى حب الدنيا يُصاب بثلاث أمراض فى قلبه: الحسد والبغض وكره الحق.

فمريض حب الدنيا يُحب ان يجمعها بمفرده، ويحزن عندما يجد غيره قد أخذ نصيباً منها فى الوقت الذى لم يحصل هو شخصياً على كل شئ ويرى من نفسه أنه يستحق المزيد، فيحسد المسلم أخاه على ما أعطاه الله إياه، وبالتالى يؤدى الحسد إلى التباغض، والعداء بين الناس، وتذهب الألفة والمحبة، ويلجأ فريق من الناس إلى الحصول على الأموال والسلطة بطرق غير مشروعة وقبيحة مما يؤدى بهم إلى كره الحق وكره أهل الحق.

فمن مصائب حب الدنيا كره الحق، لأن الحق يتعارض مع المصالح الشخصية،

(١) رواه مسلم

وبالتالى فإن صاحب المصلحة المُحب للدنيا سوف يعمل على تحقيق رغباته وشهواته مهما كانت حتى لو عن طريق طمس الحق ومعاداة أهله.

عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (بادروا بالأعمال[1] فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً، أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً، **يبيع دينه بعرض من الدنيا**)[2].

والنتيجة الخطيرة لحب الدنيا نراها فى موقف رهيب يوم القيامة، والكل يبحث عن سبيل نجاة من هذا الهول، والمؤمنون يسعون يُنير نورهم الطريق، والمنافقون الذين ارتضوا بالحياة الدنيا يسعون من ورائهم يلتمسون نور المؤمنين ليضىء لهم الطريق، وفجأة يُفصل بين المؤمنين والمنافقين بسور له باب، باطنه فيه الرحمة من جهة المؤمنون، وظاهره من قبله العذاب يأخذ المنافقون، فينادى المنافقون ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (الحديد: ١٤).

أى (أما كنا معكم فى الدار الدنيا نصلى معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدى معكم سائر الواجبات؟

فيجيبهم المؤمنون قائلين لهم: بلى كنتم معنا، ولكنكم أهلكتم أنفسكم باللذات والمعاصى، وأخرتم التوبة، وشككتم فى أمر البعث بعد الموت، وغرتكم الأمانى، فقلتم سيُغفرُ لنا، ومازلتم كذلك حتى حضركم الموت، وغركم الشيطان فقال لكم: إن الله كريم لا يعذبكم.

والخلاصة، إنكم كنتم معنا بأبدانكم لا بقلوبكم، وكنتم فى حيرة من أمركم، فلا تذكرون الله إلا قليلاً)[3].

---

(١) بادروا بالأعمال: حث على المسارعة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها

(٢) رواه مسلم

(٣) تفسير المراغى سورة الحديد

فتنتم أنفسكم:

– أنت من عرضت نفسك للفتن.

– أنت من عرضت نفسك لمواطن الوقوع فيما حرم الله.

– أنت من وقفت بباب السلطان تبتغى منه العزة والغنى، حتى ولو على حساب دينك، وإخوانك فى الدين.

– أنت من عرضت نفسك لإبواب الظالمين، أن كان ذا مال وبنين، تبتغى صحبته ومُجالسته مع علمك أنه ظالم.

– أنت من عرضت نفسك للكبر والفخر بأن تنسب ما لديك لنفسك وعلمك، وليس لله مسبب الأسباب وواهب النعم.

وتربصتم:

تربصتم بالمؤمنين أن تدور عليهم الدوائر، ويقضى عليهم الظالمين، فتكون النجاة والغنيمة والثروة لكم، والألم، والمعاناة، والموت للمؤمنين.

وارتبتم:

لم تؤمنوا يقيناً أنكم مُحاسبون على أعمالكم، بل ارتابت أنفسكم فى الحق الذى جاء من عند الله.

وغرتكم الأمانى:

نعم ظننتم أن الغلبة لكم فى الدنيا والفوز والفلاح فى الآخرة، ظننتم أنكم على شىء وأنكم تحسنون صنعاً، وأنه حتى لو كنتم تفعلون بعض المُخالفات فإن الله غفور رحيم.

وغركم بالله الغرور:

وهو الشيطان، فكان يوسوس لكم أفكار الضلال، وأنتم اتبعتموها بحثاً عن المكسب والمصلحة، بدون الرجوع إلى الأحكام الشرعية التى تنظم حياة المسلمين.

هذه نتائج حب الدنيا، والاطمئنان بها، التنازل والتهاون بأمور الدين حتى تقود القلب إلى النفاق.

ثالثاً: عدم الخوف من الله

بعد طغيان حب الدنيا وتمكنها من القلب، يُزين إبليس للمسلم طريقه الذى يسير فيه، فيقطع طريق الندم والتوبة عليه، وذلك بأن يُمنيه أن الله غفور رحيم، وأن الله رحيم ودود، وأن الله سيتجاوز عنه فهناك الكثير والكثير من المذنبين أكثر منه، ورحمته وسعت كل شيء.

وعندما تمتلئ قلب المسلم بهذه الصورة عن رب العالمين، يختفى الخوف من الله من قلبه، وذلك لأنه أنشأ لنفسه صورة للإله الذى يُريد، وهى صورة ناقصة عن الله، فهو أنشأ صورة للإله الذى يعبده لتتوافق مع الحياة التى يُحب أن يعيشها.

ولماذا أقول صورة ناقصة عن الله؟!

وذلك لأن الله تعالى يقول:

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (البقرة - ١٩٦)

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة - ٩٨)

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الرعد - ٦)

﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

(الحجر: ٤٩ - ٥٠)

والآيات التى تدل على شدة عقاب رب العالمين كثيرة جداً، وبالتالى بعد أن يَخدع إبليس المسلم بصورة غير كاملة عن الله، يفقد المسلم الخوف من الله، فينطلق يفعل ما يشاء، بل قد يفعل الكفر وهو لا يدرى، ولا يكترث ويظن أنه على صراط مستقيم.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾

(الزخرف:٣٦ - ٣٨).

– مثال: بنى إسرائيل عندما تركهم موسى عليه السلام، خدعهم السامرى وجعلهم يعبدون العجل، وهذا توافق مع هوى أنفسهم، فهذا العجل لن يأمرهم ولن ينهاهم، بل سيفعلون ما يفعلون وسيظل صامتاً وكأن صمته دليل على موافقته لما يفعلون، فزين لهم الشيطان أعمالهم وصدهم سبيل الله والنتيجة أنهم ظنوا أنهم مهتدون.

واقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف - ١٤٨).

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ (طه:٨٨ - ٨٩)

والشاهد من الآيتين: لا يهديهم سبيلاً، ولا يرجع لهم قولاً، يُفهم منهما أنهم بعبادة هذا العجل كانوا يفعلون ما يحلوا لهم، وما تُمليه أهوائهم، ففى هذه الحالة هم المُسيطرون، وبالتالى فحياتهم تخضع لأهوائهم ورغباتهم.

والنتيجة عدم الخوف من الله والتجرأ الشديد على معاصية، مع الظن أنهم يُحسنون صنعا، ودليل أنهم ظنوا أنهم يُحسنون صنعاً أن هارون عليه السلام عندما أخبرهم أنهم ضلوا بعبادتهم العجل ونهاهم عن ذلك، كادوا أن يقتلوه، وقالوا لن نترك عبادة العجل وسنبقى مُحافظين عليه حتى يرجع إلينا موسى.

وهذا هو حال من تسيطر عليه الدنيا ويسيطر عليه هواه حتى يفقد الخوف من الله، لا يسمع لموعظة ولا يرى طريق الحق ويُصر إصراراً شديداً على الطريق الذى يسير فيه.

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر - ٨)، (هذا هو مفتاح الشر كله، أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسناً، أن يعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها، ألا يفتش فى عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه، لأنه واثق من أنه لا يخطئ، متأكد أنه دائماً على صواب، معجب بكل ما يصدر منه، مفتون بكل ما يتعلق بذاته، لا يخطر على باله أن يراجع نفسه فى شىء، ولا أن يحاسبها على أمر، وبطبيعة الحال لا يطيق أن يراجعه أحد فى عمل يعمله أو فى رأى يراه، لأنه حسن

فى عين نفسه، مزين لنفسه وحسه، لا مجال فيه للنقد، ولا موضع فيه للنقصان، هذا هو البلاء الذى يصبه الشيطان على إنسان، وهذا هو المقود الذى يقوده منه إلى الضلال، فإلى البوار.

إنه نموذج الضال الهالك الصائر إلى شر مصير، ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين، هو هذا الغرور، هو هذا الستار الذى يعمى قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق، ولا يحسن عملاً لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء، ولا يصلح خطأ لأنه واثق أنه لا يخطئ، ولا يصلح فاسداً لأنه مستيقن أنه لا يفسد، ولا يقف عند حد لأنه يحسب أن كل خطوة من خطواته إصلاح، إنه باب الشر، ونافذة السوء، ومفتاح الضلال الأخير.

إن الذى يكتب الله له الهدى والخير يضع فى قلبه الحساسية والحذر والتلفت والحساب، فلا يأمن مكر الله، ولا يأمن تقلب القلب، ولا يأمن الخطأ والزلل، ولا يأمن النقص والعجز، فهو دائم التفتيش فى عمله، دائم الحساب لنفسه، دائم الحذر من الشيطان، دائم التطلع لعون الله، وهذا هو مفرق الطريق بين الهدى والضلال، وبين الفلاح والبوار)[1].

وهناك فرق بين حب الله، والخوف من الله، فحب الله يجعلك تأتمر بأوامره وتُقبل على طاعته، وتحب أولياءه، بينما يحميك الخوف من الله أن تفعل الشر وتقع فى المحرمات، فهو كالدرع الذى يقى المؤمن من الزَلل.

وبالتالى نتيجة عدم الخوف من عقاب الله، أو عدم الإحساس بخطورة الإقدام على المحرمات والوقوع فيها، مع الإصابة بالفتن وتمكن الخوف من المستقبل والخوف على الرزق من قلب المسلم، أدى إلى سقوطه فى تنازلات كثيرة فى دينه، وإن إستمر السقوط بدون حاجز يمنعه، يصل المسلم إلى مرحلة النفاق، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين - ١٤)، ونتيجة لذلك فهو لا يرى الحق، ولا يسمع صوته، فلقد أصبح قلبه كالميت الذى لا حياة فيه.

(١) فى ظلال القرآن سورة فاطر، بتصرف

ومـن علامة الإصابة بهذه الأمر، أن تجد الرجل يعصى الله، ولا يلتزم بمنهجه ثم يدعى أنه يخشى الله، وكما أكرمه فى الدنيا فسيوفيه الجزاء الأوفى يوم القيامة.

ولكن لأن الله يحب لعباده الخير، فانه يصيبهم بالضيق والضنك وشدة فى الحياة الدنيا حتى ينتبهوا ان هذا الطرق الذى يسـيرون فيه غير سـبيل المومنون، يُضيق الله عليك نفسـك حتى تنتبه أن هناك باب واسع ينتظر منك ان تطرقه، وإن طرقته سـيُفتح لك بإنفراجة أكبر مما كنت تتخيل، إنه باب الملك، ملك الملوك الذى خلقك وخلق كل شـىء من أجلك، فهو لن يتركك إن رفعت يدك تطلب منه المعونة، فحق على الكريم أن لا يرد يد سائل، فما بالك بأكرم الأكرمين.

(ففروا إلى الله)

إن الذنوب خطر عظيم، وشر مُستطير، وشؤم لازم، وهم بالليل والنهار، ولذلك إن أردت النجـاة الحقيقية من الضنك، فيجب عليك أن تترك كل هذه المعاصى وتفر من ذلك كله، وتلتجئ إلى جوار رب العالمين، حيث راحة القلب والطمأنينة.

عـن أبى هريـرة رضى الله عنه قال: قـال رسـول الله ﷺ: (إن العبد إذا أخطأ نُكت فى قلبه نُكتة سـوداء، فإذا هو نزع واسـتغفر وتـاب، صُقل قلبه، وإن عاد، زِيد فيه، حتى تعلوا قلبه وهو الران الذى ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤)[1].

لماذا لا نتوب؟!

١ - عدم تمكن الإيمان من القلب:

هذا هو العامل الأساسـى فى عدم المسارعة إلى التوبة، فقلب المؤمن لا يحتمل هم الذنب الذى ارتكبه، فهو يظل يؤرقه ويشغل عقله وتفكيره، كيف تجرأ أن يعصى الله رب العالمين؟! فيرجع ويتوب سريعاً، ويتضرع إلى ربه أن يغفر له زلاته.

(١) الترمذى ٣٣٣٤، وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجه ٤٢٤٤

بينمـا من لم يتمكن الإيمـان من قلبه، يعصى الله وينسـى، ويرتكب ذنب آخر وينسـى وهكذا حتى تتراكم على قلبه الذنوب والمعاصى، فيقسـوا قلبه، ولا يذكر ربه إلا قليلاً، وينظر إلى عقاب رب العالمين على أنه بعيداً جداً، ليس له أوان الآن، بـل ولا ينظر إلى الصعوبات والابتـلاءات التى تعترض حياته علـى أنها عقوبات تحذيرية من الله لعله يرجع سريعاً إلى التوبه وإلى الصراط المستقيم.

وقد يتقبل سماع النصيحة ولكن شـؤم المعصية تجعله يأخذ النصيحة بقلب بارد خاو لا يشعر بموعظة ولا تذكيراً بالله.

هذا الصنف من الناس على خطر عظيم إن لم ينتبه و يتوب إلى رب العالمين.

٢ - التسويف:

وهو علامة أكيده على أنك لن تتوب إلى الله توبة نصوحه،

سوف أبدأ التوبة إلى الله غداً!!!

سوف أتوب مع بداية العام!!!

سوف أتوب فى رمضان!!!

كلهـا علامات تؤكد ضعف العزم على الرجـوع إلى المنهج والصراط الذى ارتضاه رب العالمين.

ولكن لماذا التسويف؟!

السـبب الأساسـى لذلك هو أننا نظن أنَّ لنا باب خلفى، سـهل، نهرب إليه من الواقع الذى نعيش فيه وهو رحمة رب العالمين.

فتجد الفرد تارك للصلاة أو متعامل بالربا أو متعرضاً للنساء، ويقول إن الله غفور رحيم.

نعـم الفكـرة الغالبة على العقل أن الله سـيغفر لنا والنتيجـة أن يبالغ المرء فى معاصيه، ويخدع نفسه ويمنيها أن الله غفور رحيم.

وهذا من خداع إبليس ليوقعك فى أشـر المعاصى وأنت لا تشـعر، ولذلك لابد أن

تقطع الطريق على إبليس ولا تترك لنفسك مجال للتسويف والتردد، إما جنة وإما نار، إما مؤمن وإما منافق، لا توجد جنة وفقط أو مؤمن وفقط، بل هناك نار تلظى وعذاب شديد.

ولا يوجد وسط بين الاثنين، اقطع الطريق على نفسك، بعزم شديد وتوكل على الله من الآن، لا تنتظر بعد ساعة أو بعد يوم أو غير ذلك.

٣ - خداع إبليس:

من مكائد إبليس بالمسلم أنه يمنعه من التوبة والرجوع إلى الله ويسوق له التبريرات، أنك ضعيف النفس، سترجع ثانية إلى المعصية أما تستحى من ربك، لا يجوز أن تتوب وترجع للذنب، ذنوبك كثيرة ولن يغفر الله لك، والكثير مثل ذلك حتى يترك المسلم الاستغفار والتوبة.

قيل للحسن: ألا يستحي أحدنا من ربّه! يستغفر من ذنوبه ثمّ يعود ثمّ يستغفر ثمّ يعود! فقال: **ودّ الشّيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملّوا من الاستغفار.**

عن عقبة ابن عامر رضى الله عنه قال: إن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال:

(يارسول الله أحدنا يُذنب، قال: يُكتب عليه.

قال: ثم يستغفر منه ويتوب، قال: يُغفر له ويُتاب عليه.

قال: فيعود فيُذنب، قال: فيُكتب عليه.

قال: ثم يستغفر منه ويتوب.

قال: يُغفر له ويُتاب عليه، ولا يَمَل الله حتى تَملوا)[1].

وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فيما يحكى عن ربه عز وجل قال: (أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لى ذنبي.

(١) قال الهيثمى فى المجمع(١٠ / ٢٠٠): رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وإسناده حسن

فقــال تبارك وتعالى: أذنب عبــدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفــر الذنب، ويأخذ بالذنب.

ثم عاد فأذنب، فقال: أى رب! اغفر لى ذنبى.

فقــال تبارك وتعالى: عبدى أذنــب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفــر الذنب، ويأخذ بالذنب.

ثم عاد فأذنب فقال: أى رب! اغفر لى ذنبي.

فقــال تبارك وتعالى: أذنب عبــدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفــر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك).

قال عبد الأعلى: لا أدرى أقال فى الثالثة أو الرابعة (اعمل ما شئت)[1].

ولذلك: ارجع إلى ربك سريعاً ولا تيأس ولا تعجز، فإن الله يفرح لتوبتك.

٤ - أصدقاء السوء والبيئة السيئة:

للصحبــه تأثير قوى على طريقة حياتــك وعلى مدى التزامك بمنهج الله، ولذلك فلقد وصى النبى صلى الله عليه وسلم باختيار الرفقة الصالحة فقال: (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[2]

قال إبراهيم النُخعى: (لا تجالســوا أهل الأهواء، فإنّ مجالســتهم تذهب بنور الإيمان، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث البغيضة فى قلوب المؤمنين).

فمجالســة أصحاب السوء تُنسى المســلم طريق الله وتزين له اتباع الهوى، ولذلك يوصى رب العالمين المؤمنين فيقول: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ (الكهف - ٢٨).

وكذلك فإن البيئة الفاسدة من العوامل الأساسية فى عدم القدرة على التوبة وخير

(١) متفق عليه

(٢) أخرجه أحمد ، وأبوداود ، والترمذى، قال الترمذى هذا حديث حسن غريب.

مثال على ذلك الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً، فعن أبى سعيد الخدرى، أن نبى الله ﷺ قال:

(كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله. فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ **انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء....)**[1].

فهنا نرى أن نصيحة الرجل العالم كانت أن يترك بلده التى عاش فيها، لأنها بلد سوء تحول بينه وبين التوبة النصوح، وهى رسالة لنا أيضاً، إن كان المكان الذى تعيش فيه لا يُساعدك على أن تلتزم بمنهج الله، فاتركه خيرلك وإبحث عن مكان أخر تفر بدينك إليه(إن استطعت)، وهى تضحية لابد منها إن أردت إنقاذ نفسك.

صورة من صور ابتلاء الضنك

ما حدث مع الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك

قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾(التوبة:١١٧ - ١١٨).

قال كعب بن مالك رضى الله عنه: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط، إلا فى غزوة تبوك، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر، ولم يعاتب أحدا تخلف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم

(١) متفق عليه

وبين عدوهم، على غير ميعاد، ولقد شـهدت مع رسـول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها، وكان من خبرى، حين تخلفت عن رسـول الله ﷺ، فى غزوة تبوك، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط، حتى جمعتهما فى تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد، واستقبل سفراً بعيدا ومفازا، واستقبل عدواً كثيراً، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجْهِهِم الذى يريد، والمسـلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان[1].

قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب، يظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر[2]، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا، **وأقول فى نفسى: أنا قادر على ذلك، إذا أردت.**

فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجِدّ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازى شيئا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسـرعوا وتفارط الغزو[3]، فهممت أن أرتحل فأدركهم، **فياليتنى فعلت**، ثم لم يقدر ذلك لى.

فطفقت إذا خرجت فى الناس، بعد خروج رسول الله ﷺ، يحزننى أنى لا أرى لى أسـوة، إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق[4]، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكا فقال، وهو جالس فى القوم بتبوك: (ما

(١) أى الدفتر الذى يُكتب فيه أسماء الجيش
(٢) أى: أميل
(٣) أى: تقدم الغزاة وسبقوا
(٤) أى: مُتهماً بالنفاق

فعل كعب بن مالك؟) قال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله! حبسه براده والنظر فى عطفيه[1].

فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا.

فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: (كن أبا خيثمة)، فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى، وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون.

فقال كعب بن مالك: فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك، حضرنى بثي[2]، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غدا؟ وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى، فلما قيل لى: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما، زاح عنى الباطل، حتى عرفت أنى لن أنجو منه بشىء أبدا، فأجمعت صِدْقة، وصبح رسول الله ﷺ قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين.

ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمت، تبسم تبسم المغضب، ثم قال: (تعال). فجئت أمشى حتى جلست بين يديه، فقال لى: (ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟) قال قلت: يا رسول الله إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على، ولئن حدثتك حديث صدق تجِد على فيه[3]، إنى لأرجو فيه عقبى الله، والله ما كان لى عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك.

قال رسول الله ﷺ: (أما هذا، فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك).

---

(١) أى: جانبيه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

(٢) أشد الحزن

(٣) أى: تغضب

فقمت، وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا، لقد عجزت فى أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ، بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله ﷺ لك.

قال: فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم: هل لقى هذا معى من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، قال قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيعة العامرى، وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه. **قال: فاجتنبنا الناس، وقال: تغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض، فما هى بالأرض التى أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان.** وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، **فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد**، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام، أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى، حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة، وهو ابن عمى، وأحب الناس إلى، فسلمت عليه، فوالله ما رد على السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله، هل تعلمن أنى أحب الله رسوله؟ قال فسكت، فعدت فناشدته، فسكت فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم.

ففاضت عيناى، وتوليت، حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشى فى

سوق المدينة، إذا نبطي[1] من نبط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال فطفق الناس يشيرون له إلى، حتى جاءنى فدفع إلى كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، قال فقلت، حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء، فتياممت بها التنور فسجرتها بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحى، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها، فلا تقربنها، قال فأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك.

قال: فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر.

قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: (لا، ولكن لا يقربنك) فقالت: **إنه والله ما به حركة إلى شىء، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.**

قال فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله ﷺ وسلم فى امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: لا استأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدرينى ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، قال فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا.

قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله عز وجل منا، **قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت**، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع[2] يقول، بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر.

---

(١) النبط: فلاحوا العجم

(٢) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة، انظر: معجم البلدان (٣ / ٢٣٦)

قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، قال فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا، حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قِبَل صاحبى مبشرون، وركض رجل إلى فرساً، وسعى ساع من أسلم قِبلى وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى، فنزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقانى الناس فوجا فوجا، يهنئوننى بالتوبة ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد، وحوله الناس. فقام طلحة بن عبيدالله يهرول حتى صافحنى وهنأنى، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور ويقول: (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك)، قال فقلت: أمن عندك يا رسول الله؟ أم من عند الله؟ فقال: (لا، بل من عند الله) وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، كأن وجهه قطعة قمر، قال وكنا نعرف ذلك، قال فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (أمسك بعض مالك، فهو خير لك) قال فقلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر.

قال: وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجانى بالصدق، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، قال: **فوالله ما علمت أن أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا أحسن مما أبلانى الله به**، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى[1].

كانت مُقاطعة رسول الله ﷺ والمسلمين لهؤلاء الثلاثة من المؤمنين الذين خُلفوا،

(١) رواه مسلم برقم ٢٧٦٩

حتى ضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، زجراً وتنبيها إلى خطورة ما أقدموا عليه من عصيان أوامر رسول الله ﷺ بالإستعداد للغزو، والتخلف عن اللحاق به، ولذلك فقد تعلموا الدرس جيداً، ودلهم الضنك والضيق الذى أصابهم على عاقبة معصيتهم، ومن أين جاءت الخطيئة وكيف كانت نجاتهم، فتابوا وتاب الله عليهم.

الدرس التعليمى لنا أنه لا يجب علينا إن وقعنا فى الخطأ أن نُعاند ونستمر ونُصر عليه، بل يجب على المسلم أن يعود سريعاً حتى ينجيه الله من الهم والضنك فى الدنيا نتيجة شؤم المعصية، وينجيه من العقاب الشديد فى الآخرة نتيجة عدم التوبة والرجوع إلى الله.

٦ - ابتلاء النعمة

وفيه تهذيب المؤمنين

النعمة: هى الحالة الحسنة، وتدل على الترف وطيب العيش ومنها النعيم، وكل ما يتلذذ به ويتنعم من مطعم ومفرش ومركب وغير ذلك.

والهدف من هذا الابتلاء أن يختبر الله حالتك مع النعمة، هل ستشكره على ما تفضل به عليك، وتؤدى حق هذه النعمة، أم ستجحد فضل رب العالمين وتبخل بمالك وتنسب هذا الفضل لقدراتك وعقلك وذكائك.

وينقسم ابتلاء النعمة إلى قسمين:

ابتلاء النعمة العامة وابتلاء النعمة الخاصة.

ـ **أما النعمة العامة** فهى التى قد يتشارك فى الحصول عليها عامة الناس، كالصحة والشباب والتمتع بالسمع والبصر والقوة البدنية والعقلية، فكلها نعم عامة وانت مسئول عن طريقة استخدامك لها، ففى القبر، وأنت بمفردك بدون أب أو أخ أو أولاد، ولا شئ معك من مالك وسلطانك، ستُسأل عن ثلاث أسئلة فقط:

من ربك؟ النعمة التى امتن الله عليك بها بمعرفته (ولذلك زودك بالعقل والمنطق).

ما دينك؟ نعمة أن جعلك الله مسلماً.

من نبيك؟ نعمة معرفتك بنبيك محمد ﷺ.

وأمام رب العالمين، يوم الحساب، ستسأل عن خمسة أسئلة أخرى:

فى ماذا أفنيت عمرك؟ نعمة الفترة الزمنية التى أعطاها الله لك، ماذا فعلت فيها؟

فى ماذا أبليت شبابك؟ نعمة الصحة والقوة التى رزقك الله إياها.

من أين إكتسبت مالك؟ نعمة القدرة على تحصيل المال والمنفعة.

فى ماذا أنفقت مالك؟ نعمة الإرادة أن تتحكم فيما أعطاك الله كيفما تشاء.

ماذا عملت بعلمك؟ نعمة العقل وقدرتك على تحصيل العلم والعمل به.

لو نظرنا إلى الثلاث أسئلة الأولى فى القبر، نرى أنها تهدف إلى معرفة ملخص ما حققته فى حياتك من علم ومعرفة، هل إستفدت من نعمة رب العالمين عليك أم أهملتها وتركتها؟ هذه الأسئلة تحدد مدى معرفتك بالغاية التى خُلقت من أجلها، ولماذا ابتُليت فى هذه الحياة الدنيا، والإجابة ستعتمد أساساً على اليقين.

إن كنت موقن أن ربك الله، وأنه أرسل رسوله محمد ﷺ، بالإسلام ديناً للناس كافة، وكان عملك موافق لهذا اليقين، فستكون إجابتك حاضرة، سيلهمك الله الإجابة الفورية، بينما من كان من أتباع كل ناعق، لايدرى إلى أين يسير، وماذا يفعل فى هذه الحياة الدنيا، ولم يفطن إلى طبيعة النعمة التى رزقه الله إياها، فلن يجد الإجابة، من رعب الموقف، وهول المنظر، لن يسعفه ذكائه، ولا مكره، ولا ماله، سينطق فقط يقينه، وحيث أن هذا اليقين غير موجود، فسيقول لا أدرى!!!

وليس بغريب أن يقول لا أدرى، فلقد مرت حياته كاملة وهو لا يدرى، لم يعرف الله، ولم يعرف نعمته، ولم يعرف رسوله ﷺ، وأهمل دين الله الذى امتن عليه وجعله مسلماً، هذا إن لم يكن ممن كانوا محاربين له وصادين عن سبيله، فكيف تظن إجابته بعد ذلك؟!

وصدق معاذ بن جبل رضى الله عنه حين قال: (الله حكم عدل، هلك المُرتابون).

بينما وأنت تقف أمام رب العالمين، ليس بينك وبينه واسطة، سوف تُسأل عن تفاصيل هذه الحياة التى عشتها، فإن كان ملخص حياتك علمك مَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فبالتإلى فإن تفاصيل هذه الحياة سوف يتناغم ويتوافق مع هذا المُلخص، ويعنى نجاحك فى اختبار النعمة التى رزقك الله إياها.

- أما النعمة الخاصة: (المال، السلطة، القوة، الذكاء، الموهبة).

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾(التوبة - ٧٥:٧٧).

وقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **(الزمر - ٤٩).**

(إذا مرت الشدة وجاء الرخاء، نسى هذا الإنسان ما قاله فى الضراء، وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء، وقال عن النعمة والرزق والفضل (إنما أوتيته على علم)، قالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان، غافلاً عن مصدر النعمة، وواهب العلم والقدرة، ومسبب الأسباب، ومقدر الأرزاق، فهى فتنة للاختبار والامتحان، ليتبين إن كان سيشكر أو سيكفر، وإن كان سيصلح بها أم سيفسد، وإن كان سيعرف الطريق أم يجنح إلى الضلال)[1].

قال تعالى على لسان نبى الله سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ **(النمل - ٤٠).**

بينما قال قارون عن المال التى كان يملكه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ **(القصص: ٧٨).**

فمن حمد الله على نعمه، وأدى ما عليه من حق الفقراء فيها، وأنفق منها فى سبيل الله، فقد تشبه بنبى الله سليمان عليه السلام**، بينما من غره ماله، ونسى أن الله هو مسبب النعمة، ونسى حق الفقير ولم ينفق ماله فى سبيل الله فهو أقرب الشبه بقارون.**

ابتلاء النعمة الخاصة: وهو ابتلاء موجه لك أنت شخصياً يختبرك الله به، وفيه يبتلى الله من يشاء من عباده بالمال والشهره، والسلطان والعافية، وهو من الابتلاءات الصعبة الشديدة، وذلك لأنك فيه فى مواجهة مباشرة مع نفسك التى بين جنبيك، ففى هذا الابتلاء يُطلق حظ النفس من عقاله، من حب ظهور وإستعلاء، وفخر يصل إلى الغرور، وقد يصل الأمر إلى الكبر وجحد نعمة الله.

وذلك لأن الإنسان بامتلاكه كل هذه النعم ينسى أن الله هو مصدرها، فينسب الفضل لنفسه وذكاءه وقدرته وحكمته، فلا يتواضع لله ولا لعباد الله.

---

(١) ()الظلال تفسير سورة الزمر بتصرف

والإنسان فى طريقه للوصول لذروة السلطة والمال، قد يجعل من إلهه هواه يحركه كيفما يشاء، فيكسب إبليس المعركة، ويسيطر على هذا الإنسان سيطرة تامة، والإنسان فى سكرة سعيه لإمتلاك القوة المادية و السلطة غافلاً لا يشعر بالهلاك الذى يلقى فيه نفسه، غافلاً عن المصير الذى ينتظره إن لم يتب إلى الله.

قال رسولُ الله ﷺ: (ما ذئبان جائعان أُرسِلا فى غنَمٍ، بأفسَدَ لها من حِرص المرء على المالِ والشرف لدينه)[1].

وقال: (ما ذئبان ضاريان باتَا فى حظيرةٍ فيها غَنَمٌ، يَفترسان ويأكلان، بأسرعَ فسادًا من طلب المال والشرف فى دين المسلم)[2].

وفى قوله تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ ﴾ (العلق:٦-٧)، (إن الإنسان فى الحياة الدنيا متى شعر باستغناءه بأسبابه التى أتاحها الله له طغى، فغطى طغيانه على بصيرته، فكفر بربه، وجحد الحق، فظلم وبغى، وزين ظُلمَه وبغيه بزخرف القول، والدعاوى الكاذبة الباطلة، وسخر ما لديه من قوى وأنصار، لتحقيق مطالب نفسه الجائرة الظالمة الآثمة)[3].

وهذا بخلاف المؤمن فلا يزيده ثرأه إلا حمداً وتواضعاً لله، ولذلك جاء الاختبار للتمييز بين الناس، بين الشاكر لله والذى يكفر بنعمة الله ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾، وكذلك لتربية الصف المؤمن على قيمة الحمد والتواضع لله وأن الله بيده الخير، يؤتيه من يشاء ويصرفه عمن يشاء.

قال تعالى ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾ (الأنبياء: ٣٥)، يقول صاحب الظلال رحمه الله:

---

(١) صحيح أخرَجه الترمذى ٢٣٧٦

(٢) أخرَجه الطبرانى فى «الصغير» (٩٤٣)، والضياء فى «الأحاديث المختارة» (٤ / ١١٢)، رقْم (١٣٢٣)، وقال: إسناده صحيح

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر (١ / ٣٨)

(والابتلاء بالشر مفهوم أمره، ليتكشف مدى احتمال المبتلى، ومدى صبره على الضـر، ومدى ثقته فى ربـه، ورجائه فى رحمته، وأما الابتـلاء بالخير فهو فى حاجة إلى بيان.

إن الابتـلاء بالخير أشـد وطأة، وإن خُيـل للناس أنه دون الابتلاء بالشـر، إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير.

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقُدرة، ويكبحون جماح القوة الهائجة فى كيانهم، الجامحة فى أوصالهم.

كثـيرون يصـبرون على الفقر والحرمان فـلا تتهاوى نفوسـهم ولا تذل، ولكن القليلـين هم الذين يصبرون علـى الثراء والوجدان، وما يغريـان به من متاع، وما يثيرانه من شهوات وأطماع.

كثـيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهـم، ويصبرون على التهديد والوعيـد فـلا يرهبهم، ولكن قليلين هـم الذين يصبرون على الإغـراء بالرغائب و المناصب والمتاع والثراء.

كثـيرون يصبرون على الكفـاح والجراح، ولكن قليلين هـم الذين يصبرون على الدعة والمراح، ثم لا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال، وبالاسترخاء الذى سيقعد الهمم ويذلل الأرواح.

إن الابتلاء بالشـدة يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة و يجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاسـتقبال الشـدة والصمـود لها، أما الرخـاء فيرخى الأعصاب ويُنيمها و يفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة.

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشـدة بنجاح، حتى إذا جائهم الرخاء سقطوا فى الابتلاء، وذلك شأن البشر، إلا من عصم الله وهم قليل.

فاليقظة للنفس فى الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها فى الابتلاء بالشر، والصلة بالله فى الحالين هى وحدها الضمان).

قال قتادة فى قولــه: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (المؤمنــون: ٥٥-٥٦)، قال: مكر والله بالقوم فى أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

والآن: كيف تكتشف نفسك؟

بمعنى: هل أنت تسقط أو ستسقط فى اختبار النعمة؟ أم أنت ستفوز إن شاء الله؟

اعلم أنك أدرى الناس بنفســك، مهما كان ما تســوقه من أعذار فإن قرارة نفسك من الداخل تعلمها أنت من نفسك علم اليقين، وبالتالى لابد أن تنتبه للعامل النفسى الأساسى الذى يؤدى إلى السقوط فى اختبارالنعمة.

السبب الرئيسى للسقوط فى اختبارالنعمة هو هدفك من امتلاك المال أساساً، فإن كان هدفك من امتلاك المال هو الرغبة فى التملك وإكتساب المال لذاته من أجل الثروة والســيطرة، فاعلم أنك على خطر، وإحتمال ســقوطك كبير جــداً، وذلك لأن رغبة التملك، رغبة شديدة تجعل الإنسان يظلم، و يطغى ويتكبر ويجحد الحق، وتصيب المرء بالحســد والبغضاء لغيره من الناس، وبالتالى سوف تدفعه بعيداً جداً عن الله، ولذلك كان المال فتنة يُختبر بها الناس ليميز الله الخبيث من الطيب.

بينمــا مــن كان هدفه من امتلاك المال هو اســتخدامه لنصرة ديــن الله والرعاية لحقوقه ابتغاء مرضاته، فضلاً عن أن يعف نفسه وأهل بيته عن سؤال الناس، ففى هذه الحالة ســوف تختلف نفســية المسلم الذى يســعى بهذه النية، لأنه سيستوى لديــه امتلاكه المال أو عدم امتلاكه، لأنه يعلم أنه حتى فى حالة عدم امتلاكه فإنه سيأخذ ثوابه كاملاً من رب العالمين كما سيأتى فى الحديث الشريف بعد قليل.

وبالتالى فإن هدفك من إمتلاك المال هو الذى ســيحدد إن كنت ستســقط أم ستفوز فى اختبار النعمة.

الغاية تبرر الوسيلة

قاعدة فاسدة استخدمها الناس للحصول على المكاسب ولاستحلال الحصول على أموال الناس بالباطل، فتظهر فرصة لأحدهم للحصول على الأموال والسلطة، ويزينها له إبليس بكل الطرق، فيسعى المرء للاستغلال هذه الفرصة مهما كانت حرام، فهو يخشى أن تفوته الفرصة وقد لا تعود، فيبرر لنفسه أنه ما فعل هذا الحرام إلا ليحصل على الفرصة حتى لا تضيع ويقول الغاية تبرر الوسيلة.

فى الإسلام، لا يوجد شىء اسمه الغاية تبرر الوسيلة، ولكن هناك غايات عظيمة وتحتاج إلى وسائل شرعية لتحقيقها، وعلى المسلم أن يبذل جهده ثم تكون النتيجة كما يشاء الله، فالمسلم الذى يجعل هدفه الله لن يرتكب مُخالفات ضد دين الله، ثم يُبرر الأمر لنفسه أنه ما فعل ذلك إلا للمصلحة أو لكى يُرضى الله.

الجاهل فقط، ومن يتبع هواه هو من سيسقط فى مثل هذه السذاجة، بينما المسلم الحق لا يخفى عليه الحلال والحرام ومداخل الشيطان بينهما.

إحترس من مصادر دخلك! من أين اكتسبت مالك؟ ولماذا اكتسبته؟ وفيما أنفقته؟ حتى لا تسقط وأنت لا تدرى.

مكانتك عند الله

اعلم هذا: إن أموالك وبنوك، وعلمك وسلطتك لا تغنى عنك شىء عند الله إلا بحقها، وحقها هو تحقيق التقوى فيها، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات - ١٣)، وذلك لأن الله ما أعطاك كل هذا إلا ليختبرك، وما منعه عن غيرك إلا ليختبره هو الآخر، وبالتالى إياك أن تظن فى نفسك أنك أفضل من هذا أو ذاك أنك أكثر منه غنى وسلطة، بل انظر أين مقامك من تقوى الله حتى تعلم أين هى مكانتك الحقيقية؟!

عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أنه كان يجتنى سواكاً من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تَكْفُؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: (مم

تضحكون؟)، قالوا: يا نبى الله من دقة ساقيه، فقال: (والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أُحُد)[1].

كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه رجلاً فقيراً، وضئيل الجسد، حتى أن الريح كانت تُميله يميناً ويساراً، وعندما ضحك صحابة رسول الله ﷺ من دقة ساقة، بين لهم رسول الله ﷺ أن قيمة الإنسان ليست فى هيئته، فساق عبد الله بن مسعود على صغرها فهى أثقل فى الميزان عند الله من جبل أحد، فقيمة الإنسان فى عمله وتقواه.

وعلى النقيض من ذلك، قال رسول الله ﷺ فى حديث طويل: (وبينا صبى يرضع من أمه، فمر **رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة**، فقالت أمه اللهم اجعل ابنى مثل هذا. فترك الثدى وأقبل إليه فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجعلنى مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع).

وكان السبب فى ذلك، يقول رسول الله ﷺ على لسان الطفل الرضيع: (إن ذاك الرجل كان جبارا، فقلت: اللهم لا تجعلنى مثله)[2].

من الطبيعى أن تدعوا الأم لابنها بأن يكون ذو مال ومكانة، ولكن الله يُنطق هذا الطفل الرضيع ليُعلم الناس درساً أن ليس المال والجاه هو الذى يُعطى المكانة للإنسان عند الله، ولكن عمله وتقواه.

ولا تظن أن الفقراء فقط هم من يتقون ويلتزمون منهج الله، فهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحه بن عبيد الله رضى الله عنهم جميعاً والكثير غيرهم من صحابة رسول الله والتابعين كانوا أغنياء جداً، ولكن هذا الغنى وهذه الثروة لم تنسهم من هم ولماذا لديهم هذا المال وإلى أين المسير بعد ذلك.

إن أموالك لن تكون أبدا مثل قارون الذى خسف الله به وبداره الأرض.

وسلطتك لن تصل إلى النمرود الذى ملك كل الأرض وأهلكه الله بحشرة صغيره، ومهما كانت قوتك، فسيأتى يوم ويضعف فيه بدنك، وينحنى فيه ظهرك.

---

(١) رواه الإمام أحمد برقم ٣٩٩١، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن

(٢) جزء من حديث مُتفق عليه، وهذا لفظ مسلم برقم ٢٥٥٠، باب البر والصلة والآداب

وعلمــك وذكاءك لن يصل أبدا لذكاء إبليس، ولكن أين كل هؤلاء، لن يغنى عنهم مالهم وسلطتهم وقوتهم وذكائهم شيئا، فالجميع خالدا فى النار

أنــت من يصنع مصيرك الآن، وأنت من تبنى مكانتــك الآن بتقواك وليس بغير ذلك.

صورة من ابتلاء النعمة

(ابتلاء قارون)

كان قارون ابن عم موسى عليه السلام، فهو من بنى إسرائيل، وقد أنعم الله عليه بنعمة المال، والجاه والســلطان، ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ (القصص- ٧٦)، حتــى إن مفاتيح خزائن كنوزه كان يثقل حملها على العصبة من الرجال الشــداد، فماذا فعــل قارون مع ابتلاء النعمة الذى أصابه؟

لم يُقابــل قارون النعمة التى رزقه الله إياها بالشــكر والعرفان الذى كان ينبغى منــه، ولكنــه على العكس تمامــاً، ظلم النــاس وتكبر عليهم، ومنع حــق الفقراء والمســاكين فلم يؤدى حقهم الذى عليه فى ماله، وعندما رأى قوم قارون ما كان منه من بغى وكبر وعدوان، توجه إليه فريق منهم لُقدموا له النصيحة فقالوا:

﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، قــال ابــن عباس رضــى الله عنهما: كان فرحه شركاً لأنه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى[1].

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾،

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، قال مجاهد: لا تترك أن تعمل فى الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب، لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا هو أن يعمل للآخرة[2].

(١) مفاتيح الغيب للرازى (١٢ / ١١٠)

(٢) معالم التنزيل فى تفسير القرآن للبغوى (٦ / ٢٢١)

﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾،
﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: ٧٦ - ٧٧).

قدم له قومه خمس نصائح لينجو من عقاب الله للمستكبرين الجاحدين لنعمة الله عليهم، فكان رده مُستكبراً، ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (القصص - ٧٨)، (أى: لم أملك ما ملكته من أموال، ولم أحصل على ماحصلت عليه من زينات، وما أتفاخر به على قومى بعطاء أعطانيه الله إحساناً، بل أوتيته وحصلت عليه ضمن الأنظمة السببية، التى تأتى ثمراتها ونتائجها مبنية على أسبابها، وبناء على علمى بالأسباب، واتخاذى لها اتخاذاً حكيماً، ملكت ما ملكته، فلا تقولوا لى بغباء ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾، أنت جاهلون لا تعلمون أسباب اكتساب الأموال وجمعها)[1].

(لقد انتفخ الغرور فى صدره ورأسه، حتى طمس بصيرته، فجعله يجحد قضاء الله وقدره، مُستبعداً عن ذهنه أن الله هو مُسبب الأسباب، وغافلاً عن أن الله الذى آتاه ما هو فيه هو القادر على أن يسلبه ما آتاه، أو يُهلكه فيصرف عن الحياة الدنيا، وعن كل ما آتاه فيها)[2]، وهذا المشهد، مشهد الكبر و الغرور بالعلم والمال، يُصيب كثير من الناس الذين ينسبون فضل السيادة والزعامة لأنفسهم وينسون فضل الله عليهم، فيسقطون سقوطاً شديداً فى ابتلاء النعمة، وإن لم يتوبوا فلهم عقاب شديد عند رب العالمين.

ولم يكتفى قارون بأن رد عليهم هذا الرد المستكبر، بل قرن القول بالفعل: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ (القصص: ٧٩)، خرج على قومه فى خيلاء وكبر واستعلاء، ليبهر قومه ويريهم مدى غناه وقوته، وفى هذا غروراً أيضاً فهذا الصنف من الناس (صنف قارون)، يحب أن يرى نظرات الحسد والحسرة فى قلوب الناس، وقد

(١) مفاتيح التفكر ودقائق التدبر (٩ / ٤٧٣)، بتصرف يسير
(٢) المرجع السابق

تحقق لقارون ما أراد بقول بعض الناس ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص-٧٩)، ولما رأى الأتقياء ما فعله قارون، وسمعوا ما قاله من يريد زينة الحياة الدنيا، أرادوا أن يعلموهم درساً في غاية الأهمية، فقالوا: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾(القصص: ٨٠).

(وَيۡلَكُمۡ: أى احذروا هلاككم وعذابكم، مما فُتنتم به، إذ تمنيتم أن يكون لكم مثل ما أوتى قارون، إن ثواب الله العظيم الذى أعده الله لأهل طاعته خير من هذا الذى استعرضه قارون، وخير من كل ما لدى فرعون وآله، وخير من كل الدنيا وما فيها، ولا ينال هذه الصفة المؤهلة لثواب الله العظيم إلا الصابرون[1].

وهنا لابد من توضيح أمر مهم وهو: لماذا بدأ الذين أوتوا العلم بقولهم، وَيۡلَكُمۡ؟! ثم قدموا النصيحة بعد ذلك، لماذا لم يذكروا النصيحة مباشرةً؟

الإجابه نجدها فى حديث رسول الله ﷺ الذى قال فيه: (إنما الدنيا لأربعة نفر:

عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل،

وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء،

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يَخبط فى ماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل،

وعبد لم يؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فوزرُهُما سواء)[2].

---

(١) مفاتيح التفكر ودقائق التدبر (٩ / ٤٧٧)، بتصرف يسير

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه برقم ٢٣٢٥ وقال حسن صحيح

فهـذا الذى ليس لديه مال، ويرى الظالم المستعلى فى زينته وفسقه ويتمنى بجهله أن يكون لديه المال ليفعل مثله، عليه من الإثم مثل ما على صاحب المال الفاسق، ولذلك استحق هؤلاء أن يُقال لهم ويلكم زجراً وإستنكاراً لقولهم، أنهم يتمنون أن يكون لديهم مثل ما لدى قارون، ويفعلون فعله.

ونتيجة بغى قارون واستكباره بماله وعلمه: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ (القصص - ٨١).

نعم بعد أن خرج على قومه مُستعرضاً زينته وملكه، جاءه العقاب الربانى السريع، خسف الله به الأرض وبداره وبماله الذى كان يفتخر به، فلم تنصره قوة كائن من كان من عقاب الله، ولم يستطع هو أن يدفع عن نفسه هذا العقاب بعد أن كان عالياً مستكبراً.

وصدق الله إذ يقول: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الزمر: ٤٩ - ٥٠).

وفى هذا رسالة لكل من يفتخر بعلمه وماله وينسى مسبب الأسباب، الله رب العالمين، إن هذا المال الذى تملكه هو نقمة عليك إن لم تؤدى حق الله فيه بشكره، وحق الفقراء بالتصدق عليهم، ومساعدة المحتاجين، فحتى وإن ملكت الدنيا بأجمعها فلن تغنى عنك من الله شيئاً إن لم تؤدى الحق الذى عليك.

٧ - ابتلاء الدعوة إلى الله

عندما نزل الوحى على رسول الله ﷺ، أول مرة، فزع فزعاً شديداً، فانطلقت به السيدة خديجة رضى الله عنها، إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عم السيدة خديجة، وكان قد تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمى.

فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة يا ابن أخى ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة هذا الناموس الذى نزل الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعا[1]، ليتنى أكون حيا إذ **يخرجك قومك.**

فقال رسول الله ﷺ **أومخرجى هم؟!**

قال نعم، **لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى**، وإن يدركنى يومك، أنصرك نصرا مؤزرا[2].

نعم إنها سنة ثابتة مستمرة عبر الزمان، إن أهل الفساد والكفر والطغيان يُعادون الأنبياء وأتباع الأنبياء، ومن سار على هُداهم، ويؤذونهم ويقاتلونهم ويخرجونهم من ديارهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾(إبراهيم - ١٣).

وقال تعالى مخبراً عن استكبار قوم لوط ومعاداتهم لنبيهم: ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (الأعراف - ٨٢).

وقال عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٨).

---

(١) يتمنى أن لو كان شاباً عند ظهور الدعوة إلى الإسلام ليكون أمكن لنصره، فقد كان شيخا كبيراً

(٢) رواه البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها

وبالعموم قال عن استهزاء المجرمين بالمؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (المطففين: ٢٩ - ٣٢).

وقد أخبر رب العالمين بهذه الأخبار فى كتابه الكريم لحث المؤمنين على الصبر والثبات على الدعوة إلى دينه مهما كانت شدة الابتلاء الذى قد يتعرضون له.

• وهناك جانبين للابتلاء فى ابتلاء الدعوة:

الأول: ابتلاء القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

حث رب العالمين المؤمنين فى أكثر من موضع من القرآن الكريم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل وجعلها صفة من صفات المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧١).

ولكن هناك ضريبة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ليرى الله مدى ثباتك على الطريق، وهذه الضريبة هى ابتلاء يصيبك، نتيجة عداوة بعض الناس لك، وقد نُقل عن سيد العباد بعد الصحابة (أويس) القرنى أنه قال: (إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم يدعا للمؤمن صديقاً، نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون فى ذلك أعوان من الفاسقين، حتى والله لقد رمونى بالعظائم، وأيم الله لا أدع أن أقوم فيهم بحقه)[1].

إن من واجب الداعية إلى الله أن يقول الحق، ولا يخاف لومة لائم، وبالتالى فلا يجب عليه أن يتملق أحداً، أو أن يخاف من توصيل دعوة الله للناس أو أن يخضع لإحد إبتغاء مكسب مادى أو مكسب معنوى، بل يكون خضوعه لله وفقط، يبتغى منه الأجر والثواب، ونتيجه لذلك فقد يؤذى ويُسب أو يُضهد ويسجن كما حدث

(١) الإعتصام للشاطبى

مـع الأنبياء والصالحين من بعدهم، ففى ابتلاء الدعوة إلى الله فإن الداعية إلى الله فى مواجهة مباشرة ضد:

١ – صاحب السلطة الظالم الذى يسوءه أن تدعوة إلى العدل والرحمة مع رعيته.

٢ – صاحـب المـال الذى إن كان من حلال يكره أن تأمره بالصدقة وإن كان من حرام يكره أن تدعوه لكف يده عن المال الحرام.

٣ – التاجر الذى يغش فى بيعه وتجارته.

٤ – أصحاب الأهواء، ومحركى الفتن، وغير ذلك أصناف كثيرة يسوءهم أن تُذكرهم بـالله وبحقه واقرأ قـول الله تعـالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الزمر - ٤٥).

ولذلك فالكثيرين لن تهدأ أنفسهم وتستكين، طالما أن هناك من يقف بينها وبين الانطلاق فـى أهوائها، إما كبراً وإما حسـداً وإما غيظاً، وبالتالى فسـوف يتعرض الداعيـة للإيذاء خاصة إن كانت الهوة واسـعة بين ما عليه الناس وبين منهج الله، فكلما إتسعت الهوة زاد العداء، وأنت مُطالب أن تدعوا كل من إستطعت دعوته.

• ولكـن، أليس من الأفضل إجتناب هذا الابتلاء، وقصر الدعوة على من يُرتجى منه خير، والابتعاد عن الأمور التى قد تسبب العداء مع الآخرين؟!

عـن قتـادة: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ (آل عمران: ١٨٧)، قال: هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شـيئا فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة[1].

وذلـك لأن الداعـى إلى الله، إن كتم جزء من علمه عن النـاس وأخبر بجزء آخر يبتغى من ذلك السلامة والمصلحة، فإنه بذلك قد خان الله ورسوله، بل وخان المدعوا أيضاً، وذلك لأنه سيعبد الله على ضلال، وهو يظن أنه على صراط مستقيم.

– فـى فتنة خلق القرآن، جُلد الإمام أحمد، وسـجن، فى سـبيل أن يقول كلمة

(١) تفسير الطبرى، آل عمران آية ١٨٧

واحــدة، ترفع عنه هذا البلاء، ولكنه صبر ولم يكتــم علمه، لأنه يعلم عقوبة كتم العلم عند رب العالمين، وكذلك يعلم أنه إن تكلم بهذه الكلمه فسوف يقع فى الفتنة خلق كثير، ولذلك آثر أن يُجلد وأن يُسجن حتى يصل علمه كاملاً للناس.

– عن أبو المثنى العبدى قال: سمعت ابن الخصاصية يقول: أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه على الإسلام، فاشترط علىّ (تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وتصلى الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدى الزكاة، وتحج البيت، وتجاهد فى ســبيل الله).

قــال: قلت: يا رســول الله، أما اثنتــان فلا أطيقهما، أما الزكاة فمالى إلا عشــر ذود[1]، هن رســل أهلى وحمولتهــم، وأما الجهاد فيزعمون أنــه من ولى، فقد باء بغضب من الله، فأخاف إذا حضرنى قتال كرهت الموت، وخشعت نفسى.

قال: فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها ثم قال: (لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة؟) قال: ثم قلت: يا رسول الله، أبايعك فبايعنى عليهن كلهن[2].

لقد رفض رسول الله ﷺ بيعة الصحابى، ولم يكتم علمه فقال: (لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنــة؟)، لو رفض هذا الصحابى أداء الزكاة والجهاد وذهب ولم يبايع رســول الله ﷺ، أليست النار جزاءه بعد ذلك؟ نعم بالتأكيد، ورسول الله ﷺ يعلم ذلك، ولكن الحق أحق أن يُتبع، لا ينبغى للداعية أن يُساوم الناس فى إتباع الحق، أو أن يكتم علمه عنهم، فيعبدوا الله على نقص فى العلم أو على ضلال، فإن كان فى المدعوا خير فسوف يستجيب للحق كاملاً، وإلا فقد اختار طريقه بنفسه.

– كان طاووس بن كَيســان[3] من أهل اليمن، وكانــت الولاية فى ذلك الوقت فى اليمن لمحمد بن يوســف الثقفى أخى الحجاج بن يوســف، وكان محمد بن يوسف

(١) عشرة من الإبل

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وبشير بن الخصاصية من المذكورين فى الصحابة من الأنصار رضى الله عنهم

(٣) أحد التابعيين، ولقب طاووس أطلق عليه؛ لأنه كان طاووس الفقهاء واسمه ذكوان بن كيسان

يجمع فى ذاته كثيراً من سيئات أخيه الحجاج، ولكنه ما كان يتحلى بشئ من حسناته، وفى غداة يوم بارد من أيام الشتاء، دخل عليه طاووس بن كيسان ومعه وهب بن مُنبه[1].

فلما أخذا مجلسيهما عنده، طفق طاووس يعظه ويُرغبه ويُرهبه، والناس جلوس بين يديه، فقال الوإلى لأحد حُجابه: يا غلام أحضر طيلساناً[2] وألقه على كتفى أبى عبد الرحمن(كنوع من أنواع الرشوة الخبيثة).

فعمد الحاجب إلى طيلسان ثمين وألقاه على كتفى طاووس.

فظل طاووس مُتدفقاً فى موعظته، وجعل يُحرك كتفيه فى هدوء، حتى ألقى الطيلسان عن كتفه وهب واقفاً وانصرف.

فغضب محمد بن يوسف غضباً شديداً، غير أنه لم يقل شيئاً.

فلما صار طاووس وصاحبه خارج المجلس، قال وهب لطاووس:

والله لقد كنا فى غنى عن إثارة غضبه علينا، فما كان يُضيرك لو أخذت الطيلسان منه، ثم بعته وتصدقت بثمنه على الفقراء والمساكين.

فقال طاووس: هو ما تقول، لولا أننى خشيت أن يقول العلماء من بعدى، نأخذ كما أخذ طاووس، ثم لا يصنعون فيما أخذوا ما تقول[3].

إن طاووس رحمه الله آثر أن يثير غضب محمد بن يوسف الثقفى أخو الحجاج (وما أدراك من الحجاج؟) خوفاً أن يُستغل موقفه هذا (بأن يأخذ من مال الوالى)، فيكون فتنة للعلماء من بعده.

الثانى: ابتلاء السكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

١ – قيام المؤمن بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يجعله دائماً فى شغل وحركة وعمل، وأداء طاعات وذكر لله، فكل وقته مشغول فى ذلك، وبالتالى لا يصيبه

(١) تابعى يمنى فارسى الأصل
(٢) كساء أخضر اللون غالى الثمن تلبسه الخاصة
(٣) صور من حياة التابعين بتصرف يسير

الفتــور والضعف إلا نادراً، ولا يكون هناك وقت فراغ يوقعه ضحية لوســاوس إبليس، أو أن تتبع نفســه هواها فى معصية الله، حتى وإن حدث ذلك، سيجد بجواره من ينقذه ســريعاً، ويرده إلى الصراط المســتقيم، بينما إن توانى المؤمن عن قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإنه يُعرض نفسه لعقاب الله، بالإضافة إلى ما يصيب نفسه من ضعف نتيجة إبتعاده عن سبيل المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: (والذى نفســى بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليوشــكنّ الله أن **يبعث عليكم عقاباً منه**، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)(١).

وكلمــا بعد المؤمن عن صف المؤمنين الداعــين إلى الله، كلما صعب عليه الرجوع لمســيرة الدعوة والعمل، لذلك كان لابد من الابتلاء بشدة، حتى يعود المؤمن إلى طريقه الصحيح الذى ينبغى أن يسير فيه.

٢ – عندمــا يســكت المؤمنين عن الأمر بالمعــروف وعن النهى عــن المنكر، وعندما لا يأخــذ المؤمنين على يد الظالم، ويُترك فى ظلمه، يزيد الفســاد والمفســدين، وتنتشر الفاحشة، فلا يوجد من يردعها حتى تصل آثارها إلى المؤمنين أنفسهم، فيُعانــون منها أكثر من غيرهم، فتصيبهم وتصيــب أبناءهم وأحباءهم، حتى إذا نزل عقاب الله على المفســدين، هلك المؤمنون مع الظالمين، عن عائشــة رضى الله عنها قالت: قال رســول الله ﷺ: (يكون فى آخر هذه الأمة خســف ومسخ وقذف، قالت: قلت: يا رســول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخبث)(٢).

نعــم يظهر الخبث ويعلــو حتى فى وجود المؤمنين الصالحــين، وذلك لأنهم لم يكونــوا مُصلحين، بل ارتضوا الســكوت وخافوا أن يأمروا بالمعــروف وينهون عن المنكر.

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى ، وقال: حديث حسن. وحسّنه الألباني

(٢) رواه الترمذى ٢١٨٥، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى

(إذا قصر الصالحون بواجبهم فى الهداية والإصلاح والتقويم، والأخذ على يد المفسدين، كثرت نسبة المفسدين فى الأرض، وانتشر الشر والظلم والعدوان والطغيان، وامتد الوباء، وصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وبسبب الفساد المنتشر تتزلزل قواعد سلامة المجتمع، وتنعدم فيه عوامل بقائه، وعندئذ يستحق هذا المجتمع أن تنزل عقوبة الله الشاملة، التى تصيب الفاسدين المفسدين، وتصيب الصالحين فى أنفسهم أيضاً، لأنهم قصروا بواجبهم تجاه مجتمعهم، إذ كان عليهم أن يأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر) (١)

ولذلك فأنت كمؤمن إن ارتضيت الإسلام منهج لحياتك، فإما أن تصبر على الجُهد والمشقة التى يجب عليك بذلها فى سبيل الدعوة لدين الله.... وإما أن تصبر على الألم والمعاناة التى سيسببها لك ابتلاء ابتعادك عن الدعوة إلى الله.... والاختيار لك!

صور من ابتلاء الدعوة

الأمثلة فى ابتلاء الدعوة كثيرة، ويكفى دراسة ما حدث مع أنبياء الله وهم أكرم الخلق على الله، لترى كيف سخر منهم قومهم، ولترى كيف تم تهديدهم إما بالقتل وإما بالرجم وإما بالنفى، سترى المعاناة وسترى الألم الذى أصابهم فى سبيل نشر دين الله.

- **قالوا لنوح** عليه السلام: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ **(هود - ٢٧)، وقالوا:** ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ **(الشعراء - ١١٦).**
- **قالوا لهود** عليه السلام: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ **(الأعراف - ٦٦)، وقالوا:** ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ **(هود - ٥٤).**
- **قالوا لصالح** عليه السلام: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ **(هود - ٦٢)، وتم التخطيط**

(١) روائع من أقوال الرسول، ١٩٠، بتصرف يسير

لقتله عليه السلام **فقالوا:** ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ **(النمل - ٤٩).**

- **قالوا للوط** عليه السلام **:** ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ **(الشعراء - ١٦٧)، وقالوا:** ﴿ قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ **(الأعراف - ٨٢).**
- **قالوا لشعيب** عليه السلام **:** ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ **(الأعراف - ٨٨)، وقالوا:** ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ **(هود - ٩١).**
- **قال فرعون عن موسى** عليه السلام **:** ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ **(الشعراء: ٢٧)، وقال:** ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ **(الشعراء: ٢٩)، وقال:** ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ **(الشعراء: ٤٩).**
- **وقالوا لرسولنا الكريم** ﷺ **:** ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ **(الحجر: ٦) ويُخبر عنهم ربنا لرسول الله** ﷺ **فيقول:** ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ **(الأنفال: ٣٠).**

• ومما لقى رسول الله ﷺ من قومه:

حثو سفهاءهم التراب على رأسه، وإلقاء القاذورات على بابه، وبصق أمية بن خلف فى وجهه، بالإضافة إلى السب، والذم والسخرية، وتعذيب أصحابه وأحبائه وهو يرى ذلك ﷺ**، وفى إحدى المرات بينا رسول الله** ﷺ **يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله** ﷺ **فخنقه خنقا شديداً، فأقبل أبو بكر رضى الله عنه حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى** ﷺ **قال** ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ **الآية (غافر - ٢٨)** [1].

(١) رواه البخارى، كتاب مناقب الأنصار

ظاهرة أبى لهب

وفــى ابتلاء الدعوة رســالة أخيرة، والرســالة إلى الذين يــؤذون الدعاة إلى الله، أنــت لا تــدرى أى جريمة ترتكــب، إن لم تُصبك المصائب المتتاليــة فى الدنيا ففى الآخرة ناراً تلظى، لقد ذكر الله تعالى فى كتابه الكريم، صورة من صور إيذاء الدعاة وعاقبتها، حتى تكون عبرة لكل من يؤذى الداعين إلى الله، إنه أبو لهب.

من هــو أبو لهب؟ ولماذا اختصه الله بالذكر وجعله عبرة فى كتابه دون غيره من المشركين؟! على الرغم من أن أبو جهل لُقب بفرعون هذه الأمة، وكان غير أبى لهب الكثيرين ممن آذى رسول الله ﷺ والمؤمنين؟

أبــو لهب: هو أحد أعمام رســول الله ﷺ واسمه: عبد العــزى بن عبد المطلب، وسمى أبا لهب لإشراق وجهه، فقد كان فيه حُمرَة كحُمرة اللهب.

وكان أبو لهب من جيران رسول الله ﷺ.

وكان بينه وبين رسول الله ﷺ علاقة نسب، فابنى أبى لهب عُتبة وعُتيبة، كانا زوجى ابنتى رسول الله ﷺ، رُقية وأم كُلثوم.

كان أهل مكة يُلقبون رســول الله ﷺ بالصادق الأمــين قبل البعثة، وهذا إن دل على شئ فإنه يدل على عظمة مكارم أخلاق رسول الله ﷺ، حتى ينتشر هذا اللقب هذا الانتشار الكبير فى جميع أرجاء مكة، والغريب أن أكثر الناس التى ينبغى لها أن تــدرك ذلك أحد هذه الأصناف الثلاثة: أحد أقاربه من العائلة، جاره فى المنزل المُطلع على بيته، من له علاقة نسب تتيح له التعامل المُباشر معه ودخول بيته.

نــرى من ذلــك أن أبى لهب قد تحقق فيــه هذه الأصناف الثلاثــة، فهو عمه، وجاره، ومعه علاقة نسب أيضاً، وبالتالى فهو أعرف الناس به وبأخلاقه لا محالة، ولكن!!

الصفات الشــخصية واتباع الهوى، التى كانت لدى أبى لهب، أثرت أثراً كبيرا فى حكمه على رســول الله ﷺ، والذى يُمثل دور الداعية إلى الله، فبمجرد أن أظهر رسول الله ﷺ رسالته، أعلن أبو لهب له العداوة، وكذبه، واتهمه بالسحر، وذهب

إلى ولديه عتبة وعتيبة فقال: رأسى ورأسكما حرام (أى لا أراكما و لا أكلمكما) إن لم تطلقا ابنتى محمد، فطلقاهما.

وعندما كان رسول الله ﷺ يمشى فى السوق ليدعوا الناس لتوحيد الله وترك عبادة الأوثان، كان أبو لهب يمشى خلفه، يرميه بالحجارة، حتى يُدمى ساقيه وعُرقوبيه، ويقول: يا أيّها النّاس إنه كذاب فلا تصدقوه، وعندما يعلم الناس أنه عمه، كانوا ينفضون عن رسول الله ﷺ، من مُنطلق أن عمه هو أدرى الناس به، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له، والتنقيص من شأنه ومن شأن دينه، ولذلك نجد فى الحديث أن الوحيد الذى أطلق لسانه فى حق رسول الله ﷺ عندما صعد على جبل الصفا، ليُنذر الناس، كان أبو لهب فقال لرسول الله ﷺ: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فنزلت سورة المسد، بتهديده هو وزوجته التى كانت تؤذى رسول الله ﷺ هى الأخرى، وأن عاقبتهم إلى النار، فقال تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة المسد)، وذكر رب العالمين المال، لأن سلطة المال والجاه تكون هى على الغالب سبب إغواء المجرمين ليصدوا عن سبيل الله، ويتعرضون بالأذى للمؤمنين، وأنت فى سبيل مالك، أو فى سبيل تحقيق منفعة خاصة بك قد تؤذى الداعين إلى الله، قد تعتدى عليهم إما بالسان وإما باليد، ولذلك يخبر رب العالمين الناس أجمعين أن المال لن يُغنى عن صاحبه شيء.

والرسالة التى أريد توصيلها: إلى كل ذا قرابة لداعية إلى الله، إلى كل جار، أو ذو نسب لداعية إلى الله، إياك أن تؤذيه، فإنك بذلك تُعرض نفسك إلى حرب من الله، ولن تطيقها أبداً، وفى الآخرة عذاب أليم، إن كنت تكره هذا الداعية، إن كنت تبغضه، لأى سبب كان (غير البغض لله، وهذا له شروط)، اجعل هذا الأمر لنفسك وداخل نفسك ولا تُخرجه منها، لأنك إن أعلنت عداوته صب الله عليك من المصائب صباً، واستمع إلى هذا الحديث الذى يرويه البخارى، حيث يقول الله فى الحديث

القدسى: (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب)، فهو نص صحيح صريح أن الله يُعلن الحرب المباشرة على كل من تسول له نفسه أن يُعادى أولياءه.

وعلى العكس من ذلك إن كنت تعلم من نفسك أنك لا تلتزم بشعائر الإسلام، إن كنت تعلم من نفسك تقصيراً فى جانب من الجوانب وتخشى عقاب الله لك على ذلك يوم القيامة، فاعلم أن للمؤمنين شفاعة لكل من كانوا يعرفون من المسلمين، وإقرأ معى هذا الحديث الصحيح، عن رسول الله ﷺ: (... ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرى جهنم، قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلاليب، وحسكة مفلطحة لها شوكة عُقيفاء، تكون بنجد يقال لها: السعدان، المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والرِّكاب، فناج مُسَلم، وناج مخدوش، ومكدوس فى نار جهنم، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً، **فما أنتم بأشد لى مناشدة فى الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار (وإذا رأوا أنهم قد نجوا)، فى إخوانهم يقولون: ربنا إخواننا، كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا، فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرم الله صورهم على النار، فيأتونهم وبعضهم قد غاب فى النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقيه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا.** قال أبو سعيد: فإن لم تصدقونى فاقرؤوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (النساء - ٤٠)، يشفع النبيون، والملائكة، والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتى،.....)[1].

(١) رواه البخارى ٧٤٣٩، ومسلم ١٨٣

وعن أنس رضى الله عنه قال: (يُصف أهل النار يومئذ، فيمر بهم الرجل من أهل الجنة، فيقول الرجل منهم: يا فلان أما تعرفنى، **أنا الذى سقيتك شربة**، وقال بعضهم: **أنا الذى وهبت لك وضوءاً**، فيشفع له فيُدخله الجنة)[1].

وبالتالى فإن كنت فطناً فعليك أن تتقرب من المؤمنين، أو من ترى فيه الصلاح، فإن تقربك من المؤمنين يجعل لك هذه الشفاعة، وإن أحببتهم حُشرت معهم يوم القيامة، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف ترى فى رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحب[2].

قد يقول قائل، وكيف أعلم أنه داعية إلى الله، أو مُدعى صلاح (منافق عليم اللسان)؟

أقول: سبق وبينت صفات المنافق عليم اللسان فى كتاب فتنة الدهيماء ويمكنك الرجوع إليها، وبالتالى تستطيع أن تكتشفه، أو ابحث بنفسك عن صفات المؤمنين وصفات المنافقين حتى تستطيع إكتشاف هذا المنافق عليم اللسان، أما الداعية إلى الله، فسترى صلاحه فى تعاملاته وسَمْتُه وهدوء نفسه، ورحمته بالعامة، وبالتالى فليس لك عذر أن لا تستطيع أن تحدد بين من يعمل لله ومن يعمل لهوى نفسه، وإن لم تستطع التفريق بينهما، فاعلم أن هناك خلل شديد فى نفسك عليك إصلاحه سريعاً وإلا وقعت فى الفتنة، وهذا الإصلاح لا يكون إلا بالعلم الشرعى الصحيح.

عن يزيد بن عمير، أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قالوا: يا أبا عبد الرحمن، أوصنا: قال: أجلسونى، ثم قال: **إن العلم والإيمان مكانهما، من التمسهما وجدهما**، قال ذلك ثلاث مرات[3].

---

(١) مصابيح السنة، حديث رقم ٢٢٧٩

(٢) متفق عليه

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك باب العلم، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبى: على شرطهما

٨ - ابتلاء التمكين

وفيه إعداد الجند وتهيئة المؤمن نفسياً وجسدياً لتحمل عبء التمكين

قال تعالى ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (الصافات: ١٧٣)

سُئل الإمام الشافعى، أيما أفضل للرجل أن يمُكن أو يبتلى؟

قال: (لا يمُكن حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخُلص من الألم البتة)(١).

اختبار التمكين، هو الاختبار الأصعب والأشد، وله علامة واضحة، أن تجتمع كل قوى الشر، أن يجتمع كل مشرك بالله، وكل كافر، وكل ظالم متكبر عنيد، وكل فاسق يتبع هواه، على هدف واحد، وهو حصار الإسلام والعمل على إستئصاله وأهله وخاصة المؤمنين منهم.

عن سعيد بن جبير قال:

(قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ ما يُعذرون به فى ترك دينهم؟

قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضرب الذى نزل به، حتى يعطيهم ماسألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجُعل(حشره كالخنفساء) ليمُربهم فيقولون له: هذا الجُعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداءً منهم مما يبلغون من جهده)(٢).

وعن عن أبى الجلد جيلان قال: ليصيبن أهل الإسلام البلاء والناس حولهم يرتعون، حتى أن المسلم ليرجع يهودياً أو نصرانيا من الجهد(٣).

---

(١) الفوائد لابن القيم

(٢) انظر: تهذيب السيره النبويه لابن هشام

(٣) رواه نعيم ابن حماد فى الفتن، ٤٧ بإسناد صحيح إلى أبى الجلد و هو ثقة

- فى ابتلاء التمكين وعلى الرغم من شدته، أنت على أبواب رؤية تحقيق وعد الله بتمكين دينه فى الأرض، لا يخاف أحد من عبادته وإتباع سبيله، ويرفع الله تسلط الظالمين على المؤمنين.
- فى ابتلاء التمكين أنت على أبواب رؤية راحة قلوب المؤمنين باندحار الكفر وأهله.
- ونتيجة لذلك فإن ابتلاء التمكين يأتى بهدف أساسى، وهو إعداد الجند لإحداث نقله هائلة للأمة، نقل الأمة من حالة ضعف وذلة، إلى حالة قوة وسيادة، ومن مرحلة جبن وسكون إلى شجاعة وإقدام، ومن حالة تراجع وتخلف إلى مرحلة تقدم وريادة.

وبالتالى كنتيجة لهذا التحول الكبير وما يتبعه من تغيرات كبيره للأمة، كان لابد من عملية إعداد المؤمنين لتحمل مشاق التمكين لدين الله فى الأرض، فهى مرحلة تربية وصقل، وإعداد وجهاد، وبذل وتضحية بما تتضمنه من تعب وألم ومشقه وجهد، وجهاد بالنفس والمال، والنجاح فيها لا يكون إلا بالصبر والاستعانة بالله، الذى تدرب عليه المؤمن سابقاً.

ولتوضيح معنى إعداد وتدريب المؤمنين سأطرح السؤال الآتى:

هل يتساوى فى القدرات جندى الحراسة مع جندى القوات الخاصة؟

الإجابة بالطبع لا.

فجندى الحراسة يتلقى تدريبات، تؤهله للمهمة التى سيقوم بها، وكذلك جندى القوات الخاصة يتلقى تدريبات، وإعداد نفسى وعقلى يتناسب مع طبيعة المهمة الموكلة له.

وبالرغم من تدريب كلا الجنديين إلا أن تدريب جندى القوات الخاصة أشد وأصعب وتكون فترة إعداده أطول زمناً وأكبر تكلفة، فسوف يُسند له مهام ذات

مستوى عالٍ وفى غاية الصعوبة، فلا بد أن يكون على مستوى من الإعداد البدنى والنفسى والعقلى يتناسب مع طبيعة ما ينتظره من مهام مستقبلاً.

ومثال آخر: إنك إن أردت بناء مبنى ضخم فى منتهى الارتفاع، فإنك من أجل ذلك لا بد أولاً أن تُعمق الحفر، وتحفر إلى أقصى ما تستطيع حتى تضمن أن يستقر البناء الذى تُنفذه.

كذلك ولله المثل الأعلى، الله يريد التمكين لدينه فى الأرض، والتمكين أن يحكم دين الله فى الأرض وتكون له السيادة وذلك فى وسط يتربص فية الأعداء بالمؤمنين من كل جانب.

لذلك فى مرحلة ابتلاء التمكين كان لا بد من تكرارالابتلاءات وخاصة الشاقة منها لإعداد المؤمنين لتحمل تبعات ما بعد هذه المرحلة.

واعلم أن الالم والمعاناة والزلزلة الشديد سنة من سنن الله تصاحب المؤمنين فى فترات الإعداد للتمكين بشكل مختلف عن فترات الابتلاء الأخرى، واقرأ معى قول الله تعالى واصفاً حال المؤمنين فى غزوة الأحزاب: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ (الأحزاب: ١٠ - ١١)

ولما سأل هرقل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ: هل قاتلتموه؟ قال: نعم.

قال: فكيف كان الحرب بينكم؟

قال: سجالا يدال علينا وندال عليه.

قال: فكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة[1].

• وقد يتساءل الإنسان:

– ولماذا كل هذا الألم والمعاناة والجَهْد وما يصاحبها من قتل وتشريد للمؤمنين قبل التمكين؟!

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الجهاد والسير

– هـل الله يعاقب عباده قبل أن يهب لهم نعمـة الأمن والأمان فى ظل تمكين دينه فى الأرض؟!

– هل الله غير قادر- حاشـا لله على تمكين دينه فى الأرض بدون ألم ومعاناة وشـدة على المؤمنين؟!

– ما الحكمة فى ذلك؟!

• إن المؤمـن يعلم أن الحـوادث لا تحدث مصادفةً، يعلم أن الله جعل لكل شـئ يحدث، تدبير وقدر وحكمة، حتى الورقة التى تسـقط من شـجرة فى أعماق غابة مظلمة، تسـقط بقدر وحكمة، يعلمها الله ولا نعلم عنها شـيئاً، ونزول البلاء يعنى أن هناك سبب، وبالبحث عن هذا السبب يهتدى المؤمن إلى رسالة رب العالمين إليه.

– قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (محمد-٤)، نعم لو أراد الله لانتصر من الكافرين ومن الظالمين فى أقل من طرفة عين، بل ولضرب عليهم الذلـة إلى يوم القيامة، ولما إحتاج أن يوقـع المؤمنين فى الابتلاء والألم والزلزلة، ولكـن ذلك لا يحقق الغاية من اختبار المؤمنين وتمييزهم، ومدى التزامهم بإتباع أوامر الله حتى يستحقوا تمكين رب العالمين لهم.

يقـول صاحـب الظلال رحمه الله: (ومـا بالله – حاشـا لله – أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنـة، ولكنه الإعداد الحقيقى لتحمل الأمانة، فهى فى حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقى على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقى على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية فى نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد، فتنفى عنها الخبث وتسـتجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشـدة فيشـتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامـدًا إلا أصلبها عودًا وأقواها طبيعة، وأشـدها اتصالاً بـالله، وثقة فيما عنده من الحسـنيين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسـلمون الراية فى النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار)[1].

---

(١) فى ظلال القرآن، سورة العنكبوت

– أخى الحبيب، الألم والمعاناة والشدة التى تصيب المؤمنين ما هى إلا صيحة إنذار للمؤمنين أن يصطفوا صفاً واحداً من اجل هدف عظيم وعد الله به المؤمنين: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور - ٥٥).

هو صيحة إنذار للمؤمنين أن الظلم قد زاد وكثُر، وأن الفساد قد ساد و انتشر، وعلى المؤمنين أن ينقذوا أمتهم قبل فوات الأوان.

هو صيحة إنذار لإيقاظ كل مؤمن، أن اترك ما فى يدك، اترك ما يشغلك، اترك الدنيا وانتبه، دينك يهان، وأمتك تباد.

– يزداد الألم أن سددوا وقاربوا، أن استعينوا بالله واصبروا، أن اعتصموا بالله جميعاً ولا تتفرقوا.

– يزداد الألم أن استعدوا، يزداد الألم أن قد حان أوان التغيير، لا تتكاسل، لا تتهاون، لا تضعف، ولا تستكين.

– يزداد الألم وكأن المنادى ينادى وإسلاماه.

و كلما اشتد الألم والمعاناة كلما انصقلت شخصية المؤمن أكثر، ويكون أكثر إستعداداً لحمل الأمانة التى كلفه الله إياها، مستحقاً أن ينال النصر من رب العالمين، ومستحقاً أن ينال التمكين فى الأرض.

ولا بد أن تكون أخى الفاضل على بينة من ثلاثة نقاط:

أولاً: أن الابتلاء قبل التمكين هو درس عظيم للمؤمنين أن الحول والقوة بيد الله وليس فقط فى عدد أو عده، وأنك إذا أردت المعونة من هذه القوة فيجب عليك كمؤمن أن تجعل من حياتك وسيلة لتحقيق مراد الله فى أرضه، مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه.

فى أى تخطيط استراتيجى يضع القائد الخبير دائماً خطة للخروج من المأزق، الذى قد يقع فيه جنوده، فهو لن يتركهم فريسه لعدوهم، فيستأصلهم أو يكسر شوكتهم فلا تقم لهم قائمة، ولله المثل الأعلى فإن الله فى ابتلاء التمكين يُعرض المؤمنين لكل

هذا الألم والمعاناة حتى تُبنى شخصيتهم الإيمانية بناءً كاملاً، حتى إذا زُلزلوا، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وأُغلقت كل سُبل النجاة التى يعرفونها، بعد إستنفاذ كل السبل المُتاحة لتحقيق النصر، يأتى أمر الله بالنجاة والنصر من عنده، ومن حيث لا يحتسب المؤمنين، حتى يعلم كل مؤمن أن هذا النصر لا يكون إلا من عند الله، وأنه لم يحصل عليه إلا بعد أن بذل وضحى، وأثبت جدارة أنه يستحق هذا النصر وهذا الانبعاث الجديد، ليبدأ دورة جديدة فى حياة الأمة لتقوم من كبوتها.

ثانياً: أن الابتلاء قبل التمكين هو بُشرى للمؤمنين، على ما فيه من ألم، فهو إشارة إلى أن إيمانهم ودعوتهم إلى الله قد بلغت مبلغاً عظيماً، أقض مضاجع الكفر، فجعلها تخرج عن بكرة أبيها تدافع عن نفسها، فهو إشارة للمؤمنين على أنهم على الطريق الصحيح، وأنهم قد اجتازوا شوطاً طويلاً فى طريق نشر منهج الله، ولم يتبق إلا الشوط الأخير، أو النفس الأخير الذى سيلفظه الظالمين، بعدها سيكون التمكين للمؤمنين، فقد آمنوا، وعملوا، وأعدوا، وابتُلوا، وصبروا واحتسبوا كل ذلك لله، وهو ما رأيناه بعد غزوة الخندق(كمثال).

ثالثاً: أن الابتلاء قبل التمكين، سينتهى عندما تتحقق الأهداف والحِكم والغايات منه، وعندما يستوعب المؤمنون الدرس جيداً، وعندما تنتهى فترة تدريبهم واعدادهم تدريباً كاملاً، لأن الله لا يعجل بعجلة أحد، بل هو غالب على أمره، يعلم ولا نعلم، له الحُكم وله الحِكمة.

و حتى تتحقق الحكمة والغاية من الابتلاء، لابد أن تتنوع أساليبه، وتتعدد مظاهره، حتى تكتمل شخصية المؤمن بجميع جوانبها، وحتى يتم غربلة وتصفية الصف المؤمن من كل فرد ضعيف الإيمان أو فى قلبه مرض، فلا يتبقى إلا الفئة القليلة المؤمنة حق الإيمان، الذين وهبوا أنفسهم وأموالهم لله رب العالمين، وعندها يُمكّن الله لهم فى الأرض، وتكون لهم السيادة الكاملة.

(يُمكّن الله عز وجل للمؤمنين فى الأرض بعد أن يثبتوا جدارتهم واستحقاقهم للنصر بلجوئهم إليه وحده فى وقت المحنة، وتجردهم له وتطلعهم إليه فى زمن

الشدة، مستيقنين من نزول النصر بعد الأخذ بكافة الأسباب المأمور بها شرعًا من صبر وتقوى وإعداد)[1].

ومن الأمثلة على هذه النقطة، ما حدث ليوسف عليه السلام، فبعد أن أُبتُلى ابتلاءات شديده واكتملت جوانب شخصيته وأصبحت ثابتة مطمئنة واثقة، أخرجه الله من السجن، (ومنذ هذه اللحظة تتفرد شخصية يوسف على مسرح الأحداث، وتتوارى تماما شخصيات الملك والنسوة والبيئة، ويمهد السياق القرآنى لهذا التحول فى القصة وفى الواقع بقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٥٦)، ومنذ هذه اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألواناً أخرى من الابتلاءات ، تختلف فى طبيعتها عن الألوان الأولى، وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعى، وبتلك الطمأنينة الساكنة الواثقة)[2].

– ومن خطورة مرحلة ابتلاء التمكين أنه نتيجة لشدة وطأتها فإن كثير من الناس يُفتنون من رؤية تسلط الظالمين على المؤمنين، ويقول قائلهم:

إن كان هؤلاء مؤمنون حقاً، فلماذا لا يستجيب الله دعائهم؟!

لماذا سلط الله عليهم الظالمين إن كانوا مؤمنين؟!

أين تمكين الله الذى وعدهم إياه؟!

عن قتادة أن ناساً من المنافقين قالوا فى غزوة الأحزاب: قد كان محمد يَعِدُنا فتح فارس والروم، وقد حُصرنا ههنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً[3].

قال تعالى على لسان المؤمنين المضهدين من قوم فرعون: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (يونس-٨٥)، يقول: (لا تظفرهم بنا، وتسلطهم علينا، **فيظنوا أنهم**

(١) منهج النبى ﷺ فى الدعوة من خلال السيرة الصحيحة، محمد امحزون

(٢) الظلال سورة يوسف

(٣) تفسير سورة الأحزاب آية ١٢ الطبرى

إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك)[1].

• إن ابتلاء التمكين، ابتلاء عام يصيب الأمة كلها، وفيه ينقسم الناس إلى ثلاثة أصناف:

ـ الصنف الأول: وهو صنف جباناً بطبعه، ضعيف النفس لا يقدر ولا يصبر على مواجهة الابتلاءات المختلفة سواء ضعفت أم قويت، هو صنف المنافقين مدعى الإيمان، لا ينصرون دين الله، ولا ينصرون أولياءه، وحين نزول ابتلاء التمكين ويتسلط الظالمين على المؤمنين، تجدهم إرتدوا على أعقابهم ويسارعون فى موالاة الظالمين، ظناً منهم أن فى ذلك حماية لهم وأماناً من الوقوع فى الألم والمعاناة، وظناً منهم أن هذا الابتلاء الشديد هو نهاية الصراع بين الحق والباطل، وظناً أن قوة الباطل ستجعله ينتصر على الحق وأهله.

قال تعالى عنهم: ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ (التوبة: ٥٠).

أى أنهم يفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما ينزل بهم من مشقة، ويقولوا قد احتطنا، وأخذنا حذرنا ألا نصاب مع المؤمنين بشرّ أو معاناة.

ويخبر الله تعالى عنهم فى سورة الأحزاب، بصورة أشد وضوحاً فيقول: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ (الأحزاب: ١٤)، فيقول أنهم إن أحاط بهم جيش من جميع النواحى فلم يبق لهم مهرب ولا مفر، ثم طُلب منهم أن يُعلنوا كفرهم بالله ويرتدوا عن الإسلام، للجأوا إلى الفتنة فكفروا بالدين، ولم يثبتوا على إسلامهم طلباً للسلامة والأمن، ولأعطوا الكافرين ما يبتغون منهم من كفر[2].

قال بعض السلف: من آثر عاجل الخسيس، فقد ضيع آجل النفيس.

---

(١) تفسير ابن كثير سورة يونس

(٢) انظر ظاهرة النفاق، د. عبد الرحمن الميدانى (١ / ٣٨٨)

ـ **والصنف الثانى**: وهم الغالبية، وهم الصنف المشاهد للأحداث ولا يحرك ساكناً فهو لا يؤيد حق ولا يقف مع باطل، يبتغى من ذلك السلامة.

وقد قال رسول الله ﷺ: (ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده، فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه، فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه، فهو مؤمن، ـ**ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**)[1].

(إن القلب إذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله، لم يكن فيه من الإيمان الذى يستحق به الثواب، وقوله (من الإيمان) أى من هذا الإيمان وهو الإيمان المطلق، أى ليس وراء هذه الثلاث، جهاد باليد أو اللسان أو القلب، ما هو من الإيمان ولا قدر حبة خردل، والمعنى: هذا آخر حدود الإيمان، ما بقى بعد هذا من الإيمان شئ)[2].

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: (والذى نفسى بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، **ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم**)[3].

وأيضاً سيقع على هؤلاء، ما يقع على الآخرين من الابتلاء، لأنه إبتلاءاً عاماً، ولأنهم لم ينصروا دين الله كما ينبغى أن يفعلوا (راجع ابتلاء الدعوة).

إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة.

ـ **والصنف الثالث**: المؤمنون حقا، الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وفى سبيل نصرة دينه، هؤلاء من يقع عليهم النصيب الأكبر من الألم والمعاناة

---

(١) رواه مسلم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

(٢) كتاب الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٣) أخرجه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع، رقم: (٢٣٩٩).

والجهد، هؤلاء من باع كل شـئ لله، وترك الدنيا خلف ظهره، مُحققاً صفة الاتباع لشريعة الرّب، صابراً، محتسباً، ثابتاً: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ **(آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨).**

– هؤلاء وإن نظر إليهم أهل الدنيا أنهم قد خسروا أنفسهم وأموالهم، إن نظروا إليهم على أنهم مستضعفين أذلاء، فإن هؤلاء هم جند الله، يصطفى منهم شهداء، ويصنعهم الله على عينه، ويعدهم لتحمل الأمانة، وجزاؤهم: ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ **(فاطر: ٣٣ - ٣٥)**

– إن نظر الناس إلى الابتلاء يختلف حسب إيمان كل فرد، وأخبر الله لنا مثال على ذلك فى كتابه الكريم، فى مشهد واحد و موقف واحد، تعرض له المؤمنين والمنافقين قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

(الأحزاب: ١٠ - ١١).

لنرى رد فعل المؤمنين ورد فعل المنافقين:

– قال تعالى عن المؤمنين:–

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ **(الأحزاب - ٢٢)، فالمؤمن يعلم أنه سيُبتلى وأن جيوش الكفر ستتربص به وستحاول القضاء عليه، هو على يقين من ذلك، ولذلك فهو لا يستعجب الهجوم عليه ولا يخاف ولا يضعف بل يُسلّم أمره إلى الله، ويرضى بقضائه.**

– بينما قال عن المنافقين:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ

مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ (الأحزاب: ١٢ - ١٣).

هـذا هو حـال المنافقين، الذعـر، والفـزع والجـبن: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ (المنافقـون: ٤)، أى: كلما وقع أمـر، أو كائنة، أو خوف يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهـم، كما قال تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (الأحـزاب: ١٩)، فهـم جهامـات وصـور بلا معانى[1].

– اعلم أن الابتلاء الشـديد الذى يُصيب المؤمنين فى مرحلة ابتلاء التمكين ليس هو نهاية الصراع بين الحق والباطل، بين الخير والشر، كلا بل هى جولة قد يكون فيها جانب الشـر هو الأشـد قوة والأكبر طغياناً وغلظـة، وهى فى جميع الأحوال مرحلة عابرة فى عمر الأمة ستنتهى طالت أم قصرت حين يأذن الله بذلك.

صورة من صور ابتلاء التمكين

ما وقع لرسـول الله وصحابته الكرام فى غزوة الخندق وسـوف أعرضها بشئ من التفصيل بعد قليل عند دراسة بعضاً من الابتلاءات الشديدة التى تصيب المؤمنين.

فاصبر إن العاقبة للمتقين

نعم مهما كانت شـدة الابتلاء ومهما إشـتدت المعاناة ومهما طال و قت الألم فإن رحمة الله قريب من المحسنين، ونصر الله لا محالة سيكون للمؤمنين، ولكن لابد من الصبر والاحتساب وانتظار الفرج من عند رب العالمين، هذا وعد الله، والله لا يخلف وعده أبداً ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٦).

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير سورة المنافقون

أخى الكريم، من ظن أن الباطل قد ينتصر، وأن السيادة ستكون له فقد أساء الظن بالله، ولم يفهم سنة الله فى خلقه.

سيأتى نصر الله بتحقيق أربعة شروط: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ **(الأعراف: ١٢٨)**

استعانة كاملة بالله دون غيره من البشر، مع الأخذ بكامل الأسباب.

صبر على البلاء والمعاناة رضاء بقضاء الله، ورغبة فى مرضاة الله.

يقين بموعود الله أن النصر للمؤمنين، والأرض لله يورثها لمن يشاء من عباده، وأنه لا يجرى فى ملك الله شئ إلا بقضائه وقدره وحكمته.

تقوى: تقى المؤمنين من الوقوع فى معصية الله، وتهديه إلى الطريق المستقيم.

وسيأتى التمكين بأن يتبع المؤمنون منهج رب العالمين كاملاً دون نقصان أو تحريف، فيُمكّن الله تعالى للدين بهم فى الأرض: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ **(النور: ٥٥)، (إن وعد الاستخلاف للمؤمنين الذى تضمنه هذا النص، مشروط بأهلية قسم كاف منهم عقيدة وعملاً لهذا الاستخلاف، وحين يسلُبهم الله السلطان والتمكين، ثم يؤخر الله عنهم عودة استخلافهم، فليعلموا أن الله عليم حكيم، وانهم ما زالوا غير مؤهلين للإستخلاف حتى يُحقق الله لهم وعده)**[1].

– أخى الكريم، إصبر نفسك وكن على يقين من موعود الله، فكل ما وقع من إبتلاء، وكل ما سيقع مستقبلاً، هو بإرادة الله، وسنة من سننه، ولن تجد لسنة الله تبديلا فى إعداداً المؤمنين لحمل الأمانة، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم، قال تعالى:

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ

(١) بصائر للمسلم المعاصر، د. عبد الرحمن الميداني

ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ (الرعد - ١٧).

نعم فمهما علا الباطل وانتفش، إلا أنه سيظل باطل لا قيمة له، وسيأتى لا محالة اليوم الذى يضيع فيه هذا الباطل فيصبح هباءً لا قيمة له مثل زبد الماء الذى يعلوه، فهو يبدو للعيان كأنه كل شىء طافياً فوق الماء، إلا أن هذا الزبد يذهب بلا قيمة، ويبقى الأصل الثابت الذى كان محجوباً به، يبقى الماء الذى ينفع الناس بعد ذهاب الزبد، كذلك يبقى الحق ويظهر بعد ذهاب الباطل الذى لاقيمة له، فإن أنت تعلقت بهذا الباطل ظناً أن فيه المنفعة فأنت واهم وما فى يدك هو لا شىء لأنه سيزول لا محالة

– باستطاعة المؤمن الفطن أن يميز بين أنواع الابتلاءات التى تصيبه وأسبابها والحكمة منها، والمسلم الملتزم بشرع الله، المُراقب له سبحانه وتعالى فى سره وعلانيته يعلم من أين يؤتى.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾ (النساء: ٧٩)، إن (كل سيئة تُصيبك فهى بسبب أو مقتض أو داع من نفسك، والنفس هى الكاسبة، فإذا كانت السيئة للامتحان والابتلاء، فاختبار نفسه هو الداعى، وإذا كانت للتربية والتأديب، فهما المُقتضى، وإذا كانت للجزاء، فنفسه الكاسبة هى السبب.

فكون ما أصاب الإنسان من سيئة هو من نفسه، ينبغى أن يُفهم على هذا، فالإسناد مُلاحظ فيه هذه العلاقة، فعلمنا الله عز وجل بهذا أن الحدث يُنسب إلى فاعله ومُوجده، ويُنسب إلى مُسببه، ويُنسب إلى من كان لمصلحته، أو من أجله، أو لأمر يتعلق به، وإدراك هذا النسب فى النصوص بحسب العلاقات يحتاج إلى فقه، وهو الفهم العميق الذى لا يقتصر على السطوح، بل يكون فيه تعمق وتدبر)[1].

ومن كرم رب العالمين ورحمته أن بعث رسول الله محمد ﷺ الذى هو بالمؤمنين

(١) ظاهرة النفاق، د. عبد الرحمن الميدانى (١ / ٥٥٣)

رءوف رحيم بلغ الأمانه ونصح للأمة ولم يترك شئ إلا وبينه و أرشدنا إلى الصراط المستقيم و حذرنا مراراً و تكراراً حتى لا نقع فى فتنه أو نتعثر فى اختبار الابتلاء.

المؤمن كالنخلة

عن ابن عمر (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: أخبرونى عن شجرة مثلها مثل المؤمن؟ وفى رواية (مثل المؤمن كشجرة لايتحات ورقها)

فجعل القوم يذكرون الشجر من شجر البوادى، قال ابن عمر (رضى الله عنهما): وألقى فى روعى أنها النخلة، فجعلت أريد أن أقولها فإذا بأسنان القوم (أى كبارهم وشيوخهم) فأهاب أن أتكلم، فلما سكتوا، قال رسول الله ﷺ (هى النخلة).

ولكن ما الحكمة فى تشبيه رسول الله ﷺ المؤمن بالنخلة؟

بالإضافة إلى أن النخلة رمز للعطاء والشموخ، فإن النخلة أصلها ثابت فى الأرض، وفرعها فى السماء، لها قدرة كبيرة على تحمل الجفاف، وتقلبات الطقس، ومواجهة الظروف البيئية الصعبة، ولا تعصف بها الرياح بسهولة فهى لا تتاثر كثيراً بالرياح بسبب مرونة جذعها و قوة إرتباط جذورها الكثيفة بالتربه، فعندما تهبُ الرياحُ القويةُ على أشجارِ النخيلِ ينكمش سُعف النخيل بزاويةٍ قريبةٍ من ٩٠ درجة وتتجه مع مسارِ الرياحِ وذلك لتجنب الضرر، ولكن مع شدة النخيل وبأسه، إلا أن الرياح الشديدة قد تقتلعه من مكانه، ولكن لا تكسره إلا إذا كان مريض بالتسوس.

إن النخل نافع، فى ثمره وساقه وجريده وأوراقه، حتى النوى، وكذلك المؤمن، نافع فى كل أحواله، فى نفسه وفى تعاملاته وفى بيته وفى بلدته وفى دينه، وفى نفس الوقت فهو صلب وثابت أمام الابتلاءات والشدائد، لا يلين ولا يستكين، وتمر عليه الأحداث الصعاب والابتلاءات الشديدة وهو راسخ، صابر، مطمئن، ولا يسقط إلا من كان ضعيف النَفْس، ضعيف الإيمان.

• وبعد هذه الأمثلة التوضيحية لبعض حِكم الابتلاءات، والدروس التعليمية منها، وبعد ارتقاء المؤمن فى المستويات الإيمانية وتجاوزه العقبات والابتلاءات التى تعرض لها بنجاح، ويتوج إيمان المؤمن بنجاحه فى ابتلاء التمكين، الآن يُمكننا القول أن المؤمن قد نجح فى اجتياز الدورة التدريبية الأخيرة والتى تؤهله لتسلم راية الريادة والمسئولية عن ترسيخ دين الله فى الأرض وفى نفوس الناس.

ولا تظن أن الابتلاءات قد تنتهى عند هذا الحد، كلا، لا تنتهى الابتلاءات والفتن طالما فيك نفس يتردد، ولكن ما سيأتى من إبتلاءات (بعد ابتلاء التمكين)، هو إمتداد لما سبق ونجحت فيه، فهى مرحلة جديدة بقواعد جديدة يضعها المؤمنين، فإن إتبع المؤمنين منهج رب العالمين الذى إرتضاه لهم، إستمر مُلكهم، وإستمرت قوتهم وغلبتهم على عدوهم، نعم ستكون إبتلاءات أخرى، تتطلب حكمة وعلم لم يكن للمؤمنين الحصول عليهما بدون أن يمروا بكل الابتلاءات السابقة.

ما سيأتى بعد ذلك هو جزء أساسى من ابتلاء النعمة، فبعد الألم والمعاناة، بعد الخوف والجوع، بعد الصبر والمصابرة، تأتى الراحة والنعمة، يأتى الأمن والرخاء، فمن أخذ ذلك بحقه ولم ينس شروط إستمرار التمكين، بارك الله له، وعاش حميداً، قوياً عزيزاً، ولذلك يجب على المؤمنين الحذر من خطوات الشيطان حتى لا يسقطوا فى اختبار النعمة وبالتالى يكونوا عرضة لأن تُعاد دورة الابتلاء من جديد، حتى يُعاد ترسيخ الإيمان ثانية فى نفوسهم.

بين الابتلاء والدرجة فى الجنة

تتحدد درجتك فى الجنة على حسب درجتك الإيمانية، فالإيمان درجات يرتقى فيها المؤمن كلما زاد يقينه بالله وأخلص العمل إليه، وعلى مقدار إيمان المؤمن ينزل بـه الإبتلاء، وبالتـالى كلما زادت درجتك الإيمانية، كلما زاد نوع وشـدة الابتلاء عليك بما يتناسـب مع ذلك، ليرى الله هل أنت صادق حقاً فى إيمانك الذى تدعيه، وثابت عليه مهما كلف الأمر من تضحيات، أم أنت ضعيف وسـتتراجع سريعاً إلى الدرجة الأقل التى كنت عليها، أم سـتتراجع أكثـر وأكثر تنازلاً فى إيمانك خوفاً من الابتلاء.

وبالتالى إن أردت درجة عالية فى الجنة لابد أن تعود نفسك على الصبر والتضحية فى سبيل الله، أما الصبر فذلك حتى تستطيع الصمود امام الابتلاء إلى أن يأتى الفرج من الله، وأما التضحية فلأنك سـتعانى آلام كثيرة وشـديدة فى سبيل الدرجة التى تـود الحصول عليها، وتمثل تضحيتك ثمـن هذه الدرجة(بالطبع كل ذلك بفضل الله ومعونتـه)، ولذلك يقول الله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)، فالأموال والأنفس تمثل التضحية التى يقدمها المؤمنون فى سبيل نيل درجة الشهداء عند الله، وهى تضحية مهما كانت كبيرة إلا أنها ثمن بسيط مقارنة بالخلود فى رضوان الله وفى الدرجات العالية.

- **ولكن يبقى شىء قد يتردد فى الأنفس! وهو الخشية من الابتلاء وعدم القدرة على الصبر عليه؟ أليس من الأفضل لو أن يعيش المرء بدون ابتلاءات ومعاناة؟!**
- **سأضرب لك مثال يبين لك ما الذى ستخسره بعدم صبرك على الابتلاء وخشيتك منه:**

– اشـترى مليونير مركز تسوق(سوبرماركت) عملاق من ثلاث طوابق، يحتوى على مائة قسم والتى تمثل أماكن التسوق والرفاهية.

ثم جاء هذا المليونير بخمسة شباب وأخبر كل واحد منهم أنه على استعداد أن يُعطيهم ما يشاءون من أقسام فى مركز التسوق مجاناً، وأنه سيقف بجانبهم ويساعدهم ليحققوا الربح والنجاح.

جاء الشاب الأول: فرفض العرض وذهب بدون أن يأخذ شيء.

وجاء الشاب الثانى: فقال أنا لا أريد تحمل المسؤلية عن أى قسم، ولكنى أريد العمل فى المكان حتى ولو كعامل نظافة.

وجاء الشاب الثالث: فطلب قسم واحد فقط فى جانب من مركز التسوق.

وجاء الرابع: فطلب القسم المركزى الكبير فى الطابق الأول من مركز التسوق.

وجاء الشاب الأخير: وأخبر هذا المليونير أنه يريد أن يأخذ باقى الأقسام فى مركز التسوق كاملة.

وحقق هذا المليونير لكل شاب ما يتمناه، وأعطاهم ما أرادوا.

وبعد مرور ثلاث سنوات، اتصل بهم هذا المليونير وأخبرهم أنه يريد لقائهم، وفى لقائه معهم أراد أن يعرف ماذا حقق كل منهم من نجاح.

فقال الأول، إنى أبحث عن عمل.

وقال الثانى: أنا أعمل فى نظافة المكان وأكسب ألفين من الجنيهات شهرياً.

وقال الثالث: لقد نجحت نجاح عظيماً فأنا أكسب مائة ألفاً فى العام.

أما الرابع فقال: أما أنا فأكسب مائتى ألف فى العام.

بينما قال الخامس بكل فخر: أما أنا فأصبحت مليونيراً منذ فترة طويلة، بل وقد اشتريت مركز تسوق أخر، وعندى أكثر من ثلاث مائة عامل يعملون معى.

فنظر إليه باقى الشباب نظرة تعجب وحسد مع بعض الحسرة.

وقال الشاب الثالث: نعم لقد اكتسبت كل هذه الأموال لأنك أخذت النصيب الأكبر من الأقسام فى مركز التسوق.

وصدّق باقى الشاب على هذا القول وقالوا نفس الكلام.

فقال الرجل المليونير، ألم أخبركم إبتدأ أننى سأعطيكم ما تشاءون وسأكون معكم

حتى تحققوا النجاح، إن ما حققه كل واحد منكم هو ما إختاره لنفسه، فلا يوجد داعى للشكوى والانزعاج أن حقق هو هذا النجاح الباهر ولم تحققوه أنتم.

المقصد من القصة: أنك فى هذه الحياة الدنيا تحدد المكانة التى ستكون فيها عند رب العالمين يوم القيامة، فى سلم تصاعدى من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، ويوم القيامة عندما يأخذ كل مؤمن درجته، فستتمنى لو أنك كنت نُشرت بالمناشر فى الدنيا حتى تأخذ من الدرجات العلا، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت فى الدنيا بالمقاريض)[1]، ولكننا الآن نفتقد اليقين بالله وبثوابه، وبالتالى عجزت أنفسنا أن تصبر ولو قليلاً فى سبيل الله على الابتلاء، وعجزت أن تتقدم خطوة واحدة فى الطريق إلى الله، وبالتالى ابحث عن يقينك فى الله فى نفسك قبل أن تقول أنك تخشى الابتلاء.

(١) حديث حسن رواه الترمذى برقم ٢٤٠٢، وهو فى السلسلة الصحيحة برقم ٢٢٠٦

الفصل الرابع

دراسة لبعض صور الابتلاءات الشديدة للمؤمنين

- **ابتلاء نبى الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام.**
- **ابتلاء رسول الله موسى** عليه السلام.
- **ابتلاء الصحابة فى غزوة الخندق (صورة من صور ابتلاء التمكين).**
- **ابتلاء أصحاب الأخدود.**

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ **(يوسف: ١١١).**

أولا: الابتلاء فى قصة يوسف عليه السلام

المضمون الأساسى الذى أرجوا أن أستطيع توصيله إليك أخى الكريم من قصة يوسف عليه السلام **أن الله لا يخلف وعده، وأن الله غالب على أمره**، مهما كانت الظروف صعبة، مهما كانت الأحوال تسير فى عكس الاتجاه المرجوا منها، وبعيدة كل البعد(من وجهة نظرك أنت) عن الطريق والوعد الذى اقتطعة الله على نفسه، بنصر عبادة المؤمنين، والتمكين لهم فى الأرض.

إن الله سيُتم وعده لعباده المؤمنين لا محاله، ولكن بالكيفية التى يراها هو، وفى الوقت الذى يريده هو، وما على المؤمنين إلا الصبر، واليقين كما فعل نبى الله يعقوب عليه السلام عندما قال لأبناءه ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٨٦)، لماذا؟

لأن المؤمنين على يقين: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٠).

• تبدأ القصة برؤية (وعد بالاصطفاء) حيث يقول يوسف عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ (يوسف: ٤).

فيخبره والده نبى الله يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (يوسف: ٦).

وبالتالى ومن الطبيعى أن يكون يوسف عليه السلام وكان صغير السن، فى شوق وشغف، منتظراً تحقيق الوعد والرؤيا كما أخبره والده.

ولكن، تأتى الأحداث بسيناريو وطريقة على غير ما هو متوقع تماماً، وتأتى الابتلاءات تباعاً، فإخوة يوسف يحسدونه على مكانته فى قلب أبيه، فيدبرون له مكيدة ويلقوه فى غياهب بئر، ويتركونه وحيداً بعد أن كان فى عزة ومنعة وهو حر وفى وسط إخوته وعائلته، ثم يؤخذ من قِبل عابرى سبيل، ويباع كعبد إلى أناس أخرين فى بلد غير بلده.

ما هو موقف يوسف عليه السلام فى هذه اللحظة؟!

ما هو شعوره ويقينه بتأويل رؤياه؟!

لقد ابتعد يوسف عليه السلام كثيراًعن تحقيق رؤياه!!! لقد كان اختباراً صعباً فى التصديق واليقين.

ثم يترعرع يوسف فى قصر الملك ويبلغ أشده ويأتى اختبار من نوع جديد، اختبار أشد وأصعب، امرأة الملك تراوده عن نفسها!

يقول شيخ الإسلام رحمه الله فى ذلك:

(كان صبر يوسف على مُطاوعة امرأة العزيز على شأنها، أكمل من صبره على إلقاء إخوته له فى الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه الأمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيه حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية، فصبر اختيار ورضى، ومحاربة للنفس، لا سيما مع الأسباب التى تقوى معها دواعى الموافقة:

فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية.

وعزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته.

وغريباً، والغريب لا يستحى فى بلد غربته مما يستحى منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله.

ومملوكاً، والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر.

والمرأة جميلة، وذات منصب، وهى سيدته، وقد غاب الرقيب، وهى الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصَغَار ، ومع هذه الدواعى كلها، صبر إختياراً، وإيثاراً لما عند الله) [1].

نعم، استعان يوسف بالله وتوكل عليه وهرب منها، ولكن يشاء قدر رب العالمين أن يرى الملك الواقعة، وبعد أن تبين له أن يوسف برىء، وعلى عكس المتوقع!!!

---

(١) مدارج السالكين ج٢

يأمر بسجن يوسف عليه السلام!!!

إن كنت مُراقباً للأحداث ساعة وقوعها لقلت:

لقد ابتعد يوسف عليه السلام كل البعد عن تحقيق الرؤيا التى رآها، والوعد الذى سمعه من والده، وهذا صحيح فى عُرف البشر ذوى النظرة القاصرة للأمور، بينما فى علم الله المُحيط هناك شأن آخر.

تخيل نفسك فى هذا الموقف وأنت لديك وعد من الله بالاصطفاء والسيادة(كما هو الحال مع المؤمنين الصادقين)، كيف سيكون شعورك ويقينك وأنت ترى الإضطهاد والقتل والتشريد للمؤمنين، ويقول أقوام: أين نصر الله المزعوم لعباده المؤمنين؟!

لنتخيل شخص آخر فى مكان يوسف عليه السلام، ماذا سيكون رد فعله على هذه الابتلاءات؟

هل سيقول لقد كُذّبت؟

هل سيقول أين تأويل هذه الرؤيا؟ لقد خدعنى أبى!

أين الله؟ وكيف يتركنى بكل هذه المعاناة و الآلام؟ وأنا مؤمن به ولم أعصه أبداً؟

أسئله قد تدور فى مخيلة أى شخص أخر فى مكان يوسف عليه السلام، إلا أن الله يُثبت أن يوسف عليه السلام كان من المؤمنين الصابرين المخلصين المحسنين.

إن الله له تدبير أخر بعلم وحكمتة غير تدابير البشر، ففى الوقت الذى قد يظن شخص ما أن يوسف قد بيع، وصار عبداً ضعيفاً لا حول له ولا قوة، إلا أن الله يبشر المؤمنين ببشاره عكس هذا الظن، فيقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(يوسف: ٢١)

نعم إن الله غالب على أمره، وما كان بيع يوسف وتركه عائلته ووطنه، إلا وسيلة لغرس جذوره فى مصر، فتكون بلد التمكين له.

• يوسف عليه السلام الأن فى السجن، بكل ما يتضمنه السجن من آلام نفسية وجسدية، ويأتى إليه ابتلاء أخر وهوفى سجنه.

دخل معه السجن فتيان وطلبا منه تأويل رؤيا ! ! !

ياللعجب! هل تدرك مدى صعوبة هذا الاختبار ؟!

لقد رأى رؤية منذ سنين طويلة، وأولها له والده (النبى) على أن الله سيجتبيه ويرفع شأنه، وها هو الأن فى السجن، معزول عن الناس والبشر.

ولكن أثبت يوسف عليه السلام أن اليقين بالله فوق كل شئ، وأن العلم بالله أساس كل شئ، وبه تهون كل صعوبة، وتطمئن نفس المؤمن أن الله لن يُضيعه أبداً.

يُؤول يوسف عليه السلام الرؤيا، ولكنه قبل ذلك يقوم بواجبه الأول، الدعوة إلى الله والتعريف به، فهو معزول عن الناس فى السجن، ولكن تضعه الأقدار مع فتيان فى نفس المكان، لينتهز الفرصة ولا يضيعها، وليُخبرهم من هو الله، عسى أن يكون هداهم على يديه فهذا هو واجبه الأول حتى وإن كان سجيناً ظلماً.

وهذا هو حال المؤمنين فى كل زمان ومكان صابرين، محتسبين، يرجوا الثواب من ربه ﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(آل عمران: ١٤٦).

إن المؤمن ثابت على دينه، ثابت على عقيدته، صابر على ما يلقاه من ابتلاءات، وتراه فى شدته ومعاناته مبتسماً منشرحاً وكأنه مُنعم فى أهله وماله، حتى يأتى الفرج والنصر من عند رب العالمين.

نعم يُغير الله من حال إلى حال، و تتغير الظروف بعد بضع سنين فى السجن يخرج يوسف عليه السلام، ويُمكن الله له، ويصبح عزيز مصر ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ **(يوسف: ١٠٠)**

ويظهر إيمانه وشكره الكامل لله وهو متجها إليه بذلك الدعاء المنيب الخاشع:

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ **(يوسف: ١٠١)**

والملاحظ أن يوسف عليه السلام ذكر الخير الذى هو فيه وحمد الله عليه ولم يُشر بأى حال للمعاناة التى كان فيها قبل ذلك، وهذه أيضاً من صفات المؤمن المحتسب، فكون أعماله لله وينتظرمنه الأجر والثواب لذلك لم يشكو إلى الناس ما كان فيه من إبتلاء، بل ونسب ما كان من إخوته من إلقاءه فى الجُب بأنه كان وسوسة شيطان، وإنتهت، فلم يُحملهم مسئولية ما حدث له من مفارقة والديه ومن إبتلاءات تعرض لها.

والملاحظ أيضاً أن يوسف عليه السلام حقق أمر الله تعالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، فى تعامله مع إخوته، فهم كانوا السبب الأساسى فيما أصابه من بُعد عن والده، وحياة الشقاء التى رأها بعينه حتى خروجه من السجن، فهو فى ذلك كان بين خيارين:

– إما أن ينتقم من إخوته، ويُعاملهم بما يستحقونه من عقوبة.

– وإما أن يعفو ويصفح، ويغض الطرف عما كان منهم، و إختار يوسف عليه السلام سبيل المؤمنين، وهو سبيل العفو عمن ظلمه، يبتغى من ذلك الثواب من الله.

• أما نبى الله يعقوب عليه السلام، فإنه على الرغم من حزنه لفقده يوسف عليه السلام، إلا أن يقينه أنه سيجد يوسف عليه السلام كان كاملاً، فقد أول بنفسه الرؤيا ليوسف عليه السلام ويعلم ان الله سيرفع مكانته ويجعله نبياً من بعده، وفيها أيضاً سجوده هو وبنيه ليوسف عليه السلام، لذلك قال لإبناءه بعد كل هذه الفترة الطويلة على غياب يوسف عليه السلام: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف: ٨٧)، بل إن أبناءه عندما إعترضوا على حزنه قال لهم: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٨٦)، نعم قد يحزن المؤمن، قد يتألم ويعانى، ولكنه لا ييأس أبداً، ولا يضعف، ولا يفقد ثقته بالله.

لفته أخيرة، يقول الطبرى فى تفسيره، وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يقول:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بمواضع الفضل، ومَنْ هو أهلٌ للاجتباء والنعمة،

﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى تدبيره خلقه.

ويقول الزمخشرى ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يُتم نعمته إلا على من يستحقها.

ويقول السعدى فى تفسيره: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد، من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذى يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم. ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

• وتُظهر قصة يوسف عليه السلام أنواع من الابتلاءات التى قد يتعرض لها المؤمن:

– ابتلاء الإيمان والتصديق.

– ابتلاء الصبر.

– ابتلاء الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان (وهو من الابتلاء بالنعمة).

– ابتلاء نهى النفس عن الهوى، فى إطلاق الانفعالات والمشاعر البشرية فى التعاملات بين الناس (ورأينا ذلك فى تعامل يوسف مع إخوته)، وهو من ابتلاء النعمة أيضاً.

• ولو نظرنا للقصة بنظره عامة، يمكننا رؤية طريقة عمل تدبير وقدر رب العالمين، فيوسف عليه السلام انتقل من غلام صغير يقع ضحية لمكيدة أعدها له إخوته، فيباع كعبد، ويشب فى قصر الملك كعبد بعيداً عن أهله وعشيرته، ويقع فى فتنة أخرى تلقى به فى السجن، وفى السجن يلتقى برجل ويُؤول له رؤياه، أنه سيكون بعد ذلك ساقى الملك، وبالفعل يصبح الرجل ساقى الملك الذى يرى رؤية فيخبره هذا الساقى أن من سيوؤلها له هو يوسف، ومن ثم تدفع الأحداث يوسف أن يصبح عزيز مصر.

والمعنى من ذلك، أن الله يهيئ الظروف ويُعد بحكمته الأقدار، لتحقيق وعده ومراده فى خلقه، حتى وإن لم يفهم الخلق هذا الإعداد وهذا التدبير لحظة حدوثه إلا أن القاعدة، (والله غالب على أمره) ستعمل دائماً سواء فهم هذا الإنسان مُراد رب العالمين أم لم يفهم، والذى ينبغى على المؤمن فى ذلك أن يرضى بقضاء الله ويصبر ولا يستعجل الأحداث فهناك رب يدبر.

ولذلك فلا عجب أن يذكر الله القصة كاملة فى كتابة الكريم، وتكون قرآناً يتلى إلى يوم القيامة حتى يأخذ المسلمين بالعظة والعبرة، وأن تطمئن نفوسهم أن الله لا يُخلف وعده، وأن معونة الله ونصره لا محالة أتيه مهما طالت مدة الابتلاء.

ولا يظن أحد أن هذا التوفيق و التدبير وهذه المعونة من رب العالمين تكون للأنبياء فقط، كلا، وإقرأ قول الله تعالى فى ختام السورة الكريمة: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف: ١١١)، أى أن فى هذه القصص التى يقصها رب العالمين العبرة والعظة لمن لديه عقل فيعتبر بها، (**إنها حادثة من حوادث التاريخ قدمت مثلاً، والأمثلة لا تصلح أن تكون عبرة مالم تكن نموذجاً لقاعدة عامة، أو سنة ثابتة من سنن الله فى كونه، ولما كانت هذه الحادثة من هذا القبيل صح أن تكون عبرة**)[1].

(١) بصائر للمسلم المعاصر، د. عبد الرحمن الميدانى ص ٢٥٠

ثانياً: ابتلاء رسول الله موسى عليه السلام

قصة موسى عليه السلام من أكثر القصص فى القرآن تكراراً، وأكثرها أهمية فقد كررها رب العالمين عشر مرات، بينما ذكر اسم موسى عليه السلام فى القرآن ١٣٦ مرة.

ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فى مجموع الفتاوى، قال: وثنى قصة موسى عليه السلام مع فرعون؛ لأنهما فى طرفى نقيض فى الحق والباطل، فإن فرعون فى غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة، وموسى عليه السلام فى غاية الحق والإيمان من جهة أن الله كلمه تكليماً لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت.

وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار، فإن الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله، ولم يكن أيضاً للرسل من التكليم ما لموسى. فصارت قصة موسى عليه السلام وفرعون أعظم القصص وأعظمها اعتباراً لأهل الإيمان ولأهل الكفر. انتهى.

• ولأهمية القصة ولتوضيح بعض الابتلاءات الشديدة التى قد يتعرض لها المؤمنين سوف أستعرض معكم القصة على هيئة مشاهد سريعة لتوصيل معنيين:

الأول: أن التمكين لابد أن يسبقه أولا إعداد وتربية للمؤمنين تتناسب وحجم المهمة الضخمة التى ستلقى على عاتقهم.

الثانى: أن الذى يُدبر الأحداث هو الله، فيسوقها بحكمة قد يعجز البشر عن إستيعابها لحظة وقوعها، حتى تجتمع الأحداث معاً وتستقر فى مسارها الطبيعى بالنسبة لنا، فتظهر غاياتها وحكمتها، فيعلم البشر أنها لم تكن لتنتظم هكذا لولا تدبير وحكمة رب العالمين.

المشهد الأول:

- بنو إسرائيل[1] فى مصر قبل مولد موسى عليه السلام، مُضهدين، مقهورين، من قبل فرعون وجنده، وذلك لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه، فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب، الاعتقاد بإله واحد، وإنكار ألوهية فرعون.

ولذلك قال رب العالمين: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ (القصص: ٤)، إشارة على أن طغيان فرعون الأساسى وشدة ظلمه كانت واقعة على فئة من الشعب دون الفئة الأخرى، وهى الفئة التى إرتضت بالله رباً، ولم تنجرف إلى عبادة فرعون وموالاته فى ظلمه، كما فعل باقى الناس.

(فسامهم سوء العذاب، فكان يُذبح أبنائهم ويستحى نسائهم، وجاوز الحدود فى الظلم والطغيان، وساس البلاد سياسة غاشمة، ومما مَكّن له ذلك أن ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أى فرقهم فرقاً مختلفه، وأحزاباً متعدده، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء، كيلا يتفقوا على أمر ولا يجتمعوا على رأى ويشتغل بعضهم بالكيد لبعض، وبذلك يلين له قيادتهم، ولا يصعب عليه خضوعهم وإستسلامهم)[2].

- ملأ فرعون[3]: كانوا متلبسين بالفسق والظلم، خارجين عن طاعة الله، ومخالفين لأوامر دينه، ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ (القصص: ٣٢)

(هذا الملأ، وأتباع الطغاة عامة، يخدمونهم على طغيانهم وفجورهم طمعاً بما عندهم من متاع الدنيا، والطغاة يعلمون ذلك، ويعطونهم ما يريدون ليبقوا فى خدمتهم وتبعيتهم لهم)[4].

---

(١) إسرائيل: هو نبى الله يعقوب عليه السلام

(٢) تفسير المراغى، سورة القصص بتصرف

(٣) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاه، د. عبد الكريم زيدان، والملأ: الجماعة، وقيل أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم، الذين يرجع إلى قولهم (إنظر لسان العرب)

(٤) المرجع السابق

– جنـــد فرعون[1]: قال تعالى عن فرعون: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾ (الفجـر: ١٠ - ١٢) عن ابن عبـــاس رضى الله عنهما: الأوتاد، الجنود الذين يشدون له أمره.

إن فرعون ما كان يستطيع أن يطغى ويتجبر ويظلم الناس ويفسد فى الأرض لولا أنه يجد العون من أعوانه، وعلى رأسهم جنده وعساكره، وقد علم أعوان فرعون هذه الحقيقة وهى أنهم فى الحقيقة حُماته، وبهم يحكم ويبطش ويظلم، فقاموا هم أيضاً بالإستكبار والظلم والإفساد فى الأرض، قال تعالى عن فرعون وجنوده ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ (القصص: ٣٩).

– عامة الشعب: كانوا أيضاً متلبسين بالفسق يعيشون فيه ليل نهار ولذلك إستخف بهم فرعون وإســتخف بعقولهم فقال لهم ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ (غافر: ٢٩)، فلما إرتضوا أن يتحكم فيهم بعقله وحده، فلا يسمعوا غيره، وأن سبيل الهدى هو سبيله، زاد فى طغيانه فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ فكانوا تحته عبيداً يأتمرون بأمره ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ (الزخرف - ٥٤).

كان هــذا هو حال القــوم، ولكن أراد الله أن يبدل الحال، وأراد لبنى إســرائيل المستضعفين أن يكونوا أئمة للخير، ويكون لهم التمكين فى الأرض.

المشهد الثانى:

إن الله يدبــر الأمر بحكمته وعلمه، ولكن أكثر النــاس لا يعلمون حكمة الله فى أفعالــه وعواقبها المحمودة فى الدنيا والأخرة، ففــى الوقت الذى أخذ فيه فرعون بكل أســباب الحيطة والحذر والبطش والطغيان، حتى لا يفقد سيطرته على مُلكه، يأتى أمر الله من حيث لا يحتســب فرعون وجنده، ويســوق الله المولود الذى سيكون على يديه هلاك فرعون وجنده، فيتربى فى قصره وينام على فراشه ويأكل ويشرب

(١) المرجع السابق

من طعامه وشرابه، ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ (طه - ٣٩)، وهى إشارة أن الله غالب على أمره ولا راد لقضائه، ومهما اتخذ الظالم من وسائل الحيطة والحذر فإن تدبير الله سيغلب لا محالة.

المشهد الثالث:

أصبح موسى شاباً يافعاً شديد القوة، وفى وقت غفله من الناس، حيث من غير المعتاد دخول المدينة فى هذا الوقت (قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدى: وذلك نصف النهار)[1] دخل موسى المدينة، فوجد رجلين يتقاتلان، أحدهما من بنى إسرائيل والآخر قبطى من قوم فرعون، وإذ بالإسرائيلى يستغيث ويطلب النجدة من موسى، فما كان من موسى إلا أن إندفع غيظاً وغضباً على القبطى، فدفعه دفعة واحدة (بقصد الزجر) ولم يتحمل القبطى الدفعه فمات على الفور.

المشهد الرابع:

موسى خائفاً وجِلاً، أن يعرف فرعون وملئه أنه هو من قتل القبطى، فيبطش به فرعون، فصار يسير فى المدينة ذلك اليوم وهو ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وحدث ما كان يخشاه موسى وبلغ فرعون أن موسى هو من قتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل جنده للقضاء عليه.

ولكن بعناية رب العالمين جاء رجل ناصح لموسى من طريق أقرب، قائلاً، إن فرعون وبطانته يدبرون لك المكائد، يريدون أن يقتلوك، وأسدى إليه النصيحة أن يهرب سريعاً من هذه البلدة.

المشهد الخامس:

زاد خوف موسى، وخرج من فوره من مصر، يتلفت حوله خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدرى أين يتوجه، ولا أين يذهب، قائلاً ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص: ٢١)

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير

فهداه رب العالمين أن سار فى إتجاه مدينة مدين[1].

قال بن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيا، فسقطت نعلا قدميه من الجفاء[2].

وكان من عناية رب العالمين أن هيأ له عمل خير، ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ ﴾ (القصص: ٢٣ - ٢٤)

وبعد أن سقى موسى للفتاتين غنمهما، إنصرف إلى ظل شجره ليستريح وناجى ربه قائلاً: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ (القصص: ٢٤)

روى عن ابن عباس أن قال: لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شق تمرة، ولقد لصِق بطنه بظهره من شدة الجوع[3].

المشهد السادس:

يأتى الفرج لموسى بعد الشده، ويستجيب الله له، فتأتيه إحدى المرأتين تمشى فى شدة الحياء قائلة: إن أبى يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان وأسديت إلينا من المعروف.

فلما جاء موسى هذا الشيخ، حدثه بأمره مع فرعون وملأه فى كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد وتأمرهم على قتله وهربه منهم.

فأمنه الشيخ، قائلاً لا تخف قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة إذ لا سلطان لهم علينا[4].

وزاد على ذلك أن قال: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي

(١) مَديَن: اسم قبيلة من العرب القدماء فى شمال غرب الجزيرة العربية
(٢) قصص الأنبياء لابن كثير
(٣) تفسير المراغى سورة القصص
(٤) المرجع السابق بتصرف

ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨ ﴾(القصص: ٢٧ - ٢٨).

(لقد نقلت يد القدرة خطى موسى عليه السلام خطوة خطوة، منذ أن كان رضيعا فى المهد حتى هذه الحلقة، ألقت به فى اليم ليلتقطه آل فرعون، وألقت عليه المحبة فى قلب امرأته لينشأ فى كنف عدوه، ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفسا، وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ليحذره وينصحه بالخروج منها، وصاحبته فى الطريق الصحراوى من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استعداد، وجمعته بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر، ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف.

هذا خط طويل من الرعاية والتوجيه، ومن التلقى والتجريب، قبل النداء وقبل التكليف.

تجربة الرعاية والحب والتدليل، وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس، وتجربة الندم والتحرج والاستغفار، وتجربة الخوف والمطاردة والفزع، وتجربة الغربة والوحدة والجوع، وتجربة الخدمة ورعى الغنم بعد حياة القصور، وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة، والمشاعر المتباينة، والخوالج والخواطر، والإدراك والمعرفة، إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة.

إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات، يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق فى واقع الحياة العملى، إلى جانب هبة الله اللدنية، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير.

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر (عدا رسالة محمد ﷺ)، فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر، أعتى ملوك الأرض فى زمانه، وأقدمهم

عرشا، وأثبتهم ملكا، وأعرقهم حضارة، وأشدهم تعبداً للخلق واستعلاء فى الأرض.

وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمرأوا مذاقه، فمردوا عليه واستكانوا دهرا طويلا، والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن، ويذهب بما فيها من الخير والجمال، فاستنقاذ قوم كهؤلا ء عمل شاق عسير.

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة، انحرفوا عنها، وفسدت صورتها فى قلوبهم، فلا هى قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة، ولا هى باقية على عقيدتها القديمة، ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة، والالتواءات فيها والرواس والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسرا.

وهو فى اختصار مرسل لإعادة بناء أمة، بل لإنشائها من الأساس، فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعبا مستقلاً، له حياة خاصة، تحكمها رسالة، وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير.

ولعله لهذا المعنى كان عناية القرآن الكريم بهذه القصة، فهى نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة، وما يعترض هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية، وما يعتوره من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل)[1].

وكما هيئ الله تعالى الأحداث ليوسف عليه السلام ابتدأ ببيعه كعبد فى مصر، إذ برب العالمين يُهيئ الأحداث لموسى عليه السلام فى أرض مدين، ليُعده لتحمل تبعات الرسالة التى ستُوكّل إليه بتبليغ دين رب العالمين وما يترتب على ذلك من مواجهة جبروت الظالم وطغيانه فجعل الله فترة العمل أجيراً (عشر سنوات) لتفصل بين حياة الرفاهية التى نشأ وترعرع فيها موسى عليه السلام، وحياة الجهد والجهاد فى الدعوة وتكاليفها الشاقة التى تنتظره بعد ذلك.

(فلما أن استكملت نفس موسى عليه السلام تجاربها، وأكملت مرانتها ودربتها، بهذه التجربة الأخيرة فى دار الغربة، قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائدة به إلى مهبط رأسه، ومقر أهله وقومه، ومجال رسالته وعمله، سالكة به الطريق

(١) فى ظلال القرآن سورة القصص

التى سلكها أول مرة وحيدا طريدا خائفا يتلفت، فما هذه الجيئة والذهوب فى ذات الطريق؟ إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق، الطريق الذى سيقود فيه موسى خطى قومه بأمر ربه، كى يستكمل صفات الرائد وخبرته، حتى لا يعتمد على غيره ولو فى ريادة الطريق فقومه كانوا فى حاجة إلى رائد يقودهم فى الصغيرة والكبيرة، بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير، حتى فقدوا القدرة على التدبير والتفكير، وهكذا ندرك كيف صنع موسى على عين الله، وكيف أعدته القدرة لتلقى التكليف)[1].

المشهد السابع:

بعد أن قضى موسى الأجل الذى بينه وبين صهره، عزم على الرحيل إلى مصر، فلما سار بأهله ضلوا فى طريقهم، فلم يهتدوا إلى الطريق المألوف، وكان ذلك فى ليلة مظلمة باردة.

وبينما هم فى الظلام والبرد، إذ أبصر عن بعد ناراً فى جانب الطور ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (القصص - ٢٩)

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ (طه: ١١ - ١٣)

وتلقى موسى الرساله من رب العالمين: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ (طه: ١٤ - ١٦)

المشهد الثامن:

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ (النمل - ١٠)

يبدأ التدريب العملى لموسى عليه السلام للتغلب على الخوف البشرى الطبيعى،

(١) المرجع السابق

وتدريبه على الثبات و السيطرة على انفعالاته البشرية فى المواقف الحرجة، فيكون ثابت وصلب فى مواجهة الظالمين.

قال تعالى: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ **(النمل - ١٠).**

وقال: ﴿ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤ ﴾

(طه: ٢١ - ٢٤)

وهنا، فى موقف التشريف والتكريم لموسى عليه السلام، أن اختاره رب العالمين ليكون رسولاً بإذنه إلى بنى إسرائيل، يطلب موسى أن يكون أخوه هارون شريكه فى الأمر ليشد أزره ويكون عوناً له فى مواجهة فرعون.

لم تتمرد نفس موسى عليه السلام أن يكون له الفخر كاملاً أن إجتباه الله ليكون رسوله، بل كان هم الدعوة إلى الله أولى، والعمل على تحصيل المنفعة فى سبيل ذلك أولى من أن تفتخر نفسه أن أصبح رسول الله.

وحاشا لله أن يجتبى من كان فى نفسه مرض حب الظهور وحب السلطه، وهى رسالة للدعاه، أن هم الدعوة والعمل لها أولى من حظ نفسه وفخرها وشرفها أن تكون فى الطليعة أو فى المقدمة.

﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ ﴾ **(طه: ٢٩ - ٣٥)**

المشهد التاسع:

موسى وهارون ينطلقا إلى فرعون، فيقولا: ﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧ ﴾ **(الشعراء: ١٦ - ١٧).**

وبالطبع فرعون المتكبر الظالم، يجادل موسى فى رسالته، ويسخر منه، بل ويهدده بالسجن إن لم يخضع له ولسلطانه، فيقول: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾ **(الشعراء - ٢٩).**

فيقول موسى عليه السلام: ﴿ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴾ **(الشعراء - ٣٠)،** ﴿ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ

ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الشعراء: ٣٢ - ٣٣)، عندما رأى فرعون هذه الآية لم يؤمن بموسى عليه السلام ورسالته، بل إستكبر وإتهمه أنه ساحر وما جاء إلا ليخرج أهل البلاد من ديارهم وذلك حتى تكون له ولأخيه العزة والسيادة.

وإستشار فرعون الملأ (الفاسقين) ماذا سنفعل مع موسى؟؟؟

﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

(الشعراء: ٣٦ - ٣٧).

﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾: إذا كان فرعون على الكبر والطغيان الذى ذكرته سابقاً، وإذا كان ملاءه وجنده على نفس الشاكلة.

- لماذا إذا ترك المجال لموسى عليه السلام ليتكلم ويُحاجه؟!
- لماذا أيضاً قالوا له هذه العبارة، أرجه وأخاه؟! بل وقبل فرعون التحدى فى يوم الزينة.
- لماذا لم يأمر جنده بالقبض على موسى وإيداعه فى السجن، فى الوقت الذى كان أمر رسالة موسى عليه السلام ما زال فى بدايته ولم يلق التأييد الكبير من عامة الناس؟

إنه التضليل: ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ (الفيل: ٢)، فالله هو المُدبر، يسمع ويرى، هم ظنوا أنهم بقبولهم التحدى ضد موسى عليه السلام سيعلوا نجمهم أكثر، وسيكون لهم الكبرياء أكثر، وتكون هزيمته عبرة لغيره، وزيادة فى مكانة فرعون وسطوته.

ولكن إستدراج رب العالمين لهم كان بالمرصاد، وفى الوقت الذى ظنوا أنهم أتقنوا المكيدة، كان الله المُدبر يُثبت قواعد التمكين لموسى عليه السلام والمستضعفين من أتباعه.

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ (النازعات :٢٢)، أى إجتهد فرعون وسعى فى عمل المكائد ليبطل الحق الذى جاء به موسى عليه السلام.

المشهد العاشر:

يوم الزينة، يوم عيد للشعب يحتفلون فيه، وكان الميعاد (فى ضحوة من النهار، ليكون الوقت أظهر وأجلى وأبين وأوضح للحق، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بيّن

واضح ليس فيه خفاء، ولذا لم يقل ليلاً، ولكن نهاراً ضحى فى مكان سُوى، أى مكان حالنا فيه سواء)[1].

وجمع فرعون السحرة ووعدهم بالأجر العظيم إن كانوا هم الغالبين، واصطف الناس من عامة الشعب ليروا هذا التحدى العظيم.

وألقى السحرة حبالهم وعصيهم، وقالوا ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الشعراء: ٤٤)، ومن شدة سحرهم، خُيل للناس، ولموسى عليه السلام أنها تسعى وتتحرك: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ (طه - ٦٧).

ولكن! كان الله هناك يسمع ويرى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ ﴾ (طه: ٦٨ - ٦٩).

ولم يتمالك السحرة أنفسهم أن رأوا هذه الآية من رب العالمين، وهم أصحاب العلم والخبرة فى السحر وعلومه، فخروا ساجدين مؤمنين بالله ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الشعراء: ٤٦ - ٤٨).

- كانت المناظرة قوية فى يوم الزينة، بين أهل الحق والحجة الظاهرة الساطعة، وبين أهل الباطل الذين ألبسوا الباطل ثوب الحق، وهيأوا لأنفسهم مُلكاً زائفاً بنوه على الخداع والغش والكذب والاستخفاف بعقول الناس ولذلك ولأن الله ناصر الحق لا محالة على الباطل، كانت نتيجة المناظرة ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١١٨)، ظهر الحق عياناً للناس وانكشف خداع فرعون وسقط قناع القوة والسلطة الزائف الذى كان يرتديه لإرهاب شعبه ﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١١٩).

المشهد الحادى عشر:

ينتفض فرعون، ويقول: ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ (طه - ٧١).

﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾: إنه الكبر الذى طمس على بصيرته فجعله يظلم ويطغى، فهو

(١) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاه، ص ٢٢٥

يرى أنهم ليس لهم من أمر أنفسهم شيئاً، فمن يخضع لحكم فرعون لا يستطيع أن يفعل ما يشاء، أو أن يقول ما يشاء، بل ما يأمر به فرعون، وما يحكم به فرعون هو ما يُنفذ وفقط.

ثم يتهمهم علانيةً أنهم دبروا هذه المكيدة لإحراجة ولتنفيذ خطة موسى لإخراج أهل البلاد منها، فيقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ (الأعراف: ١٢٣).

ويتوعدهم فرعون بأفظع عقاب ممكن: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الشعراء - ٤٩).

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ (طه - ٧١).

ولكن السحرة الذين ءامنوا، بقلوب مطمئنة بالله راضية بقضائه، قالوا: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ (الشعراء: ٥٠ - ٥١).

المشهد الثانى عشر:

فرعون يتلمظ من الغيظ، ويقول للملأ ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ (غافر: ٢٦)، يريد أن ينتقم من موسى فقد أهانه على أعين الناس وحطم سمعته، وهزمة شر هزيمة وهو المتكبر الذى يرى تحت يديه مُلك البلاد، بل ويصل كبره أن يرى عظمته كعظمة الإله.

ولكن تبقى مُعضلة تواجه فرعون، وهى الطبيعة الشخصية لفرعون نفسه، فهو يميل إلى استعمال أقسى أنواع العنف ضد مُعارضيه أو من يُخالفه فى الرأى، ولكن وضع موسى عليه السلام يختلف، فله مكانة فى قلب الشعب، فهو القوى الأمين الذى تربى فى قصره، والذى إنتصر عليه إنتصاراً ساحقاً أمام الجموع، وبالتالى فإن إنزال العقاب الشديد بموسى ومن معه، أو قتله مُباشرتاً، له تبعات كبيرة، قد تُهدد مُلكه، وبالتالى كان لابد من وضع خطة تقضى على حب الناس و تعاطفهم مع موسى، وبالتالى تبرر القسوة التى سيتعامل بها ضد موسى ومن معه.

بمعنى كان لا بد من سبب مُقنع، لقتل موسى عليه السلام، وهذا السبب لابد أن يكون لـه القدرة على تغيير عواطف الناس، وتفتق ذهنه عن الفكرة الآتية: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ (غافر - ٢٦).

﴿يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ تساوى: تغيير نظام الحكم.

﴿أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ بمعنى: أن موسى سيسعى لنشر الذعر والفزع ويبث الفوضى الذى يؤدى إلى ضياع الأمن بين الناس.

والعجيب أن هذه الآية توضح مدى خوف ورعب فرعون، فمخاوفه من انتزاع مُلكه منه، بدأت تظهر بعض مؤشراتها، حتى وإن كانت ضعيفة فى بداياتها، إلا أن أول السيل قطرة، إن فرعون يخشى موسى ويخشى دعوته، ويمكن أن نطلق على هذه الظاهرة، ظاهرة الخوف المُتبادل، ففى الوقت الذى يظن الداعية إلى الله أنه ضعيف، قليل الحيلة، لا يملك من مقومات القوة شئ، ويعيش فى خوف من بطش الظالم وأعوانه، إلا أن هذا الظالم والذى نراه متكبراً، متغطرساً، يخاف أيضاً، خوف يصل إلى درجة الرعب، يخاف أن يُسلب مُلكة وتُسلب سلطته وقوته، ونرى رد فعل هذا الخوف فى شدة تعاملة وغلظته التى تصل إلى درجة القتل ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾، إذاً فالخوف مُتبادل، ولكن فى الوقت الذى يتطلع فيه المؤمنين إلى نصر الله فى الدنيا ورحمته فى الآخرة، فإن نار جهنم تنتظر فرعون فى الآخرة، وملكه الزوال والبوار فى الدنيا (وهذا ما حدث بالفعل).

وهناك شئ آخر بخصوص هذا الموقف، **لماذا اتهم فرعون موسى بهاتين التهمتين تحديداً؟!** تبديل الدين، ونشر الفساد.

أولاً: يلاحظ أن فرعون ادعى الألوهية، فكان الناس ينظرون إليه ويتعاملون معه من منطلق أنه من نسل الألهه، أو أنه هو نفسه إله، والمقصد أنه اخترع للشعب دين جديد يتوافق مع السلطة والقوة التى يريد أن يحصل عليها.

ثانياً: كان فرعون وملائه وجنده متلبسين بالفسق والفجور، والظلم الشديد.

وبالتالى فإن فرعون اتهم موسى عليه السلام بهاتين التهمتين لانه هو نفسه متلبس

بهما، هو نفسه يُطبق هاتين التهمتين على شعبه، وبالتالى فهو اتهم موسى بذلك من مُنطلق أنا أفعل ذلك، وأظنك تريد أن تفعل ذلك أيضاً، كما نقول نحن (يظن السارق أن كل الناس سارقون)، وعندما اتهم فرعون موسى بهاتين التهمتين، فإنه استخدم قوة منصبه، ومكانته، وخوف الناس منه ومن بطشه، لتحويل الكذب الذى يدعيه إلى حقيقة فى عقول الناس، فيظهر موسى عليه السلام ومن معه بمظهر المفسدون الذين يريدون للأرض الخراب.

المشهد الثالث عشر:

تتنزل الابتلاءات على فرعون وقومه، ما بين جدب وقحط ونقص من الثمرات: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٠)، حتى يتوبوا ويرجعوا عن طغيانهم، فما كان منهم إلا أن استكبروا، وأخذوا يطلقون الإشاعات أن هذا (النحس) هو بسبب موسى ومن معه، وأن الفقر والشدة التى هم فيها بسبب موسى ومن معه: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣١)

فزاد الله عليهم الابتلاء، آيات مفصلات من نكبات وشدائد تتنزل عليهم تباعاً ﴿ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ (الأعراف: ١٣٣)

والعجيب أنهم على الرغم من كل هذه الآيات إلا أنهم أصروا على استكبارهم، وكأن عقولهم كأن لم توجد، يسوقهم فرعون بظلمه وكذبه وعلوه فيستجيبوا، ويرسل الله لهم الآيات المفصلات ليؤمنوا به، فلا يؤمنوا، والله إنه لشئ عُجاب، ولكن هكذا الناس عندما تفقد الصلة بينها وبين الله بمعاصيهم، ولذلك استحقوا العقاب من رب العالمين.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (هود: ٩٦ - ٩٩)

المشهد الرابع عشر:

الخطة الخبيثة للقضاء على موسى وأتباعه:

الجـزء الأول من الخطة: يجمع فرعون الملأ ليتباحثوا فيما بينهم أمر موسـى: ﴿ قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ **(غافر: ٢٥-٢٦)، توصـل مـلأ فرعون إلى ضرورة قتل موسـى وقتل من يمكنهـم قتله من أتباعه وإضطهاد من يتبقى منهم، وذلك عن طريق إتهامه بهاتين التهمتين، كيف سيتم ذلك؟**

- يتدخل الملأ لزيادة شحنة الغيظ والغضب عند الناس ضد موسى عليه السلام واتباعه، ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ **(الأعراف: ١٣١).**

نعم إنتشـر الخبر بين الناس أن ما يحدث من بلاء وشـر هو بسبب شؤم موسى ومن معه وطار الأمر فى طول البلاد وعرضها، أن موسى عليه السلام هو سبب البلاء.

فتم اتهام موسى عليه السلام بالإتهامات الباطله، للتقليل من شأنه لدى الناس، فقالوا أولاً ساحر وقالوا مجنون، وقالوا مَهين ولا يكاد يُبين، وقالوا فقير ليس معه شيء.

وهـذا أيضاً ما قام به كفار قريش للصد عن سماع رسـول الله ﷺ وسماع القرأن، فقالوا سـاحر ومجنون وكانوا يتواصـون فيما بينهم، ويوصـون الناس بعدم سماع القـرآن (وهو صوت الحـق) فقالـوا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ **(فصلت: ٢٦)**

- الجـزء الأخير من الخطة: ولإكمال الخطة (كحبكـة أخيرة) لخداع الجموع الغافلـة، يأتى الملأ من قوم فرعون على أعين الناس يسـتنجدون بفرعون، فقد طفح الكيل من موسى وأتباعه، فلابد من إظهار قوة فرعون وسلطته عليهم:

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ ﴾**، ويظهـر المُنقذ، فرعون، الذى سـينقذ الناس مما هم فيه من شؤم وضنك وضيق معيشة وغيظ علـى موسـى ومـن معـه:** ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾

(الأعراف: ١٢٧).

وسبب أن الملأ أتى على أعين الناس بجموعهم ليطلبوا من فرعون قتل موسى هو تحريك عواطف جموع الناس، فالناس تحب التجمعات الضخمة، وفى الجموع يكون عقل الجمهور عقل واحد فيسهل التحكم فيهم، وغرس الأفكار فى عقولهم، وهو المطلوب فى هذه الحالة.

وبالفعل، وعدهم فرعون أن يجتث ذرية من آمن مع موسى، حتى ينتهوا فلا يبقى منهم أحد، وإفتخر بقوته وسطوته عليهم، فلن يستطيعوا أن يفسدوا فى الأرض (كما يدعى الملأ)، ولإثبات ذلك ولتثبيت الناس حتى لا يُفتنوا بموسى ومن معه، جعل يفتخر بإنجازات لم يقم بها ولم يفعلها، بل هى من نعم رب العالمين، وجعل يسخرمن موسى فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الزخرف: ٥١ - ٥٣)

وقد يسأل سائل، ما الدليل على أن الجزء الأول من الخطة كان بين فرعون وملأه فيما بينهم، بينما الموقف الأخير على أعين الناس؟

فى الموقف الأول: قال فرعون ﴿ذَرُونِيٓ﴾، يقول د. عبد الكريم زيدان: (هذه العبارة ليست من ألفاظ الجبابرة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم)[1] وفرعون كان عالياً مستكبراً فما كان ليقول هذه الكلمة على ملأ من الناس حتى لا تضيع هيبته وكبرياءه أمامهم.

بينما الموقف الأخير، موقف قوة واستعلاء وغضب، موقف إعلان قوة وسيطرة ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾، وهذا ما يحبه الجبابرة ويسعون لفعله، فكان موقف الواثق القادر على إنفاذ كلمته لذلك لابد أن يكون على الملأ.

(١) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ص ٢٣٠

المشهد الخامس عشر:

يصل الأمر لموسى بقول فرعون وتهديده، ويعلم قوم موسى أيضاً، فيحث موسى قومه على الصبر والثبات والإعتماد على الله.

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ **(الأعراف: ١٢٨).**

﴿ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ **(يونس: ٨٦)، (ولفظ فتنة هنا يحتمل معنى الفاتن والمفتون، فكأنهم قالوا: ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنا بهم فنتولى عن إتباع نبينا أو نضعف فيه فراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، فيظنوا أنهم على الحق، وأننا على الباطل)**[1]

وتوجه موسى إلى الله بالدعاء أن يهلك فرعون وملائه إنتقاماً منهم لإستكبارهم وظلمهم لأهل الحق فقال ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ **(يونس: ٨٨)**

ويؤمن هارون عليه السلام على دعائة وتأتى الإجابة من رب العالمين: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ **(يونس - ٨٩).**

(ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون): أى لا تستعجلون النصر على فرعون وملائه كالذين لا يعلمون سنن الله فى خلقه، فإن الله لا يخلف الميعاد وكل شئ عنده بمقدار.

ويلاحظ فى هذا المشهد شيئين:

١ – أن ملاء فرعون عندما قتل موسى عليه السلام القبطى، تشاوروا فيما بينهم لقتله

(١) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ص ٢٣٩

مُباشـرتاً، و يأتى الخبر لموسـى عليه السلام أنهم سـيأتون لقتله، وبالفعل لو بقى موسى عليه السلام لقتلوه، لأن هذه كانت نيتهم فى هذه اللحظة.

بينما عندما جائهم موسـى وهارون عليهما السلام وحدث التحدى العظيم على أعـين الناس، وآمن بموسـى ذُرية من قومه، هنا إختلف الأمر، فسـابقاً كان بمفـرده فلا ضير من قتله، أما الأن وهو ذو أتبـاع، وذو مكانة بين الناس فلا يُمكن قتله مُباشرة كان لابد من الحيلة حتى لا يؤدى قتله إلى أضرار كبيرة لمُلك فرعون كما سـبق وأشـرت، فنزلت يد بطش فرعون على المستضعفين من أتباع موسـى يقتل منهم ويُعذب منهم، حتى ينفضوا من حول موسـى فيبقى وحيداً كما بدأ فيسهل القضاء عليه، وعلى دعوته.

٢ – أن موسى عندما وصله الخبر أن الملأ يُريد قتله، بعد قتل القبطى خرج من مصر مُباشرتاً، هارباً مُستخفياً حتى لا يشعر به أحد.

بينما الأن، وبعد تكليفه بالرسـالة، يأتيه خبر أشـد، أن فرعون سـينتقم منه وسـينصب إنتقامه على أتباعه، يقتلهـم ويُعذبهم، حتى يرجعوا عن دينهم، وهو خبر أشـد، لأن المؤمن قد يرضى أن يُقتل هو شـخصياً ولا يتعرض أحد من مُحبيه أو مـن أتباعه إلى أذى، فما بالكم إن كان الرسـول يرى أتباعه يُقتلون ويُعذبون ولا يستطيع أن يحميهم أو ينصرهم.

وفى هذا الموقف نرى ثبات نفس موسـى عليه السلام، فهو لم يهرب كما فعل سـابقاً بل نرى الثبات فى قوله لقومه: (اسْـتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا)، وهذا من ثمار التربية التـى رباها له رب العالمين، وثمار إيمانه بدعوته وإنتظاره الفرج من الله بأن يحكم الله بينه وبين عدوه.

المشهد السادس عشر:

إسـتمر عناد فرعون وإستكباره، واستمر الملأ على إفسادهم وعصيانهم، ولم يبق لهم بعد الحجج والبراهين والأيات التى جاء بها بموسـى إلا وقوع العذاب عليهم

بعد طول إمهال، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج بقومه بنى إسرائيل من مصر، وأن يسير بإتجاه البحر.

وعلم فرعون بخروج موسى وقومه، فأرسل سريعاً بجمع الجند من أنحاء البلاد، فلما تكامل جمعهم، سار بهم يريد اللحاق بموسى ومن معه، فلما تقارب الجمعان، فرعون وجنده، وموسى وقومه، بحيث صاركل فريق يرى الفريق الأخر وذلك وقت شروق الشمس على ساحل البحر.

ففزع قوم موسى ونظروا إليه وقالوا ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (الشعراء: ٦١).

وينطق اليقين فى قلب موسى عليه السلام أن: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء - ٦٢)، ظهرت ثمار التربية التى رباها الله لموسى عليه السلام فلقد إختفى الخوف من نفسه، فبعد ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ (النمل - ١٠) إبتدأ، وبعد ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾(طه: ٦٧)، الأن، كَلاَّ إن معى ربى سيهدين.

إنها تربية العليم الحكيم لعباده المؤمنين، تربية رب العالمين الخبير بالنفوس البشرية لحملة راية التوحيد، التربية على اليقين أنه معهم ناصرهم لا محاله حتى لو كانوا قاب قوسين أو أدنى من الهلاك.

ويأتى الأمر الإلهى لموسى عليه السلام: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء: ٦٣)، ويأتى رب العالمين بكلمتين متتاليتين، تدلان على سرعة الإستجابة، ﴿ فَأَوْحَيْنَآ ﴾ ﴿ فَٱنفَلَقَ ﴾، وهكذا لا يترك الله عباده المؤمنين إلا ويكون النصر الفورى معهم.

المشهد الأخير:

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الزخرف: ٥٥ - ٥٦)

(أى مثلا يُعتبر به ويقاس عليه غيره، فمن عمل بمثل عمله جوزى بجزائه، ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف - ١١١)، والإعتبار، أن يقرن الشئ

بمثلــه فيعلم أن حكمه مثل حكمــه، والمقصد أن من عمل مثل أعمالهم، جوزى مثل جزائهم، ليحذر أن يعمل مثل عمل الكافرين، فمن كان من أهل الإيمان قيس بهم، وعلم أن الله يســعده فى الدنيا والخرة، ومن كان من أهل الكفر قيس بهم، وعلم أن الله يشقيه فى الدنيا والأخرة) ((١)).

وتتضح فى قصة موســى عليه السلام سنة من ســنن الله التى لا تتبدل ولا تتغير وهى: (أن الله عز وجل يبدأ مُعالجة الأمم قبل إهلاكها إهلاكاً شــاملاً بإبتلائها بالبأســاء والضراء، والمصائب والمكاره الجزئية، رغبة فى أن يتضرعوا مُســتغفرين وتائبين، سائلين الله أن يكشف عنهم ما نزل بهم مما يكرهون، وبإبتلائها بالبأساء والضراء تنبيــه لها وإنذار، فــإن تابوا وأصلحوا رفع الله عنهم ما أنــزل بهم من إبتلاءات، وإن لم يرجعــوا عن بغيهم وظلمهم، رفع الله عنهم ما أنزل بهم من مصائب جزئية وأمهلهم مُدة من الزمن، ثم باغتهم بالتعذيب والإهلاك الشاملين، قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥ ﴾ (الأعراف: ٩٥ - ٩٤).

البأساء: الجوع، والمشقة، والفقر، وضنك العيش، والحرب.

الضراء: الشدة، وكل حالة تضر فى الأموال والأنفس) ((٢)).

والأن ما هى الابتلاءات التى تعرض لها رســول الله موســى عليه السلام، حتى نأخذ منها العبرة:

١ - ابتلاء النعمة:

فموسى عليه السلام نشأ فى قصر فرعون حيث الترف والرفاهية، ففرعون كان الحاكم الأوحد، أمره مُطاع وســلطانه نافذ، وعلى الرغم من ذلك فقد ترك موســى كل ذلك

(١) التفسير الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج١ بتصرف

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر، د. عبد الرحمن الميدانى سورة الأعراف (٥ / ٤٥٨)، بتصرف

وإتجــه إلى عبادة الله مثل قومه بنى إســرائيل، وكان قلبه معهم، ولذلك نجده أنه عندمــا دخل المدينة ووجد رجلين يقتتلان، أخــذه الغضب من القبطى، (وسماه الله عدوه، للدلالة على مقدار الغيظ والغضب)، فدفعه دفعة واحدة قضت عليه.

والمقصد: لا تجعل أموالك وسلطانك والرفاهية التى تجدها فى حياتك عائق بينك وبين إرتباطك الوثيق بمنهج الله، بل إجعل الله ورســوله أحب إليك مما ســواهما، هكذا تحقق الإيمان بالله.

٢ - ابتلاء تكفير السيئات:

لقد قتل موسى عليه السلام رجلاً ولم يكن يريد ذلك، ثم ندم بعد ذلك وأصابه الغم على فعلته، فدعا رب العالمين أن يغفر له، وأخذ العهد على نفســه أن لا يُظاهر معتدى أبداً (ويفهم من ذلك أن الرجل من بنى إســرائيل كان هو المعتدى على القبطى ولكن ظن موسى عليه السلام العكس فدفع القبطى فقتله).

المقصــد: مهمــا كان الذنب الــذى ترتكبه، لا تقطع أبداً صلتــك بالله وتيأس من رحمته، بل تب وإرجع سريعاً فسيقبلك الله الذى قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء - ٤٨).

٣. ابتلاء الدعوة وابتلاء الصبر:

ففــى دعوته إلى الله كان لا مفر من مواجهة فرعــون وتحديه، وما يتبع ذلك من تســلط فرعــون وغضبه وإنتقامه، فكان لابد أن يصبر علــى الابتلاء وأن يثبت على طريقه فلا يلين ولا يستكين.

٤. ابتلاء التمكين:

فلقد أصيب موسى وقومه على يد فرعون وجنده أصناف كثيرة من الألام والمعاناة، غير تقتيل الأبناء وإســتحياء النســاء، ووصلت أعلى درجات زلزلة نفوســهم فى قولهم لموســى عليه السلام (إنا لمدركون)، فهم يعلمون أن فرعون لو لحق بهم لأباد طائفة

منهم وعذب الباقين أشد العذاب، وصبروا حتى جائهم نصر الله ودمر ما كان يصنع فرعون وملأه.

إن قصة موسى عليه السلام لها أهمية عظيمة فى حياة الأمة الإسلامية، فهى تبين طبيعة الطريق الذى سوف تسير فيه الأمة الإسلامية إن أرادت أن تنهض من كبوتها لتسود العالم بتعاليم الإسلام التى أنزلها الله فى كتابه، ولقد رأينا فى سنة رسول الله ﷺ هذه الصور جميعاً من الابتلاءات وكيف وصلت إلى أشدها فى غزوة الخندق.

ولم تنتهى قصة موسى عليه السلام عند هذا الحد، بل كان هناك أنواع أخرى من الابتلاءات مع قومه حتى يسيروا على منهج الله ولكنى أكتفى بما ذُكر سابقاً خوفاً من الإطالة.

ثالثاً: ابتلاء الصحابة فى غزوة الخندق

كعادة اليهود فى الغدر والخيانة وفى حياكة المؤامرات، فقد ساءهم أن يستقر المسلمون فى المدينة بعد غزوة أحد، وطرد قبائل من اليهود نتيجة خيانتهم إلى حصن خيبر، فشرع اليهود لتدبير مكيدة تستأصل المسلمين، وتقضى عليهم تماماً، فخرج من زعمائهم عشرون رجلاً، ذهبوا إلى مكة لمقابلة سادات قريش ليحرضوهم على غزو رسول الله ﷺ وتدمير المدينة، ووعدوهم بأنهم سيكونون معهم وينصرونهم، فوافق زعماء قريش فهم أيضاً يتحرقون ضد المسلمين، ثم إنطلق بعد ذلك وفد اليهود يطوف فى قبائل العرب يدعوهم ويجمع كلمتهم لمحاربة المسلمين، فإستجاب لهم خلق كثير، وتجمع من قبائل العرب جيش عظيم وصل عدده إلى عشرة آلاف مُقاتل، مُدججين بالسلاح، وبمقاييس هذا العصر، كان العدد هائلاً، ربما يزيد عن عدد كل أهل المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ.

وصلت الأنباء إلى رسول الله ﷺ فى المدينة بالخبر، فسارع الرسول ﷺ إلى عقد مجلس الحرب لإستشارة الصحابة فى طريقة الدفاع عن المدينة، فإتفقوا على رأى سلمان الفارسى رضى الله عنه، بحفر خندق حول المدينة يمنع الجيش المعتدى من العبور.

كانت الفكرة ممتازة وجديدة لا يعرفها العرب، وبالتالى ستكون مفاجأة عظيمة للمعتدين تكسر حماستهم للقتال، وتردعهم عن محاولتهم إقتحام المدينة، وبدون قتال مباشر بين هذا الجيش العظيم وجيش المدينة الذى كان يبلغ ثلاثة ألاف مُقاتل، فتحرك رسول الله ﷺ على وجه السرعة مع مجموعة من صحابته لإستطلاع أطراف المدينة لتحديد المكان المناسب لحفر هذا الخندق، وتم تحديد الجانب الشمالى منها، وذلك لأن الجوانب الأخرى محمية بحماية طبيعية تمنع الجيش من النفاذ من خلالها، بالإضافة إلى أن منطقة الجنوب الشرقى للمدينة محمية بديار بنى قريظة(وهم يهود على عهد مع رسول الله ﷺ بالدفاع المشترك عن المدينة ضد أى مُعتدى)، وقد أرسل إليهم رسول الله ﷺ رسالة لتأكيد العهد معهم، وليكون

على يقين أنهم لن يخونوا عهدهم فينفذ جيش المشركين من خلال ديارهم لمهاجمة المدينة، فأكدوا أنهم على العهد.

أصدر رسول الله ﷺ قراراً بحفر الخندق شمال المدينة ليغلق المسافة بين الهضبة الشرقية والهضبة الغربية (الحرة الشرقية[1] والغربية)، الموجودتين على جانبى المدينة، وتم ذلك بإستخدام أدوات الحفر البسيطة كالمعول وغيره، فلم تكن هناك وسائل حفر حديثة، وبالنظر إلى طبيعة الأرض الصخرية، وأنه يجب تنفيذ الحفر فى فترة زمنية محددة قبل هجوم جيش المشركين وإلا ضاع كل المجهود هباء، فإن المهمة لم تكن سهلة، ولكن قام المسلمين بجد ونشاط بتنفيذ الحفر يساعدهم فى ذلك رسول الله ﷺ بنفسه، فكان يحمل التراب الناتج عن الحفر وينقله على كتفه، وكان يشجعهم ويشد من أزرهم، فعن أنس رضى الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخره فاغفر للأنصار والمهاجره.

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً[2]

وكان يردد معهم الأناشيد الحماسية لتشجيعهم على العمل فكان يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة رضى الله عنه، وهو ينقل من التراب، يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الإلى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا[3]

(١) هضبة طويلة ممتدة شرقى المدينة، فيها مجموعة تلال، وفيها أراضٍ منبسطة، وجزءاً كبيراً من سطحها مغطى بصخور وحجارة بركانية سوداء تجعلها شديدة الحرارة فى الصيف

(٢) رواه البخارى كتاب المغازي

(٣) رواه البخارى كتاب المغازي

وزاد على شدة التعب من الحفر ساعات طويلة يومياً، ما عاناة الصحابة من شدة الجوع، فقد أخبر أنس رضى الله عنه عن حال طعام أهل الخندق فقال: يؤتون بملء كفى من شعير، فيصنع لهم بإهَالَة سَنِخَة[1] توضع بين يدى القوم، والقوم جياع، وهى بشعة فى الحلق ولها ريح مُنتن[2].

ومن شدة الجوع كان صحابة رسول الله يربط أحدهم حجر على بطنة ليقلل من أثر الجوع، وعندما إشتكى بعضهم لرسول الله ﷺ ذلك، كشف عن بطنه فإذا هو يربط حجرين من شدة الجوع.

أحاط بالمسلمين فى فترة الحفر ابتلاء شديد بين جوع وبرد وخوف من قدوم الأعداء، وتعب وإرهاق جسدى شديد، إلا أنهم صبروا مع رسول الله ﷺ، فما وهنوا وما إرتدوا على أعقابهم، وإكتمل حفر الخندق حسب البرنامج المُعد وقبل أن يصل جيش المشركين.

ثم أقبل جيش المشركين، ولندع رب العالمين فيصف لنا المشهد العظيم فيقول تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ (الأحزاب:١٠ - ١٣)، ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب - ٢٢).

جاءت جيوش الكفر بحدها وحديدها تُريد إستئصال المسلمين، وكان لمجيئها وقع عظيم على نفوس المسلمين، وزلزلوا زلزالاً شديداً فظهرت حقائق ما فى أنفسهم.

---

(١) (فيصنع لهم الشعير) أى يطبخ، وقوله (بإهالة): الدهن الذى يؤتدم به سواء كان زيتا أو سمنا أو شحما. وقوله (سنخة) أى تغير طعمها ولونها من قدمها ، ولهذا وصفها بكونها بشعة، المعانى من فتح البارى شرح صحيح البخاري

(٢) رواه البخارى كتاب المغازي

من فوقكم: من قبل نجد و موقعها الجغرافى موقع علو بالنسبة للمدينة.

ومن أسفل منكم: من مكة وموقعها الجغرافى منخفض بالنسبة للمدينة.

زاغت الأبصار: (الإضراب النفسى الذى أحدثه الخوف الشديد، جعل الأبصار تزيغ، والبصر متى زاغ فسدت رؤيته فرأى غير الحقيقة، وجعل الأفكار تضطرب، ومع الإضطراب تأتى الأوهام، وتأتى واردات الظنون الباطلة)[1].

وبلغت القلوب الحناجر: تعبير أدبى رفيع فى وصف حالتهم، ويبدو فيه أن المبالغة أحد عناصره الكبرى، فهو تعبير مُطابق لمشاعرهم بصدق فنى كامل، إذ هو يكشف حالة مشاعر أنفسهم بصدق، إن الخائف الذى يمسه الذعر الشديد، يشعر بأن قلبه قد إنشمر مُنقبضاً إلى حنجرته، فيكاد يختنق، مع أن القلب لم يبرح مكانه فى الصدر[2].

وزلزلوا زلزالاً شديداً: أى أنهم تعرضوا لابتلاء شديد، هزهم هزاً عنيفاً، ووصل إلى أعماقهم فأخرج ما تُكن صدورهم من سرائر، فظهر إيمان المؤمنين، وظهر نفاق المنافقين.

وفى المقابل كانت مفاجأة عظيمة لجيش المشركين أن يروا مثل هذا الخندق وقد جالت فى خواطرهم الأمال والأحلام بأنهم من القوة أنهم يستطيعون أن يقضوا على المسلمين، لقد إستعد المسلمون جيداً، وأعدوا أنفسهم لتحمل هذه الهجمة الشرسة من أعداء الله وأعداء أولياءه.

لم يستطع جيش المشركين عبور الخندق فضربوا الحصار حوله أملاً أن يجدوا ثغرة يستطيعون منها النفاذ إلى الجانب الأخر، وفى هذا الوقت كان رسول الله ﷺ وصحابته الكرام على الجانب الأخر من الخندق يحاولون حمايته حتى لا يأخذهم

(١) بصائر للمسلم المعاصر ١٠٨ د. عبد الرحمن الميدانى

(٢) ظاهرة النفاق (١ / ٣٩٣) د. عبد الرحمن الميدانى

المشركين على غرة، وكان شعار المسلمين (حم لا يُنصرون)[1]، بينما بقى فى المدينة النساء والأطفال وإستخلف عليهم عبد الله بن أم مكتوم.

إستمرت حملات المشركين حول الخندق تبحث عن ثغرة للعبور، أو مكان يستطيعون ردمه بعيداً عن أعين المسلمين فيكون وسيلة للعبور، إلا أن المسلمين كانوا مُتيقظين لذلك ليلاً ونهاراً، يرشقونهم بالسهام، حتى لا يجترئوا على الإقتراب من الخندق، ومن شدة إنشغال المسلمين فى رد هجمات وحملات المشركين لعبور الخندق، فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين، ففى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، جاء يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش، فقال: يا رسول الله ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب، فقال النبى ﷺ: (والله ما صليتها)، فنزلنا مع النبى ﷺ بطلحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب.

وفى مسند أحمد والشافعى أنهم حبسوهم عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فصلاهن جميعاً، قال النووى: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياماً فكان هذا فى بعض الأيام وهذا فى بعضها[2].

ولم يتوقف الأمر على هذا الهجوم الشرس القوى من الكافرين، بل كان هناك تخزيل المنافقين وتفريقهم لوحدة الصف المسلم، بالإضافة إلى خيانة اليهود لعهدهم مع رسول الله ﷺ.

• تخزيل المنافقين: عندما عظم البلاء وإشتد الخوف، أظهر الله ما فى قلوب المنافقين: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾، هذه المقولة قالها المنافقون لتشكيك المسلمين فى دينهم وفى رسولهم ﷺ، فهم فى باطن الأمر كافرون بالله وبرسوله ﷺ، ولذلك ليس غريباً أن يسعوا لتشكيك المسلمين فى دينهم، وقد أخبر الله عن المنافقين فى موطن أخر أنهم: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا

(١) فى الحديث الصحيح (إِنْ بُيِّتْتُمْ فَلْيَكُنْ شِعَارُكُمْ حم لَا يُنْصَرُونَ)
(٢) الرحيق المختوم

خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ (التوبة - ٤٧).

وَلَأَوْضَعُوا: أى أفسدوا، وفى الشر والضر أسرعوا

فيقال لغة: أوضع الرجل بين القوم إذا أسرع فى الإفساد بينهم[1].

ثم نادت طائفة من المنافقين: ﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾، دعوة للتخلى عن رسول الله ﷺ والمؤمنين الصابرين المحتسبين معه، وهى تعبر عما يكنه قائلوها من نفاق وعدم إيمان وسعيهم الدائم لتفريق وحدة المسلمين، ويلاحظ هنا فلتات اللسان التى تعبر عما تكن صدورهم فهم قالوا ﴿ يَثْرِبَ ﴾، فى الوقت الذى كان رسول الله ﷺ قد غير هذا الإسم الجاهلى فأصبح المدينة المنورة.

وجاءت طائفة أخرى تريد الفرار، ولا يرون جدوى من بقائهم (فهم غير مؤمنين بالله ورسوله أساساً)، فجاءوا ليستئذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾، أى أن بيوتهم عُرضة للسرقة والنهب لأنها ليست محروسة ولا مُحصنة، ولكن الله يكشف كذب زعمهم، ويفضح سريرتهم، فأنهم إنما يقولون ذلك أملاً فى الهرب ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾.

• تخزيل ضعيف الإيمان:

بعض من المؤمنين، ضعيف الإيمان، ولا بصيرة له بالأمور، فيُحسن الظن بالمنافقين، فيجعله ذلك يُلقى السمع لإشاعات المنافقين: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٤٧)، وهذا الصنف من ضعيف الإيمان يستسلم سريعاً للإرتياب والشك، ويتلقى الشائعات وينشرها، وفى هذا خطورة شديدة على الصف المؤمن، لأن ترديد ضعفاء الإيمان لكلام المنافقين قد يؤدى إلى خوف عام يصيب الناس جميعاً، فالخوف مثل العدوى التى تنتشر سريعاً بين الناس.

• خيانة اليهود:

فى الوقت الذى كان فيه المسلمون يواجهون هذه الشدائد بين تخزيل المنافقون

(١) ظاهرة النفاق (٢ / ٢٤٥)

وهجوم المشركين، والتعب والجوع، والخوف، إذ باليهود كما هى عاداتهم ينقضون عهد رسول الله ﷺ، فقد كان هناك مُعاهدة دفاع مُشترك بين بنى قريظة من اليهود ورسول الله ﷺ، فكان يجب عليهم نُصرة رسول الله ﷺ، ولكنهم على العكس من ذلك فقد قاموا بإلغاء المُعاهدة من طرفهم فى هذا الوقت العصيب، وزادوا على ذلك أن تحالفوا مع الجيش المُعتدى، فبعثوا رجل منهم يطوف بالمدينة حيث المكان الذى يتحصن فيه نساء المسلمين وأطفالهم، حتى ينظرون كيف يستطيعون النفاذ، ولم يكن هناك من حامية تحمى نساء المسلمين، ورسول الله ﷺ وصحابته مشغولون فى الدفاع عن الخندق، فما كان من صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ رضى الله عنها، إلا أن هاجمت هذا اليهودى وقتلته، وبذلك فقد حمت إمرأة واحدة بشجاعة فائقة نساء المسلمين، وحمت أيضاً مؤخرة جيش المسلمين الذين لم يتوقعوا خيانة من جيرانهم اليهود، ونتيجة لقتلها هذا اليهودى فقد ظن اليهود أن هناك حامية فى المدينة هى التى قتلت هذا الرجل وبالتالى لم يُرسلوا غيره لإكتشاف الأمر.

ولما سمع رسول الله ﷺ بخبر بنى قريظة، أرسل مجموعة من صحابته، ليأتوا له بالخبر اليقين، وقال: (إنطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فألحنوا لى لحناً أعرفه، ولا تفُتوا فى أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس)، فلما ذهب هذا الرهط من الصحابة وجدوا اليهود على أخبث ما يكونوا، فقد جاهروا بالسب والعداوة لرسول الله ﷺ، وقالوا من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد، فانصرفوا عنهم، وعندما أقبلوا على رسول الله ﷺ قالوا له قولاً يُفهم منه الخيانة، فقالوا: عضل وقارة (أى أنهم غدروا مثل غدر قبيلتى عضل وقارة بصحابة رسول الله سابقاً).

ولكن مثل هذا الخبر العظيم كان من الصعب إخفاءه، فعلم المسلمون ما كان من غدر بنى قريظة، فأصبحوا كما يقال بين المطرقة والسندان، جيش المشركين من أمامهم، وبنى قريظة من خلفهم، ومهما قلنا من كلام فلن نستطيع أن نصف حالة الخوف والشدة التى ضربت المسلمين فى هذا الوقت العصيب مثل ما قال تعالى

عنهم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾، إشتد البلاء على المسلمين وأحاط بهم من كل جانب، ولكن نصر الله قريب من المؤمنين، بشرهم رسول الله ﷺ وقال: (الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، بفتح الله ونصره).

فهيأ الله لهم فى هذا الوقت رجلاً يقال له نُعيم بن مسعود رضى الله عنه، جاء مسلماً إلى رسول الله ﷺ، ولم يعلم قومه بأمره، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما إستطعت، فإن الحرب خدعة)، فإستطاع هذا الصحابى الكريم بمفردة أن يوقع الخلاف بين اليهود وبين جيش المشركين المعتدى، فدبت بين صفوفهم الفرقة وخارت عزائمهم، ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، إهزم الأحزاب، اللهم إهزمهم وزلزلهم)[1]، ودعا المسلمون أيضاً فقالوا (اللهم إستر عوراتنا، وآمن روعاتنا).

وعندما صبر المؤمنين، عندما جاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله، وبذلوا كل ما يستطيعون بدون ضعف او إستكانة، وعندما تم تنقية الصف المؤمن من المنافقين وظهروا عياناً للناس، جاء المدد وجاء النصر الربانى فى صورة ريح شديدة، لم تترك لجيش المشركين خيمة إلا إقتلعتها، ولم تترك لهم قِدراً إلا قلبته، ولم تترك لهم ناراً إلا أطفأتها، وعندما إشتد عليهم الأمر أخذوا قرار الرحيل وفك الحصار عن المدينة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، نعم لله الفضل والنعمة التى أنعمها على المؤمنين بالنصر بعد الشدة، والأمن بعد الخوف ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب - ٢٥).

روى الإمام مسلم فى صحيحة أن رجلاً قال عند حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت.

---

(١) رواه البخارى

فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر[1]، فقال رسول الله ﷺ (ألا رجل يأتينى بخبر القوم، جعله الله معى يوم القيامة؟) فسكتنا، فلم يجبه منا أحد.

ثم قال: (ألا برجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معى يوم القيامة؟) فسكتنا، فلم يجبه منا أحد.

ثم قال (ألا برجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معى يوم القيامة؟) فسكتنا، فلم يجبه منا أحد.

فقال: (قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم) فلم أجد بداً إذ دعانى باسمى أن أقوم.

قال: (اذهب فأتنى بخبر القوم ولا تَذْعَرْهُم علي)، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشى فى حمام[2]، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يَصلِى ظهره بالنار، فوضعت سهما فى كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله (ولا تذعرهم على) ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشى فى مثل الحمام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفَرَغْت، قُرِرْت، فألبسنى رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها، فلم أزل نائما حتى أصبحت، فلما أصبحت قال (قم يا نَومَان)[3].

نعم كان بالصحابة من الخوف الشديد والجوع، ما يمنعهم من أن يتحركوا من أماكنهم فضلاً أن يترك أحدهم مكانه، ويذهب فيتجاوز الخندق فى هذا الليل المظلم، والريح العاصفة، ويدخل مُعسكر المشركين ليأتى بخبرهم، ولقد ضمن رسول الله ﷺ الرجوع لمن سيذهب، بل وسيكون رفيقه فى الجنة، ولكن الخوف الشديد كان يغلب عليهم.

جاء النصر من عند رب العالمين بعد أن صبر المسلمين ما يقارب الشهر على حصار شديد من المشركين فى ظل برد وخوف وجوع، حتى يختبرهم رب العالمين

(١) برد، ومنها قوله قُررت، أى بردت (أحس بالبرد)

(٢) أى انه لم يشعر بالبرد، ولا بالريح الشديدة، فقد عافاه الله منهما ببركة إستجابته لأمر رسول الله ﷺ

(٣) رواه مسلم ١٧٨٨

وينقيهم من الـداء الموجود بينهم وهو فريق المنافقين، ويعدهم أيضاً لإنطلاقة قوية (الأن نَغزُوهم وَلا يَغزُونَنَا، نَحن نسير إليهم).

إنتهـى ابتلاء غزوة الأحـزاب، بنصر وتمكين من الله للمؤمنـين، ورد الله كيد المشركين، والكافرين، والمنافقين، فأفسـد تدبيرهم، وأبطل كيدهم، وجعل خيانة اليهود حسـرة عليهم، ولم يتم كل ذلـك إلا بصبر ومصابرة المؤمنين، ويقينهم بالله الذى لا يُضيع أجر من أحسـن عملاً، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب- ٢٥)، نعم الله قوى لا يغلبه غالب، فينصر من يشـاء، عزيزاً، فينتقم ممن يريد كيفما يريد وعندما يريد.

ولعل فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، إشارة للمؤمنين أن الغلبة والقوة والعـزة لله، مهما إجتمعت قوى الشـر، ومهما دبرت من خطـط ومكائد، وما على المؤمنين إلا أن يُحسـنوا الظن بالله، وأن يعملوا ما بوسـعهم حتى يسـتحقوا معونة القوى العزيز.

رابعاً: الابتلاء فى قصة أصحاب الأخدود

عن صهيب رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إنى قد كبرت، فابعث إلى غلاما أعلمه السحر.

فبعث إليه غلاما يعلمه، فكان فى طريقه، إذا سلك، راهب، فقعد إليه وسمع كلامه. فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسنى أهلى، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسنى الساحر.

فبينما هو كذلك، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرا فقال: اللهم، إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس.

فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أى بنى أنت اليوم أفضل منى، **قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتُليت فلا تدل علىَّ.**

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمع، إن أنت شفيتنى.

فقال: إنى لا أشفى أحدا، إنما يشفى الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله، فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي.

قال: ولك رب غيرى؟

قال: ربى وربك الله.

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجئ بالغلام، فقال له الملك: أى بني! قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل.

فقال: إنى لا أشفى أحدا، إنما يشفى الله.

فأخــذه فلم يزل يعذبه حتــى دل على الراهب، فجــئ بالراهب، **فقيل له: ارجــع عن دينك. فأبى، فدعا بالمئشــار، فوضع المئشــار على مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جئ بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المئشــار فى مفرق رأســه، فشــقه به حتى وقع شــقاه**، ثم جئ بالغلام فقيل له: ارجــع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال:

اذهبــوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه.

فذهبــوا به فصعدوا بــه الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شــئت، فرجف بهم الجبل فســقطوا، وجاء يمشــى إلى الملك، فقــال له الملك: ما فعــل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.

فدفعــه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه فى قرقور، فتوســطوا به البحــر، فإن رجع عن دينــه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقــال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا.

وجاء يمشــى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به.

قال: وما هو؟

قــال: تجمع النــاس فى صعيد واحــد، وتصلبنى على جذع، ثم خذ ســهما من كنانتى، ثم ضع السهم فى كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمنى فإنك إذا فعلــت ذلك قتلتنى. فجمع الناس فى صعيد واحــد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم فى كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم فى صدغه، فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم، فمات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام.

فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس. فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فخدت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له، اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها، **فقال لها الغلام: يا أُمَّه اصبرى، فإنك على الحق**)[1].

الرسائل التى يجب أن نتعلمها من هذا القصة:

١ – أن قصة أصحاب الأخدود صورة من صور الابتلاء العظيم الذى قد يُصيب المؤمنين، ولكن دون أن يكون هناك نصر وتمكين لهم تراه الأعين، هم إنتصروا بثباتهم نعم، هم كانوا على الحق نعم، ولكن الرسالة التى ينبغى أن تفهمها أخى الكريم، أن الله يُمكن لمن يشاء كيفما يشاء، وعندما يشاء، وأن الثبات على الإيمان، والموت عليه هو من النصر العظيم للمؤمنين الذى ينالون به رضا الله والجنة، وهذا من عظيم الشرف للمؤمنين، حتى وإن لم يرى الناس ذلك، ولذلك نجد أن الصبى الصغير يقول لإمه اصبرى، فإنك على الحق، فى الوقت الذى يُساقون فيه إلى الموت، وبالتالى فما عليك إلا الصبر والثبات أما النتائج فهى بإرادة لله يُحققها كيف يشاء.

٢ – أنه عندما تزيد مكانتك فى دين الله سوف يزيد عليك الإبتلاء، فالابتلاء يُصيب عامة المؤمنين، ويصيب بزيادة الدعاة منهم، وذلك لأن الظالم يرى أنه إن إستطاع أن يُضل الداعية عن طريقه، فسوف يتبعه الباقين، ولذلك نجد أن الملك لم يقتل الغلام مُباشرتاً، بل كان يرجوا أن يرتد عن دينه، وهو شاب صغير أمامه عمر طويل، فيكون سبباً فى رجوع فريق المؤمنين به عن دينهم هم أيضاً.

٣ – حتى المؤمن الواثق فى دينه، قد يخاف من بطش الظالمين، وهذا نراه فى قول الراهب (فإن ابتليت فلا تدل علي)، ولكن هناك فرق بين الخوف من عبد من

(١) رواه مسلم برقم ٣٠٠٥

عبيد الله، وأن تترك دينك أو تتنازل فيه وتُعرض نفسك لعقاب الله، وهو شديد العقاب ولذلك، عندما طُلب من الراهب أن يترك دينه وإلا قتل، رفض التنازل عن دينه (فوضع المئشار فى مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه).

٤ – أن الداعية له هم وله رسالة يحملها فى عقله وقلبه، ويسعى إلى تحقيقها مهما كانت صعوبة الطريق، ومهما كان شدة الابتلاء حتى لو أدى ذلك إلى مقتله، ولذلك نرى أن هذا الغلام قد ضحى بنفسه، وأرشد الملك على الوسيلة الوحيدة لقتله (وقد يكون ذلك إلهام من الله له)، فى سبيل أن يؤمن الناس بالله رب العالمين.

٥ – أن الثبات على الإيمان يكون بفضل الله ومعونته، ليس بعلم ولا بقوة شخصية ولا بخبرة عملية، فالله يُدافع عن عباده المؤمنين، يلهمهم الصبر، ويسوق لهم من البُشريات ما يُمكنهم من الثبات على طريق الحق، وهذا ما نراه من قول الصبى بأمر الله لإمه: (يا أُمَّه اصبرى، فإنك على الحق).

والأن بعد ان علمنا بعض أسباب ابتلاء الله لنا، وكيف يمكن أن يكون هذا الإبتلاء، وكيف تعامل المؤمنين الصادقين مع الإبتلاء، يبقى الجزء الأخير وهو كيف نستطيع إجتياز اختبار الحياة الدنيا بنجاح حتى نكون من الفائزين؟

كيف ننجوا فى الابتلاء التى نتعرض لها؟

كما أنه لإجتياز الإختبارات الدراسية يحتاج المرء إلى إعداد وتجهيز وبذل جهد ووقت، فإن الفوز فى اختبار الحياة الدنيا يحتاج كذلك من المؤمن إلى إعداد وتجهيز للتغلب على الابتلاءات ، ولذلك كان لابد للمؤمن الحريص أن يكتشف الطرق والوسائل التى يمكن أن تقوده إلى النجاة من هذه الإختبارات(الابتلاءات) التى سيقع فيها، ومن هذه الوسائل مايلى:

١ - فهم حقيقة وجودك:

قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون - ١١٥).

إعلم أنك خُلقت إلى غاية عظيمة، خلقك رب العالمين لكى تُحقق العبودية الكاملة له سبحانه بإرادتك الحرة، ووضعك فى هذه الحياة الدنيا فى موضع إختبار، فالحياة الدنيا ليست دار مُستقر، لكى تجعلها كل همك، وتسعى إليها ليل نهار، بل أنت فيها كما صور حالك رسول الله ﷺ كعابر سبيل إستظل بظل شجرة، ثم تركها ورحل، فأنت راحل لا محالة عن هذه الحياة الدنيا ليُحاسبك الله على ما قدمت فيها، ستقف أمام رب العالمين وتنظر يميناً ويساراً لعلك تجد ما يُنقذك ولكن هيهات، ستجد فقط عملك، وبالتالى، إن كنت عاقلاً حقاً، فاستمع لمُنادى رب العالمين، إتجه بعقلك وقلبك تجاهه وإبحث بنفسك عن مُراد الله فيك، عندها وعندها فقط ستنجح إن شاء الله فى اختبار الحياة الدنيا أياً كان ما فيه من صعوبات، فطالما أنت بجوار الركن الشديد، طالما أنت بجوار القوى المتين، الفعال لما يريد، فلا تخف ولا تيأس، فإن رحمة ربك قريب من المحسنين.

٢ - فهم طريقك من البداية:

الطريق إلى الله، ما أجمل هذه العبارة، أن ينتبه الإنسان أنه ينبغى عليه أن يسير فى طريقه إلى الله، فهو طريق فى نهايته الخلد فى جنة الرحمن، ولكن...

فى طريقك إلى الله، هناك عقبات لابد أن تجتازها أولاً، هناك إبتلاءات، هناك أعداء يتربصون بك من كل جانب، لا هَمَّ لهم إلا صدك عن سبيل الله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ (سبأ: ٣٣)

هناك شهوات تصطرع فى نفسك التى بين جنبيك، هناك شدائد ستجعل من طريقك شاقاً وصعباً.

إن إخترت السير على منهج الله، فأنت على الصراط المستقيم، وهذه هى القوة الحقيقية التى يريدها الإسلام من أتباعة، القدرة على السير فى الطريق إلى الله مهما كانت الظروف والصعوبات.

إن معرفة هدفك (أن تسير على منهج الله كما أراد الله) وطبيعة طريقك إبتداءً، يجعل لك قدرة عالية على فهم مراد هذا الدين، وقدرة عالية على إحتمال صعوبات الطريق وعوائقه.

إن إستقرار حقيقة أن الله خلقنا لتحقيق العبودية له وحد سبحانه، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾، مع فهمك لطبيعة الحياة الدنيا التى نعيش فيها من مُنطلق قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، فإنه:

إنطلاقاً من المبدأ الأول:

أى نحن خُلقنا للعبادة، هذا المبدأ سوف يقود المسلم ليعود سريعاً إلى طريق الله إذا إرتكب معصية أو حاد عن الطريق، وذلك لأن النفس سريعة التقلب، فهى تتقلب بين طاعة ومعصية، تدفعها شهوة بعيداً عن سبيل الله، وتردها توبة إلى طريق الله، هذه هى طبيعة نفس المسلم، وحتى فى معصيته لله، فإن قلبه ينتفض

خوفاً من عقاب الله ويرجوا لو يتوب الله عليه، لذلك فإن هذا المبدأ سوف يعود به ثانيتاً إلى الطريق الصحيح.

بينما إنطلاقاً من فهم المبدأ الثانى:

أى نحن خُلقنا للاختبار فى ظروف الحياة الدنيا، ليرى الله من منا أفضل عملاً من الأخر، فستختلف نظرة المسلم إلى طبيعة الحياة الدنيا وسيفهم حقيقتها، وذلك لأن:

(أ) بمعرفة المسلم إبتدأ أن الله سيبتليه بأنواع من الفتن والمصائب، فهو يتهيأ نفسياً مقدماً لما هو أتى، وبالتالى لا يفاجأ بما يجده من محن، ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب - ٢٢).

(ب) كذلك فإن رؤية الحياة الدنيا من منطلق أنها إختبار، سيسهل على الإنسان إختيار الطريق الذى ينبغى أن يسير فيه، بين إتباع منهج الله الذى جاء به رسول الله ﷺ، وبين سبل الشيطان، وبالتالى عند وقوع المسلم فى الذنب ثم نزول الابتلاء عليه[1]، فإنه سيربط مباشرتاً بين الابتلاء ومعصيته، فإما أن يقلع عن المعصية، وإما أن يخاف أن يرتكب معصية أخرى حتى لا يزيد عليه الإبتلاء، فيسارع إلى التوبة.

(جـ) والنقطة الأخيرة أنه إنطلاقاً من هذا المبدأ عند تعرض المسلم للفتنة أو للابتلاء سوف يعلم لماذا حدث ذلك؟ وكيف يمكنه النجاة منه؟ فستختلف طريقة تعامله مع هذه الابتلاءات ، وصدق الله إذ يقول ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر - ٩).

لذلك فإن معرفة حقيقة وجودك، وحقيقة أنك موجود على هذه الأرض، تخلف

(١) إنظر ابتلاء رفع الدرجات وتكفير السيئات فى هذا الكتاب

من قبلك من الأمم ليرى الله ماذا ستفعل فيما أمرك به، وفيما نهاك عنه، ستبين لك الطريق الذى يجب أن تسلكه، وتجعلك تفهم طبيعة هذا الطريق إبتدأ، فحياتنا كلها منذ بدايتها إلى نهايتها عبارة عن مجموعة من الفتن والابتلاءات المختلفة التى تتجه جميعاً نحو هدف واحد ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

فى بيعة العقبة الثانية، يُروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، أنه بعد أن سمعوا من رسول الله ﷺ:

قال: فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغر القوم سناً فقال:

رويداً يا أهل يثرب! فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، **وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف**، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خبيئة، فبينوا ذلك، فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا سعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نسلبها أبداً، قال: فقمنا إليه، فبايعناه، **فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة**)[1]

هذه الكلمات التى قالها أسعد بن زرارة رضى الله عنه (على حداثة سنه) لم تكن تخذيلاً وتثبيطاً لقومه، بل تنبيهاً، وهو ممسك بيد النبى ﷺ يحجزهم عن بيعته، مخافة أن يكونوا لم يفهموا بعد الحقيقة، حقيقة هذا المنهج الربانى والمسئولية التى ستلقى على عاتقهم.

فقد بين لهم عاقبة الطريق الذى سيختارونه، (عداوة العرب، وقتل أشرافهم، وإعلان الحرب عليهم)، وكذلك الطريق الذى يجب أن يسلكوه فى تعاملهم، (إما الصبر على ذلك ولهم الجنة، وإما رفض ذلك إبتداءً)، كلمات واضحة تبين الفهم العميق لطبيعة هذا الدين وهذا المنهج، فأنت ستضحى وتصبر على ما يصيبك ولا تنتظر من ذلك غير ثواب الله.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد

وفى ساعة العسرة، فى غزوة تبوك، خرج النبى ﷺ فى ثلاثين ألف من أصحابه، يجتازون صحراء قاحلة فى شدة حر الصيف، يقول عنها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد، فنزلنا وأصابنا فيه عطش، **حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع**، حتى إن أحدنا ليذهب فيلتمس الرّحل، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده.

ونتيجة لقلة الماء والمؤنة، وشدة الجهد، يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه).

مبدأ واضح وضعه رسول الله ﷺ، أن لن يقوم بهذا الدين إلا من كان فيه خيراً يرشده إلى الإتجاه الصحيح الذى ينبغى له أن يسير فيه، فيستحق بذلك معونة رب العالمين.

فمن كان فيه خير فسيلحق بهذا الركب العظيم، ركب محمد ﷺ وحزبه، فى السراء والضراء، وفى العسر واليسر، وإلا ففى الصنف الأخر، الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، وإرتضوا بالحياة الدنيا بديلاً عن الآخرة.

أن تسير على منهج الله، أى أن تكون على علم بطبيعة الطريق وأن تكون لك مبادئ راسخة تضعك دائماً على الطريق الصحيح، لا تتذبذب ولا تضعف أمام الحوادث المختلفه.

أن تسير على منهج الله، أى أن تقوم بالفعل الصحيح ولا تخشى فى الله لومة لائم.

٣ - اليقين بالله والتوكل عليه:

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ (النمل - ٧٩)

عندما ترك خليل الرحمن إبراهيم، السيدة هاجر وإسماعيل فى صحراء جرداء، بدون زاد وبدون مأوى، قالت له: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شئ؟!

فقالت له ذلك مراراً وتكراراً، وجعل لا يلتفت إليها.

فقالت له، ألله أمرك بهذا؟ قال نعم.

قالت: إذن لا يُضيعُنا[١].

إذن لا يُضيعُنا.....

هو يقين يملأ قلب صاحبه، أن الله مُطلع يسمع ويرى، ولن يضيعه.

يقين يمنع صاحبه من الشك فى طريقه الذى يسير عليه.

يقين يمنع صاحبه من الضعف والتردد والزلل.

يقين يمنع صاحبه من العجزوالجبن والكسل.

كان سهل بن عبد الله، يقول: (حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين، وفيه سكون إلى غير الله) [٢].

إذا! لماذا اليقين بالله؟

يحافظ اليقين بالله على إستقرار نفسك وطمأنتها، وثقتها بأن الله لن يخلف وعده، وأن الله سيجعل لك فرجاً ومخرجاً مهما كان العسر شديد.

يساعد اليقين على ثباتك على الطريق الذى تسير فيه، فلا تيأس ولا تُبدل ولا تُغير سبيلك نتيجة شدة الابتلاء.

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى

(٢) بستان العارفين للنووى

يقول ابن القيم رحمه الله: (ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة - ٥) منزلة اليقين، وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وعمل القوم إنما كان عليه، **وإذا تزوج الصبر باليقين، ولد بينهما حصول الإمامة فى الدين**، قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤)، ومتى وصل اليقين إلى القلب، إمتلاء نوراً وإشراقاً، وإنتفى عنه كل شك وريب، وهم وغم، فإمتلأ محبة لله، وخوفاً منه، ورضى به، وشكر له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه)[1].

عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة، وإطمئنوا بأرضها، رأت قريش أن يبعثوا رجلين إلى النجاشى ملك الحبشة، ليردهم عليهم، ويخرجهم من أرضه.

فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص، وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته.

وعندما أحس عمرو بن العاص أن النجاشى لن يُسلم له المسلمون، قال (والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم).

فقال له عبد الله بن أبى ربيعة: لا نفعل فإن لهم رحماً وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد.

وفى اليوم التالى ذهب عمرو للنجاشى وقال: أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيماً.

فأرسل النجاشى إليهم ليسألهم عنه.

وفى هذه اللحظه وقع المسلمون فى ابتلاء شديد، فقد هاجروا من التعذيب والمعاناة فى مكة، والأن هناك مكيدة تحاك على الملك الذى يعيشون فى أرضه حتى يطردهم منها، فماذا سيكون الرد فى سؤال إجابته ضد إعتقاد النصارى حيث دينه وملته.

أخذ المسلمون هناك يتشاورون، ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟

(١) مدارج السالكين ٢ / ٤١٣ بتصرف

قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنا فى ذلك ما هو كائن.

فلما دخلوا على النجاشى، قال لهم: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم؟

فقال جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فضرب النجاشى بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، إذهبوا فأنتم شيوم[1] بأرضى، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لى دبراً[2] من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم.

هذا هو جوهر اليقين بالله، لما توكلوا على الله وإعتزوا به، أيدهم بحفظه، فلم يمسسهم سوء، رغم شدة المكيدة، ورغم تربص الحاقدين، وصدق الله القائل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق - ٣).

وفى مشهد أخر من مشاهد اليقين بالله، مشهد عظيم صوره القرأن، سحرة فرعون يأتون بسحرهم ليتحدوا به رسول الله موسى عليه السلام، ويقسموا بعزة فرعون إنهم هم الغالبون، فما علموا من إله لهم غيره، ولكن بمجرد تصديقهم بالحق الذى جاء به موسى عليه السلام، ونزول الإيمان فى قلوبهم، ينقلب الحال، ويظهر الإيمان فى صورة يقين عجيب، يقين بالله رب العالمين، صابرين محتسبين طغيان فرعون عليهم، قال تعالى عن حالهم: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ (الشعراء: ٤٦ - ٥١)

وفى سورة طه يخبر الله عن مدى يقينهم، وذلك فى قوة خطابهم لفرعون، فيقول تعالى ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ

---

(١) الأمنون

(٢) أى جبل من ذهب

ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ **(طه: ٧٢ - ٧٣)**

وأنت فى إتباعك لمنهج الله سوف تُبتلى بمن يسخر منك، ومن يؤذيك، ومن يسبك، ومن يخوفك بسلطانه، ومن يقاتلك، وستشعر بألم الغربة حتى وأنت فى بلدك وبين معارفك، ولكن اليقين بالله أكبر من الألم، اليقين بالله أكبر من المعاناة، اليقين بالله أكبر من الخوف، هذا اليقين أشبه بالجبال التى تُثبت الأرض حتى لا تميد ولا تتمايل عن مسارها الذى قدره الله لها، وكلما عظم يقين المؤمن، كلما إشتد ساعده، وقويت نفسه، فلا يخضع لإغراء فتنة، ولا يخضع لشدة إبتلاء، قال تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ **(آل عمران - ١٤٦).**

وعند الله، عندما يُنصب الميزان، ويصطف الناس للحساب، سيكون هناك شأن أخر بينك وبين من ظلمك، ستكون أنت فى منزلة جند الله، وهو فى أحقر المنازل، أنت فى أعلى عليين، وهو(إن لم يتب) فى أسفل سافلين، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴾

(المطففين: ٢٩ - ٣٦).

نعم الجزاء من جنس العمل، الله الواحد، خلقنا وخلق للمؤمن دار خُلد يعيش فيها أبداً، لا يذوق فيها نصب ولا هم ولا حزن، ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الحجر:٤٦ - ٤٨).

فاليقين اليقين، إن الله حافظ دينه وحافظ عباده المؤمنين، وما الابتلاء إلا فترة عابرة فى عمر المؤمن، يتبعها راحة أبديه فى جوار الرحمن، وقد جاء دورك الأن لتُثبت إيمانك بالله ويقينك به.

٤. تغيير ما فى نفسك أولاً:

فهمت حقيقة وجودك، وفهمت طبيعة الطريق الذى ستسير فيه، ولديك اليقين بـالله أنه لن يُضيعك، إعلم أنه ينبغى عليك أن تُعد نفسـك داخليـاً إعداداً صحيحاً لتحقيق مُراد الله فيك.

إن مفتاح تغيير الأمر الواقع، والابتلاء الذى تعيشة أنت الأن والذى تعيش فيه الأمة الإسـلامية، من وهن وضعف، يقبع داخل نفسك أنت، فى الفئة المؤمنة التى أخذت على عاتقها الدعوة لدين الله وحمل منهجه والعمل به.

لقد سـبق صحابـة رسـول الله ﷺ لأن الغالبية العظمى منهـم، فقهوا بمجرد إسـلامهم المطلوب منهم فى دين الله، فبمجرد إسلامهم تحولوا لدعاة فى سبيل الله، وتحولوا لمقاتلين فى سـبيل الله، وجعلوا من كل حياتهم الدنيا وسـيلة لبلوغ الدار الأخرة، كائناً فى ذلك ما كان، فقد باعوا أنفسهم وأموالهم لله رب العالمين.

إن أنـت تغيرت داخلياً، وإتخذت خطوات عمليه، لتغيير ما فى نفسـك أولاً، وتنقينها من كل شئ يقف حائلاً بينها وبين السير على منهج الله، إن فعلت ذلك، فاعلم أن نصر الله سـيكون معك مهماً كانت الظروف من حولك، سنة الله الذى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد - ١١)

يقول الأسـتاذ جودت سـعيد (من المفارقات، أن نتطلع بشوق إلى تغيير الواقع، دون أن يخطر فى بالنا، أن ذلك لن يتم إلا إذا حدث التغيير قبل ذلك، بما بالأنفس، ونحن مطمئنون إلى ما بأنفسـنا، ولا نشـعر أن كثير مما فيها، هو الذى يعطى حق البقـاء لهذا الواقع الذى نريد أن يزول، ونحن نشـعر بثقل وطأته علينا، ولكن لا نشـعر بمقدار ما يساهم ما فى أنفسنا لدوامه وإسـتمراره، فهذا ما يريد القرآن أن يُعلمه للبشر، فى تفسير ما يحل بهم، حين يلح فى إظهاره، أن مرد المشكلة إلى ما بالنفس، وليس من الظلم الذى يحيق بالإنسان من الخارج، بل من الظلم الذى ينزله

الإنسان بنفسه، وهذا هو لُب التاريخ وسنة الإجتماع، الذى يقرره القرآن)[1].

عنـد وقـوع الابتلاء فأنت فـى مواجهة اختبـار حقيقى، اختبار سـتُبنى به شخصيتك الجديدة وردود أفعالك القادمة فى المواقف المختلفة، وستتحدد به ملامح الحيـاة التى قررت أنت أن تحيا بها، ولذلك فإن الفترة البينية بين بداية الابتلاء ونهايته، تمثل تحدياً كبيراً للمؤمنين، وخاصة فى ابتلاء الدعوة وابتلاء التمكين، فبلنظر إلى النتائج المرجوة (نشـر دين الله والتمكين له فى الأرض) مقارنتاً بالواقع الذى يعيشة المؤمنين، هناك فجوة كبيرة جداً، هذه الفجوة تؤدى عند بعض الناس إلى اليـأس أن يأتـى نصر الله على هذه الحالة، والبعض الأخـر يعلم علم اليقين أن نصـر الله آت، ولكن عجزه عن تغيير الأمر الواقع والـذى يتطلبه بالضرورة تغيير ما بنفسـه أولاً، يظهر جلياً فى ردود أفعاله، وسلوكه، فهو لا يفعل أى شئ للقيام بأسـباب النصر والتمكين، نعم قد يرفع يده بالدعاء والتضرع، ويظن نفسه متوكلاً على الله، الله الذى أمره أن يأخذ بكل الأسـباب أولاً، ويسـاند هذه الأسباب التوكل عليه سبحانه، ولذلك سيتأخر النصر حتى تتحرك هذه الفئة المؤمنة وتكتشف أين مواطن الخلل وتسعى فى إصلاحها حتى يأتى وعد الله.

إن المنهـج ثابـت، والطريق واضح وصريح لأنه من عنـد الله رب العالمين، ولكن الذى حدث هو أن تغير شئ ما بالنفس، فتغيرت طريقة إستقبالها للمنهج.

ولذلك يجب على المؤمنين أن يسـعوا جاهدين لإصلاح وتغيير ما بأنفسهم أولاً، تغيير طريقة إستقبالهم لمنهج الله، وتغيير نظرتهم للعالم المحيط بهم.

– إيماناً كاملا بـالله وبمنهجه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ (النساء - ١٣٦)، (فهو إيمان بالله ورسوله، يصل قلوب المؤمنين بربهم الذى خلقهم، وأرسـل إليهم من يهديهم إليه، وهو الرسـول ﷺ، وإيمان برسالة الرسول وتصديقه فى كل ما ينقله لهم عن ربهم الذى أرسله.

وهو إيمان بالكتاب الذى نزل على رسـوله، يربطهـم بالمنهج الذى اختاره الله

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم. جودت سعيد

لحياتهـم وبينه لهم فى هذا الكتاب، والأخذ بكل مـا فيه، بما أن مصدره واحد، وطريقه واحد، وليس بعضه بأحق من بعضه بالتلقى والقبول والطاعة والتنفيذ)[1].

ثم يتبع الإيمان الكامل بمنهج الله، العمل بإجتهاد، عمل دؤوب لتغيير الواقع المؤلم الذى تعيش فيه الأمة، حتى تسـير على منهج الله، هذا العمل لابد أن يكون قائم على أساس من العلم والمعرفة والخبرة.

ـ **علـم** بالأمـر الواقع بدون تهويل أو إقلال، وإحاطة به من كل جوانبه، وعلم بأعداء المؤمنين الحقيقين وكيف يكيدون المكائد للقضاء على الإسلام والمسلمين.

إن العـالم المحيط بك ليس جميلاً، أو كريماً كما تراه أو تظنه، وذلك لأنك تراه من مُنطلق قيمك وقناعاتك الشخصية وهذا من أكبر الأخطاء التى قد يقع فيها مؤمن، يقول أحد قادة الغرب (إذا أردت أن تصنع السلام فاستعد للحرب) لقد فهموا وعملوا مالم نفهمه نحن ولم نعمل به، إن الواقع يفرض عليك كمؤمن بالله أن تكون عاقل ذو فطنة لا تنخدع بالمظاهر ولا بالكلام المعسـول والوجه الباسم الجميل، فيوجد خلف هذا المظهر المُخادع وجه أخر قبيح، وجه ذئب جائع يود لو ان يدمرك تدميراً.

وقـد كرر رب العالمين فى قرأنه الأيات التى توضيح هذه المسـألة مراراً وتكراراً لعلنا نسمع أو نعقل فقال:

- ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ (البقرة - ٢١٧).
- ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾ (البقرة - ١٠٩).
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(آل عمران - ١١٨).

- ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (التوبة - ٨).

والأيات فى هذا الباب كثيرة جداً، ولذلك يقول رب العالمين: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ

(١) فى ظلال القرآن سورة النساء بتصرف

إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، نعم ماذا ينقصك بعد كل ذلك حتى تعلم تدبير عدوك وقرارة نفسه؟!

معرفة بمستوى إيمان الصف المؤمن، وردود أفعالهم، وإستجابتهم فى المواقف المختلفة، حتى لا يغتر المؤمنين بعدد أو بعدة، ثم عند الاختبار الحقيقى لا يجدوا شئ يُرتكن إليه، وخير مثال ساقه رب العالمين إلينا لنتعلم منه هذه المسألة، ما كان من بنى إسرائيل ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والسبب ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ ثم ما كان منهم ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾(البقرة:٢٤٦)، وهذه من طبائع النفس البشرية، قد تأخذها الحماسة فى لحظة من اللحظات ثم تفتر عند مواجهة الواقع، لذلك يأمر الله نبيه الكريم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال- ٦٤)، (إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها، وتفقه منهجها، وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها، إنها تفقه حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فتفقه أن الألوهية لا بد أن تنفرد وتستعلى، وأن العبودية يجب أن تكون لله وحده بلا شريك، وتفقه أنها هى الأمة المسلمة المهتدية بهدى الله، المنطلقة فى الأرض بإذن الله لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وأنها هى المستخلفة عن الله فى الأرض، وكل ذلك فقه يسكب فى قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين)[1]

ولذلك فمن المعرفة، معرفة الأمور على حقيقتها المجردة، أن لن يقف معك ولن يساندك إلا من كان مؤمن بالله مثلك وفقط، مؤمن بقضيتك فيصبر معك فى المنشط والمكره.

ومثال على ذلك: إخوة يوسف عليه السلام كانوا أحد عشر، تأمر منهم عشرة عليه وألقوه فى البئر، بينما موسى عليه السلام كان له أخ وحيد، هارون عليه السلام، وقف معه وصدقه وسانده، وأشركه الله معه فى الأمر.

(١) فى ظلال القرآن سورة الأنفال

نحــن نغتر بالعدد والكم، وهذا خطأ شــديد، وذلــك لأن الرجل المؤمن قد يعدل ألف مما سواه.

اما الخبرة: فأقصد منها دراســة التاريخ جيداً، وخاصة دراســة المراحل شديدة الصعوبة فى عمر الأمة الإسلامية، ودراسة حياة وسلوكيات الشخصيات التاريخية المؤمنة والتى كان لها دور عظيم فى تغيير مســار الأمة من ضعف إلى قوة، وأقوالهم المأثورة والتى عبرت مئات السنين حتى تصل إلينا الأن، وذلك لأنهم تعرضوا لمحن شــديدة كما نتعرض نحن، وإستطاعوا الصمود والنجاح فيها، هذه الدراسة ستعطى لك بُعد نظر وفراســة فــى معرفة وتوقع الأمور، أكثر كثــيراً مما لو لم تدرس هذا التاريخ.

وإن كان البعض يظن أن التعلم وإكتساب الخبرة سوف يكون عن طريق التجربة والخطــأ، فهو واهم لا محالة، ولن يجد الوقت لإكتســاب هذه الخبرة، وســيتفوق عليه عدوه بمراحل، لماذا؟!

لأن عدوك يتربص بك ويتجســس عليك، ولن يدع لك الفرصة لتقوم من كبوتك، أو تنهض من جديد، هناك دول، وأجهزة، ومؤسسات تعمل جاهدة من أجل طمس الإسلام ومحاربة أهله.

أنــت كمؤمــن لديك خبرات الأجيال الســابقة، مــا عليك إلا دراســتها جيداً، وإســتخلاص الحكــم والعبر منهــا، وإلا لماذا كل هــذا القصص القرأنــى عن الأمم السابقة؟!

أنت كمؤمن مطالب بالتغيير، مطالب أن يكون تغيير الأمر الواقع همك الشــاغل ليل نهار، كما أن أعداء الله، يمكرون بك، ويمكرون للصد عن ســبيل الله ليل نهار ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ (سبأ- ٣٣)، ولن يكون ذلك إلا أن تبدأ من الأن أن تغير ما بنفسك أولاً.

إجعل من التاريخ جاسوساً لك، يخبرك عن الطغاة وطبائعهم، وعن عدوك وكيف

يخطط لك، وعن المؤمنين وكيف نجحوا فى إجتياز الصعاب، إجعل من التاريخ نوراً يضيئ لك الطريق فترى الأمور على حقيقتها، مجردة من الأهواء والزينة والخداع.

سيجعل لك التاريخ بصيرة تحميك من الوقوع فى الأخطاء، إن كنت مؤمناً حقاً، لأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

وقد يسأل سائل، ما المطلوب تغييره؟!

فى غزوة أحد، أخذ الرماة أمراً صارماً من رسول الله ﷺ، أن لا يبرحوا أماكنهم مهما حدث، سواء إنتصر المسلمون أو إنهزموا، كان أمراً واضحاً لا لبث فيه، ولكن عندما لاحت الدنيا لغالبية الرماة والمتمثلة فى الغنيمة، بعد إنهزام المشركين، تركوا أماكنهم ولم يكترثوا لأمر رسول الله ﷺ، وسارعوا إلى أخذ نصيبهم من هذه الدنيا، وهنا إنقلب الأمر، تحول النصر إلى هزيمة، وتحولت الفرحة إلى تعاسة وشقاء ومصيبة، فقد دارت الدائرة على المسلمين، وبعد فرارهم، رجع المشركون ليقتلوا المسلمين وأصابوا رسول الله ﷺ إصابة بالغة!!! ولكن كيف حدث هذا؟!

يُخبر رب العالمين فى كتابه أن السبب فى الهزيمة والمصيبة بعد قتل سبعين من صحابة رسول الله ﷺ والتمثيل بجثثهم كان: **حب الدنيا**، الذى أدى إلى عصيان أوامر رسول الله ﷺ من بعض الأفراد، وبالتالى حدث الإختلاف والفرقة والضعف، والنتيجة هزيمة المسلمين ونصر المشركين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ (آل عمران - ١٥٢).

كم كان جيش المسلمين؟

كم كان عدد الرماة الذين عصوا أوامر رسول الله ﷺ؟

كان عدد جيش المسلمين سبعمائة مقاتل.

كان عدد الرماة الذين عصوا أمر رسول الله ﷺ، أربعين مقاتل.

بنسبة ١٧ : ١ تقريباً.

بمعنى: أن من كل ثمانية عشر رجلاً هناك رجل واحد عصى الأمر بينما سبعة

عشــر ظلوا على طاعتهم، ولكــن النتيجة تُخبرنا أن معصية هــذا الفرد أثرت أثراً كبيراً على مجموع الأفراد.

والأن يتجــاوز عــدد المســلمين المليار، كم فرد منهــم مُلتزم بأوامــر الله وأوامر رسوله ﷺ؟

وحتى لا تذهب بعيداً وتجرى حســاباتك، إسأل نفسك، هل أنت شخصياً مُلتزم بأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ كاملة بدون زيادة أو نقصان؟

هل أنت تطبق سنة رسول الله ﷺ كاملة، أم تطبق فقط ما يتوافق وطبيعة حياتك الشخصية؟ هل يُسيطر حب الدنيا والسعى لها على قلبك؟ أم أن الآخرة هى شُغلك الشاغل؟

إجابة هذه الأســئلة ســتحدد لك ما المطلوب تغييره فى نفسك أولاً، حتى يأتى نصر الله ويُرفع البلاء عن الأمة كاملة.

٤ - الإستعانة بالصبر:

- (قـدّر الله وما شـاء فعـل) إن الله هو المُدبر، لابد ان تضع هذا فى قرارة نفسـك، وبالتالى فإن الله هو الذى ساق إليك هذا الإبتلاء، وهو الذى ساق إليك هذه الأحداث التـى تمر بك تحديداً، إن الله هو الذى دبرها لك لحكمة يعلمها سُـبحانه، وقد تعلم أنت أسـبابها لأنك أدرى بنفسك، وأنت كمؤمن عليك الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره، مع البحث عن أسـباب هذا الابتلاء حتى تُحقق مُراد الله فيرفعه الله عنك.

- ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ (المدثر - ٧)، إشـارة إلى رسـول الله ﷺ، وإلى من سار على نهجه أن هناك ابتلاء على طريق الدعوة، فليس الأمر يسير كما قد يظن المرء، بل هناك ألم، هناك معاناة، هناك هوان على الناس، بما يتضمنه من سـخرية وإستهزاء، لذلـك يأتـى الأمر من الله، أن يصبر المؤمن ويكون صبره لله وبالله، وقد أشـار رب العالمين إلى عاقبة من يصبر على طريق الإيمان بيقين من الله، أن سيكون منهم أئمة يهدون بأمر الله، فقال: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(السجدة - ٢٤).

وبالتالى فإن أساس النجاح فى اختبار الإبتلاء، أن تصبر وتحتسب ألمك، وجُهدك ومعاناتك، إبتغاء وجه الله، وهذا خير دليل على إيمانك بالله العزيز الحميد.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(البقرة - ١٥٣)

(نداء للمؤمنين أن يعملوا بمقتضى إيمانهم بالله، والإستعانة تعنى: أن أمراً فى حركـة حياتك فاق عن طاقتك وقدرتك، وإلا لو أن كل امر دخل فى حدود قدرتك لما طلبت معونـة، فأنت تطلب المعونة عند عدم القدرة، فإذا ما جاء فعل يفوق قدرتك فاستعن بالقادر الذى لا تنفذ قوته، فهذه الآية لا تُيئس انساناً من شئ فى الحياة، وأن يُقبل على الأشياء مستعيناً بمن خلق الاشياء.

ودلت كلمة الإسـتعانة، على أن هناك أحداث سـتأتى لتُجهد الطاقة البشرية،

وكلمة الصبر تدل على أن هذه الاشياء فيها ألم ومشقة، وكأنه يُعد النفس المؤمنة لعملية جهادية كبيرة ستستنفذ طاقة الإنسان، وتتطلب المشقة فيها أن يصبر الإنسان على ما يلاقيه، فهو لا يُمنينا بطريق مفروش بالورود، إن لكم مهمة فى الحياة ، إنكم أصحاب مبدأ حق، ومبادئ الحق لا تأتى إلا حينما يستشرى الباطل، والباطل حين يرى دنيا الباطل تُزلزل من تحت قدمة يحاول جاهداً أن يصد جنود الحق، فستواجهون عنفاً، وستواجهون شراسة، وستواجهون مكراً، وستواجهون كيداً، إياكم أن تخوروا فإن لكم مهمة، هذه المهمة هى إعادة الخلافة للمؤمن فى الأرض، وكل الذين حاولوا أن يَخْرجوا عن ملك الله بمعصيته، ستحاربونهم، ولن يُسلموا لكم الراية يسيره، بل سيتكالبون، فكونوا أنتم أشد منهم قوة، واستعينوا بالصبر)[1].

﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٥ - ١٥٧)

– ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ إنها إقرار بأنّك أنت ومالك وأبناءك وحياتك ومماتك، كل ذلك لله سبحانه وتعالى. وبما أننا وما نملك ملك لله، فليفعل الله بنا ما يشاء يهب لمن يشاء، وينزع ممن يشاء، ولتطمئن الأنفس، فإنّا إلى ربنا راجعون، فيوفى كل ذى حق حقه.

لذلك كان يوصى النبى ﷺ بكثرة قول إنا لله وإنا إليه راجعون، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: (ليسترجع أحدكم فى كل شىء، حتى فى شسع[2] نعليه، فإنه من المصائب)[3].

كان الإمام أحمد رحمه الله تعالى فى مرض موته يئن منه أنيناً فقيل له: يا إمام، إن طاوساً يقول: إن الأنين يُكتب، وذلك لقوله تعالى ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

(١) تفسير الشعراوى سورة البقرة
(٢) الشسع رباط الحذاء
(٣) رواه ابن السنى عن أبى هريرة رضى الله عنه، ضعيف الجامع (٤٩٤٩)

(ق - ١٨) فيقول الراوى: فما أنّ الإمام أحمد رحمه الله تعالى حتى مات

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ (التغابن - ١١)، قال علقمة: هى المصيبة تصيبُ الرَّجلَ، فيعلم أنَّها من عند الله، فيسلِّمُ لها ويرضى.

إن صبرت وإحتسبت ما تجده فى دنياك من فتن وإبتلاءات إبتغاء وجه رب العالمين فلن يُضيع الله أجرك، بل ستوفى أجرك بأحسن ما كنت تعمل وعند الله المزيد ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (هود - ١١٥).

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ (غافر - ٥٥)، (الدعوة إلى الصبر، الصبر على التكذيب، والصبر على الأذى، والصبر على نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان فى فترة من الزمان، والصبر على طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا ومن هناك، والصبر على النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها فى النصر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال، والصبر على أشياء كثيرة فى الطريق قد تجىء من جانب الأصدقاء قبل أن تجىء من جانب الأعداء.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ مهما يطل الأمد، ومهما تتعقد الأمور، ومهما تتقلب الأسباب، إنه وعد من يملك التحقيق)[1].

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ (الروم - ٦٠)، (إن الصبر وسيلة المؤمنين فى الطريق الطويل الشائك الذى قد يبدو أحيانا بلا نهاية، والثقة بوعد الله الحق، والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك، الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين، ومن تكذيبهم للحق وشكهم فى وعد الله، ذلك أنهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين، فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين، مهما يطل هذا الطريق، ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم، وهكذا تختم السورة التى بدأت بوعد الله فى نصر الروم بعد بضع سنين، ونصر المؤمنين، تختم بالصبر حتى يأتى وعد الله، والصبر كذلك على

(١) فى ظلال القرآن سورة غافر أية ٥٥

محاولات الاستخفاف والزعزعة من الذين لا يوقنون)[1].

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ (غافر - ٧٧).

(وهنا نقف أمام لفتة تستحق التدبر العميق، إن هذا الرسول الذى يلاقى ما يلاقى من الأذى والتكذيب والكبر والكنود، يقال له ما مفهومه: أد واجبك وقف عنده، فأما النتائج فليست من أمرك، حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه، إنه يعمل وكفى، يؤدى واجبه ويمضى، فالأمر ليس أمره، والقضية ليست قضيته، إن الأمر كله لله، والله يفعل به ما يريد.

وإنه لأمر شاق على النفس البشرية، أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب البشرى العنيفة، ألعله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر فى هذا الموضع من السورة، فلم يكن هذا تكراراً للأمر الذى سبق فيها، إنما كان توجيهاً إلى صبر من لون جديد، ربما كان أشق من الصبر على الإيذاء والكبر والتكذيب.

إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة فى أن ترى كيف يأخذ الله أعداءه وأعداء دعوته، بينما يقع عليها العداء والخصومة من أولئك الأعداء، أمر شديد على النفس صعيب، ولكنه الأدب الإلهى العالى، والإعداد الإلهى لأصفيائه المختارين، وتخليص النفس المختارة من كل شىء لها فيه أرب، حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين.

ولمثل هذه اللفتة العميقة ينبغى أن تتوجه قلوب الدعاة إلى الله فى كل حين، فهذا هو حزام النجاة فى خضم الرغائب، التى تبدو بريئة فى أول الأمر، ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك ويعوم)[2].

(١) فى ظلال القرآن سورة الروم أيه ٦٠
(٢) فى ظلال القرآن سورة غافر أيه ٧٧

٥. الإستعانة بالصلاة:

إن المؤمن الحق لديه قوة مذهلة، وطاقة هائلة، طاقة متجددة لاتنضب أبداً، هذه القــوة موجودة فى أعمق أعماق قلبه، ولذلــك فهو يصبر صبراً لا يُطيقه أحد غيره، ويقوم بطاعات وواجبات لا يستطيعها سواه، ولكن على الرغم من وجود هذه الطاقة فى قلب كل مؤمن، إلا أنها موجودة بنسبة تتوافق مع مستوى أيمانه.

هذه الطاقة مستمدة من معونة رب العالمين، القوى المتين، الذى قال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقـرة- ٤٥)، (إن العبد إذا قام بين يدى ربه يناجيه، ويتلو كتابه هــان عليــه كل ما فــى الدنيا رغبة فيما عنــد الله ورهبة منــه، فيتباعد عن كل ما لا يرضى الله، فيرزقه الله ويهديه)[1].

(يتكــرر ذكر الصبر فى القرآن كثيرا، ذلك أن الله ســبحانه يعلم ضخامة الجهد الذى تقتضيه الاســتقامة على الطريق بين شــتى النوازع والدوافع، والذى يقتضيه القيام على دعوة الله فى الأرض بين شــتى الصراعــات والعقبات، والذى يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، مجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج، ولا بد من الصــبر فى هذا كله، لا بد من الصبر على الطاعــات، والصبر عن المعاصى، والصبر على جهاد المشاقين لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر، والصــبر على بعد الشــقة، والصبر على انتفاش الباطــل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشــائك، والصبر على التــواء النفوس، وضلال القلوب، وثقلة العناد، ومضاضة الإعراض.

وحين يطول الأمد، ويشــق الجهد، قد يضعف الصبر، أو ينفد إذا لم يكن هناك زاد ومدد، ومن ثم يُقرن الصلاة إلى الصبر، فهى المَعين الذى لا ينضب، والزاد الذى لا ينفــد، المعين الذى يجدد الطاقة، والزاد الذى يــزود القلب، فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع، ثم يضيف إلى الصبر، الرضى والبشاشة، والطمأنينة، والثقة، واليقين.

(١) أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن

إنــه لا بد للإنســان الفانى الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى، يســتمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة، حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفســاد وهى عنيفة، حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة فى عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئا وقد أوشك المغيب، ولم ينل شيئا وشمس العمر تميل للغروب، حينما يجد الشر نافشا والخير ضاويا، ولا شعاع فى الأفق ولا معلم فى الطريق.

هنا تبدو قيمة الصلاة، إنها الصلة المباشــرة بين الإنسان الفانى والقوة الباقية، إنهــا الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذى لا يغيض، إنها مفتاح الكنز الــذى يغنى ويقنى ويفيــض، إنها الانطلاقة من حدود الواقــع الأرضى الصغير إلى مجال الواقع الكونى الكبير، إنها الروح والندى والظلال فى الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود)[1]

ولذلك كان رســول الله ﷺ يقول (يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها)، وأيضا كان رســول الله ﷺ اذا حزبه أمر يفزع إلى الصــلاة، أى: إذا نزل به أمر مهم أو أصابه هم أو غم.

نعم أن رســول الله ﷺ إذا أهمه أمر ما انطلق مســرعاً إلى المعين الذى يستمد منه القوة، كان ينطلق إلى رب الأرباب وصاحب الأســباب، القوى المتين يسأله المعونة، وهذا ما تعلمة الصحابة والصالحين من بعدهم وساروا على نفس الطريق.

قــال تعــالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (الحجر:٩٧ - ٩٩).

(١) فى ظلال القرآن سورة البقرة آيه ١٥٣

٦ - فهم حقيقة الابتلاء :

وهو ما أحاول توضيحه فى هذا الكتاب، فالابتلاء كما قلت سابقاً هو سنة من سنن الله، يصيب بها المؤمنين كافه لأسباب قد أوضحت بعضها سابقاً، وهى سنه لا تحابى أحد من خلق الله، فكل المؤمن مبتلى إما بالسراء وإما بالضراء، وبالتالى بفهمك لحقيقة هذا الابتلاء تستطيع أن تصبر وتحتسب لله ما يقع لك من ألم ومشقة وجَهد، وتتعلم الدرس ليؤدى الابتلاء الدور الإيجابى الذى نزل من أجله.

٧ - الإعداد النفسى للابتلاء و معرفة سنن الله فى ابتلاء المؤمنين:

ذكـرت فى ابتلاء الدعـوة مقولة ورقة بن نوفل لرسـول الله ﷺ، (ليتنى أكون حيـا إذ يخرجك قومك)، ومقولة: (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي)، فتخيل رسول الله ﷺ وهو لم يُكلف بالرسالة بعد يستقبل هذا الخبر من عالم خبير يعلم ما يقوله.

إنـه يُخبره أن المسـتقبل به شـدائد وإضطهادات وعداوات، وممـن! من أقرب الأقربـين، من قومـه الذين يلقبونه بالصادق الأمين، ويحفظـون له مكانته وفضله بينهم، فكان لابد من هذه الرسـالة الصغيرة لرسـول الله ﷺ قبل البعثة ليسـتعد نفسياً لما هو قادم، وهى رسالة لكل مؤمن وليست لرسول الله ﷺ و فقط.

إن معرفـة كيف أن أنبياء الله وهم أكرم خلقه وأتقاهم قد إبتُلوا ابتلاء شـديداً، يجعـل لك قوة نفسـية عظيمة على تحمل الابتلاءات مهما كانت شـدتها، ولك أن تتخيـل حجم المحنة والمعاناة التى كانوا فيها فى قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾(البقرة - ٢١٤).

نعم، يسأل المؤمنين وفيهم رسولهم بين أظهرهم، متى نصر الله؟!

الألم شـديد، المعاناة شديدة، المحنة على أشد ما تكون، هذه هى طبيعة ابتلاء المؤمنين الصادقين.

وكذلـك معرفة كيف أن رسـول الله ﷺ وصحابته قد إبتُلـوا مثل هذا الإبتلاء، والصالحـين من بعدهـم، كل ذلك يمثل إطـار مرجعى يهيئ المؤمن نفسـياً للقدرة علـى الصبرعلى الابتلاء وإجتيازه بنجاح، وأقصـد بالإطار المرجعى كمفهوم عام، مجموعة الأفكار والقيم والخبرات التى تشـكل فى مجموعها وجهة نظر الإنسـان تجاه الأحداث المختلفة، وعلى أسـاس هذا الإطار المرجعى يكون رد فعل الإنسـان تجاه الحوادث المختلفة، بل وطريقة تعامله مع الناس من حوله.

هذا الإطار المرجعى، سيجعل فى خلفية عقلك صوره لابتلاء رسول الله ﷺ فى الدعوة إلى الله وهو يعرض نفسه على القبائل، وهو يؤذى ويخرج مهاجراً من بلده.

سيجعل فى خلفية عقلك صوره للابتلاء الذى واجهه بلال بن رباح، والابتلاء الذى واجهه عمار بن ياسر وأبويه.

سيجعل فى خلفية عقلك صورة للابتلاء الذى واجهه الإمام أحمد بن حنبل وشيخ الإسلام ابن تيميه وغيرهم من الدعاة إلى الله.

سيجعل فى خلفية عقلك صورة لأصحاب الأخدود، وصورة لسحرة فرعون لما آمنوا.

سيجعل فى خلفية عقلك صورة لقارون وماله، وأن ماله لم يغنى عنه من الله شيئاً.

ووصيتى لك أخى الكريم، اقرأ تاريخك جيداً، فمن لا تاريخ له، لا مستقبل له أيضاً.

فى بداية الدعوة وقع الصحابه فى ابتلاء الإيمان وصبروا وتعلموا الدرس.

فى غزوات أحد والخندق وحنين، وقع الصحابة فى الابتلاء، وتعلموا الدرس.

فى حروب الردة وقع الصحابة فى الابتلاء وتعلموا الدرس.

الأجيال المتعاقبة من أجيال المسلمين العظماء، جميعهم وقع عليهم الابتلاء بأنواعه وأشكاله المختلفة، وكل جيل يسلم للجيل الذى يليه خبرات التجارب والأحداث.

والآن جاء دورنا فى الابتلاء، فهل تعلمنا الدرس؟!

هل لا بد أن نقع فى نفس الابتلاء الذى وقع فيه من سبقونا؟ وبدلاً من أن نَعْتبر بمن سبقنا، نكون نحن عبرة لم يأتى من بعدنا.

إن لله سنن لا تتبدل ولا تتغير، فإن نحن بدلنا وغَيّرنا فى ديننا (كما يحدث الآن) فإننا لا محاله سنقع فى الابتلاء الشديد، والخوف كل الخوف أن يكون ابتلاء أستبدال ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ (محمد - ٣٨).

هي دعوة للمسلمين عامة وللمؤمنين خاصة، أن يعودوا إلى دينهم ومنهج ربهم كاملاً غير منقوص، لا تغرنهم الحياة الدنيا، ولا يخافون في الله لومة لائم، وأن يتعلموا من تجارب من سبقوهم، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

٨. النظرة الشاملة والأمل:

بعد غزوة أحد، قرر المشركين فى قريش القضاء نهائياً على الدعوة الإسلامية، فجهزوا جيشاً جراراً منهم ومن حلفائهم بلغ تعدادهأ عشرة ألاف مقاتل، وكان ذلك العدد، عدداً مهولاً، بمقاييس قدرات المدينة وقدرات أهلها فى ذلك الوقت، وتحرك الجيش بقيادة أبى سفيان بن حرب بهدف وحيد، طمس الإسلام وإبادة المسلمين.

وبلغت الأخبار للمسلمين فى المدينة وأخذ رسول الله ﷺ باقتراح سلمان الفارسى رضى الله عنه، حفر خندق يمنع وصول الجيش المعتدى إلى المدينة.

وفى معاناة شديدة، بين عوامل جويه صعبة، وظروف معيشية ضيقة، وخوف من قدوم الأعداء على غرة، حفر الصحابة الخندق بأيديهم، ونقلون التراب على ظهورهم، يساعدهم فى ذلك رسول الله ﷺ.

وبينما هم كذلك إذ اعترضت صخرة عظيمة مسار الحفر، ولم يستطع الصحابة التعامل معها، فجاء رسول الله ﷺ وأخذ المعول وقال بسم الله، فضرب ضربة كسر منها ثلث الحجر، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا، ثم قال: بسم الله، وضرب ثانيةً فكسر ثلث الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إنى لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا، ثم قال: بسم الله، وضرب ضربة كسرت بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا.

إنها البشارة النبوية فى هذا الوقت العصيب تثبيتاً للمؤمنين، إنها البشارة أنه مهما كانت المعاناة الآن... ومهما كان الألم الآن... ومهما كان الجَهد الآن... فإن دين الله ومن سار على هُداه لا محالة منتصر، وستكون له السيادة، طال الزمان أم قصر.

إننا فى العادة ننظر إلى الأحداث نظرة قاصرة لحظة وقوعها، ولا نربط بينها وبين الأحداث المتتالية عبر فترة زمنية طويلة نسبياً وبالتالى نفقد القدرة على

الربط بين المقدمات البعيدة والنتائج الحالية، وما هكذا ينبغى أن يكون المؤمن، لأن رب العالمين قد جعل لنا العبرة والمثال فى القصص القرانى، أن الأحداث حتى وإن كانت شديدة وإن كانت مؤشراتها تدل على اليأس والإحباط، إلا أن الله يُخرج النصر والتمكين فى أشد اللحظات صعوبة على المؤمنين، فينقلب الحال من ظلام سائد إلى نور ساطع، وقد رأينا ذلك فى قصة نبى الله يوسف عليه السلام، ورسول الله موسى عليه السلام، والأحداث التاريخية المختلفة حال مُراقبتها على فترات زمنية طويلة دليل على ذلك.

إن الله هو المُدبر، فله تدبير آخر غير تدبير البشر، وله حكمة قد لا يعلمها البشر، وما يبدو للنظر على أنه سلسلة عشوائية من الأحداث الغير مُترابطة لحظة وقوعها، هى فى الأساس من تدبير رب العالمين العليم الحكيم، فتقود المؤمنين فى مسار مُقدر حتى يتم تحقيق مراد الله فى أرضه.

وبالنظر إلى الابتلاء على أنه مرحلة عابرة، يأتى بعدها نصر وتأييد من الله، فإن المؤمن الواثق بالله، بنظرة شامله، وانتظاراً للفرج من الله، ستقوى نفسه، وتقوى دوافعه للثبات على الصبر، وتزداد حماسته، بل وتفيض على من حوله، و يستطيع بإذن الله أن يتحمل عناء الابتلاء الذى قد يقع عليه، خاصة وأن معه بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال: (ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله عز وجل بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عز يعز الله عز وجل به الإسلام، أو ذل يذل به الكفر)[1].

ووعد من رب العالمين، أنه سيبدله بعد الخوف أمن، وبعد الضعف سيادة وتمكين ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور - ٥٥).

(١) أخرجه أحمد، والطبرانى فى مسند الشاميين، والحاكم فى المستدرك رقم (٨٣٢٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

٩ - الدعاء واللجوء إلى الله:

عندما يصيبك الهم والألم من الابتلاء، قف بين يدى الله وارفع يدك إلى السماء وقل يارب، وإقرأ سورة الضحى، لتريح قلبك، وتذكر ما ودعك ربك وما قلى.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر - ٦٠).

اللجوء إلى الله والتضرع بين يديه لكشف البلاء، أهم وأقوى أسلحة المؤمن التى يدفع بها الضر والبلاء، ويواجه به ما لا قبل له به.

إن الله يعلم ما بالأنفس من إيمان وتقوى فهو خالقها ولطيف بها ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك - ١٤).

ولذلك كان اللجوء إلى الله بالدعاء ضرورة لا غنى عنها للمسلم، لحماية نفسه من الفتن والابتلاءات التى تصيبة عسى الله أن يجعل له منها فرجاً ومخرجا.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة - ١٨٦)

وقال ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ (النمل - ٦٢)

سحرة فرعون لما آمنوا وهددهم فرعون بالقتل و الصلب قالوا: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف - ١٢٦)

ويقول د. عبد الرحمن الميدانى فى تدبره لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ (الأعراف: ٥٥)، **(المعنى: اسألوا الله الذى هو ربكم يُمدكم دوماً بعطاءات رُبُوبيته، فى كل أموركم، سواء منها ما تجدون أسبابه مسخرة لكم بيُسر، أم لا تتيسر لكم أسبابه، فهو خالق الأسباب والمُسببات، ودُعاءكم له هو أول تعبير تلقائى عن عبادتكم له، متى صح إيمانكم به، وبأنه مالك كل شىء، وبأنه المُتصرف بخَلقِه، وبأنه لا يكون شىء فى الوجود إلا بأمره أو بإذنه وتمكينه، وتسخيره للأسباب وبهدايته ومعونته)**[1].

(١) معارج التفكر ودقائق التدبر(٤ / ٢٩٥)

إن الدعاء هو الركن الشـديد الذى يرتكن إليه المؤمن، فيكون قلبه مُتصلاً برحمة الله، مُنتظراً معونته وتأييده، فيستمد منه القوة للصبر على البلاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(الدعاء سبب يدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإذا كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه).

عن عبد الله بن مسـعود رضى الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: (ما أصاب أحداً هـم ولا حزن قط فقال اللهم إنـى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور بصرى وجلاء حزنى وذهاب همى إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحا)

قالوا: يا رسول الله ينبغى لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟

قال: (أجل ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن)[1].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: (مَن سرَّه أن يستجيبَ الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء فى الرخاء)[2].

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

(ما على الأرض مسـلم يدعوا الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلهـا، مالم يدع بإثـم أو قطيعة رحم، فقال رجل من القـوم: إذا نُكثر، قال: الله أكثر)[3].

---

(١) صحيح، صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ١٩٩

(٢) رواه الترمذى والحاكم، قال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبى، وقال الألبانى (حسن) حديث ٦٢٩٠ فى صحيح الجامع.

(٣) حديث حسن صحيح رواه الترمذى فى سننه كتاب الدعوات، رقم ٣٥٧٣، ومسند الإمام أحمد برقم ١١١٤٩

ولذلك كان عبد الله التيمى يقول: (أكثروا من سؤال الله العافية، فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم)[1].

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه كان يقول: جدوا بالدعاء فإنه من يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له[2].

ولكن!!!

أقول لك قاعدة عامة حتى لا تيأس من دعائك وأنت ترى أن الله لا يستجيب لك:

(ما يحتاج البذل لا يكفى فيه الدعاء)

قد يظن البعض أنه لإنجاز أهم الأشياء وأصعبها، قد يظن البعض انه لتغيير الوضع القائم والحياة التى يعيش فيها من بؤس وضنك ومشقة وألم، يكفيه أن يرفع يده إلى السماء ويدعوا رب العالمين ويتكل على ذلك، ويظن أنه يُحسن صنعاً، فيخدع نفسه ويقول: يقول الله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ (النساء-٣٢)، ثم يترك العمل ويُهمل البحث عن الرزق وينتظر أن ينزل عليه ذهب من السماء، أو من يقول يقول الله فى الحديث القدسى: (إستهدونى أهدكم)، فيرفع يده ويقول اللهم إهدنى، وينتظر علامات الهداية تتنزل عليه من الرحمن، دون أن يبذل جهده فى العمل الصالح لعل الله يهديه إلى الطريق المستقيم الذى يدعى أنه يبحث عنه، وكذلك من يطلب النصر والتمكين على الأعداء فيدعوا الله ليل نهار، وينتظر أن يأتى هذا النصر إلى بابه ليطرقه دون ان يبذل لتحقيق أسباب النصر.

نعم يُجيب الله المُضطر الذى لا يجد حيلة ولا مُعين، ولكن إن توفرت لك كل الأسباب التى يُمكنك الإعتماد عليها، ثم تُهمل كل ذلك وترتكن إلى الدعاء، فقد

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم ١٥٧
(٢) المصنف لابن أبى شيبة كتاب الدعاء

خالفت سنة رسول الله ﷺ، وإقرأ مثال على ذلك فى الهجرة النبوية والمعاناة التى عاناها رسول الله ﷺ والصديق أبا بكر رضى الله عنه، حتى تتم الهجرة، ألم يكن يكفيه الدعاء إن كان الدعاء يكفى؟!

إنتبه يرحمك الله حتى لا تيأس وتظن أن الله تركك بدون نُصرة، حقق الأسباب كاملة وستأتى معونة الله مع الدعاء إن شاء الله.

١٠. التزام طاعة الله فى الرخاء:

فكما أن الجزاء من جنس العمل، إن إتبعت طاعة الله فى وقت رخاءك ويسرك، ينجيك الله فى وقت احتياجك وعسرك.

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال: (كنت رديف النبى ﷺ فقال يا غلام أو يا غُليم: ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن فقلت بلى، قال: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك **تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة** وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله...)[1]

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار فى جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض **انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم**،

فقال أحدهم اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران وامرأتى ولى صبية صغار أرعى عليهم فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى وأنه نأى بى ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما وأكره أن أسقى الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمى فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر **فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك** فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء.

وقال الآخر اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها فلما وقعت بين رجليها قالت يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا

(١) حديث حسن

بحقه فقمت عنها **فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك** فافرج لنا منها فرجة ففرج لهم.

وقال الآخر اللهم إنى كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز فلما قضى عمله قال أعطنى حقى فعرضت عليه فرقه فرغب عنه فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها فجاءنى فقال اتق الله ولا تظلمنى حقى قلت اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها فقال اتق الله ولا تستهزئ بى فقلت إنى لا أستهزئ بك خذ ذلك البقر ورعاءها فأخذه فذهب به فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى ففرج الله ما بقى[1].

ولكن ليس بالدعاء فقط تتم النجاة، بل لابد معه من عمل صالح يقوى الدعاء، فرعون وهو يغرق ينادى الله أن ينجيه، ويصف حاله رب العالمين فيقول:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (يونس- ٩٠)، فرعون الطاغية المتجبّر، الظالم الذى قتل الأبرياء والضعفاء الذين وقعوا تحت سطوته، الذى نُزعت الرحمة من قلبه، يسأل الله أن ينجيه الأن، وينزل جبريل مسرعاً ليدس فى فمه من طين القاع مخافة أن تدركه رحمة رب العالمين.

روى الترمذى، عن ابن عباس، أن النبى ﷺ قال:

لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل: يا محمد، فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه، مخافة أن تدركه الرحمة[2].

ولكن الله أهلكه وذكر سبب ذلك فقال: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ (يونس-٩١)، فهو قبل ذلك كان مفسد فى الأرض، ظالم، مستكبرعن الخضوع لله، ولا

(١) صحيح مسلم كتاب الرقائق

(٢) قال الترمذى: هذا حديث حسن. وقال الألبانى: صحيح لغيره

يحب الحق وأهله، فلا نجاة له ولا لمن على شاكلته، ولذلك قال الله ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ **(يونس - ٩٢).**

لما وقع يونس عليه السلام **فى الكرب والهم، وهو فى ظلمات بطن الحوت، نادى ربه، فقال** ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **(الأنبياء - ٨٧)**

فاستجاب له رب العالمين ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾**(الأنبياء - ٨٨)، وذلك لأنه كان من الذاكرين قبل ذلك:** ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ﴾ **(الصافات: ١٤٣ - ١٤٤).**

١١ - التزام الاستغفار

﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النمل - ٤٦)

﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (هود - ٩٠)

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (هود - ٥٢)

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ ﴾ (نوح: ١٠ - ١١).

(أى: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وَأَدَرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أى: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها)[1].

قال قتادة: (إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دوائكم فالاستغفار)

وكان على كرم الله وجهه يقول: العجب ممن يهلك ومعه النجاة!

قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار.

ومع الاستغفار، تعلم من أخطاؤك:

اعلم أخى الكريم أن الطبيعة البشرية متمردة، ليس من السهل التغلب عليها، بل لابد من صبر ومصابرة طويلة، وفى خلال ذلك، فإن المؤمن قد تغلبه نفسه، فيقع فى الخطأ والمعصية، فيفعل ما لا ينبغى له أن يفعله، ولكن المؤمن يتعلم من أخطاءه، فيرجع ويتوب سريعاً عما بدر منه، ويعزم على عدم الرجوع، ويكون بذلك قد تعلم درس جديد، وإزداد حكمة أكثر مما كان لديه، حتى ترتقى نفسه إلى أعلى صور الإيمان، وهو مقام الإحسان، حيث يعبد الله كأنه يراه، ومن هذا المنطلق يمكن القول

---

(١) تفسير ابن كثير

أن الفتن والابتلاءات التى تصيب المؤمن، صورة من صور التوجيه والتعليم وتحديد المسار الذى ينبغى للمؤمن أن يسير فيه إن فطن إلى دور الابتلاءات فى حياته وأراد لنفسه الفوز برضوان الله.

إن الفــرق بين المؤمن وغــيره، أن المؤمن يتعلم من أخطــاؤه، فيزيد من حصيلته الإيمانيــة والمعرفية، بينما غــير المؤمن، ما تزيده الابتلاءات والفتن إلا خســراناً وإرتداداً حتى يصل إلى أسفل الدركات.

لا تيأس من نفســك إن إرتكبت الذنب، وتكرر وقوعــك فيه، إن إبليس يريدك أن تكفر بنفســك، وتقع فريسة لوسوسته أن الله لن يغفر لك، وأن نفسك أضعف من أن ترجع إلى الله، يريدك أن تشــاركه بعض صفاته، فتخســر كما خسر، إعلم أن الله يقــول: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر - ٥٣).

إن الله يغفر الذنوب جميعاً، فلا تيأس من رحمة الله، و جاهد نفســك وإســتغفر دائماً حتى تعود إلى طريق ربك.

١٢. التزام الجماعة:

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران - ١٠٣)

عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى فقلت يا رسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر قال نعم قلت وهل بعد ذلك الشر من خير قال نعم وفيه دخن قلت وما دخنه قال قوم يهدون بغير هديى تعرف منهم وتنكر قلت فهل بعد ذلك الخير من شر قال نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت يا رسول الله صفهم لنا قال هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا قلت فما تأمرنى إن أدركنى ذلك قال تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.

من حديث حذيفه رضى الله عنه يبين لنا رسولنا الكريم ﷺ أن فى إلتزام الجماعة المؤمنة بالله نجاة من الشر(الفتن) التى تصيب الناس بشده فى أخر الزمان.

التزام الجماعة يحمى المؤمن من الانحراف إلى طرق أهل الفتنة الذين هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، وقلوبهم قلوب شياطين، وينخدع الناس بهم لتزينهم للباطل فلا يشعر الناس أنهم يُساقون إلى الفتنة.

إلتزام الجماعة من أسباب تقوية الإيمان والمحافظة عليه، فالصلاة والصوم والحج وغيرها من شعائر الإسلام تؤدى بشكل جماعى، مما يُثبت أن التزام الجماعة من أهم العوامل التى تزيد الإيمان وتقويه.

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من ثلاثة نفر فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، **فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**)[1]

(١) رواه الحاكم فى مستدركه و أبو داود بإسناد حسن

قال ابن مسعود رضى الله عنه: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذى أمر الله به، وإن ما تكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون فى الفرقة.

وعنه أيضاً رضى الله عنه فى قول الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ قال: الجماعة روى عنه وعن غيره من وجوه، يقول القرطبى: والمعنى كله متقارب متداخل فإن الله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة فإن الفرقة هلكة، والجماعة نجاة.

قال النبى ﷺ: (وأنا آمركم بخمس، الله أمرنى بهن السمع والطاعة والجهاد والهجرة **والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع** ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم.

فقال رجل يا رسول الله، وإن صلى وصام قال وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم **المسلمين المؤمنين عباد الله**) (١).

بينما التفرق من أسباب الضعف وذهاب القوة، وسيؤدى لا محالة إلى الهلاك بالإضافة إلى العقاب من رب العالمين، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران - ١٠٥)

وقال ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال - ٤٦)

وفى سورة العصر: (فى هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام، وتبرز معالم التصور الإيمانى بحقيقته الكبيرة الشاملة فى أوضح وأدق صورة، إنها تضع الدستور الإسلامى كله فى كلمات قصار. وتصف الأمة المسلمة: حقيقتها ووظيفتها، فى آية واحدة هى الآية الثالثة من السورة، وهذا هو الإعجاز الذى لا يقدر عليه إلا الله.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾

(١) الترمذى ٢٨٦٣ وقال حديث حسن صحيح

أما التواصى بالحق والتواصى بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة (أو الجماعة المسلمة) ذات الكيان الخاص، والرابطة المميزة، والوجهة الموحدة.

الجماعة التى تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها، والتى تعرف حقيقة ما هى مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح، الذى يشمل فيما يشمل قيادة البشرية فى طريق الإيمان والعملالصالح، **فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى**

فمن خلال لفظ التواصى ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة(أو الجماعة) المتضامنة المتضامنة، الأمة الخيرة، الواعية، القيمة فى الأرض على الحق والعدل والخير، وهى أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة، وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام، هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير، متواصية بالحق والصبر فى مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصى فى القرآن.

والتواصى بالحق ضرورة، فالنهوض بالحق عسير، والمعوقات عن الحق كثيرة: هوى النفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة، وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين.

والتواصى تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى فى الهدف والغاية، والأخوة فى العبء والأمانة، فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معا فتتضاعف. تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله، وهذا الدين (وهو الحق) لا يقوم إلا فى حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال.

والتواصى بالصبر كذلك ضرورة، فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولا بد من الصبر، لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبعد النهاية.

والتواصى بالصبر يضاعف المقدرة، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتساند الجميع، وتزودهم بالحب والعزم والاصرار، **إلى آخر ما يثيره من معانى الجماعة التى لا تعيش حقيقة الإسلام إلا فى جوها، ولا تبرز إلا من خلالها، وإلا فهو الخسران والضياع**)[1]

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس إنى قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال:

(أوصيكم بأصحابى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف، ويشهد الشاهد ولا يُستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد.

من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن)[2].

(١) فى ظلال القرآن، سورة العصر بتصرف

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى برقم ٢١٦٥، وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه

١٣ - اليقين بموعود الله، اليقين بالجنة:

اليقين بموعود الله هو مُفتاح الصبر، فلكى يستطيع المؤمن أن يصبر على ما ينزل به من ابتلاءات ومصائب لابد أن يكون على يقين راسخ وثقة فى موعود الله.

فى غزوة بدر الكبرى، بعد أن اشتد القتال بين جيش المشركين وجيش رسول الله ﷺ، أمرهم النبى ﷺ بالهجوم المضاد قائلا لهم: (شدوا)، وكان مما قال أيضاً: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)، وحينئذ قال عُمَيْر بن الحُمَام رضى الله عنه: بَخْ بَخْ.

فقال رسول الله ﷺ: (ما يحملك على قولك: بخ بخ؟)

قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها.

قال: (فإنك من أهلها)، فأخرج تمرات من قَرَنِه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل.

وفى حديث خباب بن الأرت رضى الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستضر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه،** والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون).

تخيل هذا الألم والمعاناة التى نالها من يُنشر بالمناشير أو يُمشط بأمشاط الحديد، ما الذى دفعة إلى كل هذا الصبر؟! إنه اليقين بموعود الله.

إن الرغبة فى شئ ما حاجة إنسانية شديدة القوة، فهى تدفع الإنسان دفعاً فى سبيل إشباع هذه الحاجة، وكلما زادت الرغبة فى حاجة ما، زادت شدة التعلق

بها، ويتجه العقل والقلب والوجدان فى هذا الإتجاه، إتجاه إشباع هذا الرغبة.

ومــن أعظم الرغبات الطمع فى رضوان الله والفوز بجنته، والمؤمن الذى على يقين أن موعــده هناك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، يســتطيع بعون الله أن يصمد أمام الفتن والابتلاءات التى تصيبــه، فعقله وقلبه مُعلق هناك فى جنة الرحمن، يراها دائماً أمام عينيه.

جنة الرحمن خلقها الله للمؤمنين، وأعدها لهم لتكون مُســتقرهم الأبدى وجعل فيهــا مالا عــين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشــر، بل وأعظم من ذلك فسقفها عرش الرحمن.

١٤ - تعظيم الله وأوامره فى نفسك:

فكلما عظم الله فى نفسك، كلما زدت خوفاً منه، فيمنعك الخوف أن تقع فى معاصيه.

ويكون تعظيم الله عن طريق التفكر فى خلقه وعظيم قدرته.

هل تعلم أن العقل البشرى يعجز عن استيعاب الحجم الهائل للكون الذى نعيش فيه، والذى إن دل يدل على عظمة خالقه!

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء - ٣٠).

خلق الله الكون من كتلة إبتدائية واحدة[1]، كدليل على أن الخالق واحد!

ثم بأمر الله انفلقت هذه الكتله، ونشأت منها الذرات وتشكل الدخان الكونى الذى تكثَّف فيما بعد وشكل السماء والأرض، يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

(فصلت: ١١ - ١٢).

الكون الذى نعيش فيه يتكون من مجرات، والتى تتكون من مجموعات شمسيه، والتى هى الأخرى تتكون من نجوم وكواكب وأقمار.

المجرات والنجوم تشكل فى مجملها نسيجاً تم حبكه بإحكام، وفى ذلك يقول تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ (الذاريات: ٧).

ولكن، كم عدد المجرات فى الكون؟

أحصى العلماء أكثر من مائة ألف مجرة للكون المعروف بالنسبة لنا، (فالكون عبارة عن فضاء معروف و غير معروف، المعروف هو ما اكتشفه العلم و الغير

(١) وهى ما اصطلح عليه العلم الحديث بنظرية الانفجار الكبير big bang

معروف الذى لم يكتشــفه العلم) ولكن العدد الإجمالى للمجرات غير معروف، رغم أن بعض العلماء يقدره بنحو مائتى مليار مجرة!!!

هل تعى ماذا يعنى الرقم مائتى مليار مجرة، يعنى ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مجرة، هل تستطيع تخيل العدد المهول للمجرات.

نأتى للنجوم:

النجــم، هو كرة ضخمة من الغازات الســاخنة، وينتج عنها ضوء وحرارة بفعل حدوث تفاعل يســمى الاندماج النووى، ومثال عليها الشــمس، ويقدر العلماء عدد النجــوم فى مجرة درب التبانة والتــى توجد فيها الأرض التى نعيش عليها، بأنه يتراوح بين مائة مليار إلى ثلاثمائة مليار نجم.

هذا بالنســبه لمجرة واحدة متوســطة الحجم، فمــا بالك بباقــى المليارات من المجرات، هل تستطيع تخيل عدد النجوم؟

نأتى الأن للمسافة بين النجوم:

على الارض نقيس المسافات بالكيلو متر او الميل، بينما فى الفضاء تقاس بالضوء، كيف ذلك؟

مثال بســيط: اذا تحركت مكــوك فضاء يصل ســرعته إلى ٣٠,٠٠٠ كيلومتر فى الساعة فى إتجاه القمر فإنه سيحتاج إلى ما يُقارب١٣ ساعه متواصل بهذه السرعة، وذلك لأن متوســط المســافة بين الأرض والقمــر تقريبــاً ٣٨٤,٠٠٠ كيلومتر، بينما المســافة بين الشــمس والأرض نجدها تقريباً ١٥٠ مليون كيلومتر، وتعنى الســفر بهذه السرعة ٥٠٠٠ ساعه بما يقارب ٧ أشهر متواصلة.

لذلك ولضخامة المســافات فى الفضاء، قام علماء الفلك بقياس المسافات فى الفضاء بطريقه اخرى، حيث أستخدم العلماء الضوء كمقياس للمسافات فى الفضاء.

فإستخدم العلماء مصطلح الثانية الضوئية، على أنها المسافة التى يقطعها الضوء فى الثانية، ومصطلح الســنة الضوئية وهى المســافة التى يقطعها الضوء فى الســنة وتعادل تقريباً ٩٣٣١٢ مليار كيلومتر.

سـرعه الضوء تقريبا ٣٠٠ الف كيلو مـتر فى الثانية الواحدة، بمعنى أن الضوء يقطع مسافة مليون كيلو متر تقريباً فى ٣ ثواني.

لذلك وبهذه السرعة الهائله يحتاج الضوء تقريبا إلى ثانية واحدة حتى يصل من القمر وإلى ٨ دقائق حتى يصل من الشمس.

بينما أقرب النجوم إلينا بعد الشـمس يبعد عنا نحو ٤,٢ سـنة ضوئية، أى أن الضـوء بهذه السـرعة المذهلة يلزمة أكثر من أربع سـنوات للوصـول إلينا من هذا النجم.

المجـرة التى نعيش فيها تسـمى درب التبانة، قرصية الشـكل، ويبلغ قطرها تقريباً

١٠٠,٠٠٠سنة ضوئية وسمكها حوالى ١٠٠٠ سنة ضوئية.

اقرب مجرة لنا اسمها Andromeda وتبلغ المسـافة بين الارض و هذه المجرة حوالى ٢,٥٣٧ مليون سنة ضوئية بمعنى أن الضوء يحتاج مليونين و ٥٣٧ سنة حتى يصل منها.

بينمـا المجرات البعيدة تصل المسـافة بينها وبين الأرض أكثر من مليار سـنة ضوئية.

هل صدمتك هذه الحقائق المذهلة؟! هل أصابك الدوار والذهول وأنت تقرأ ذلك؟!

هـذا الكون الهائل بـكل ما فيه هو أحـد المعجزات الدالة علـى أن هناك قدرة لا محـدودة خلقتـه وأبدعته ووضعـت نظامه بدقـه متناهيه حيـث ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يـس:٤٠)، هـى قدرة رب العالمـين الـذى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢)، وكل هذا الملكوت يندرج تحت السـماء الاولى فقط، وسـبحان الله الذى قال:

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقـرة: ٢٥٥)، إن عظمـة المخلوق تدل على عظمة الخالق، والسؤال الأن: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار - ٦).

ولم تنتهـى صدمة الحقائق المذهلة عن الكون بعـد، فهناك حقيقة أخرى أعظم

وأعظم، ذكرها رب العالمين فى كتابة الكريم للدلالة على قوته التى لا تُقهر، وعظمته اللامحدودة، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء - ١٠٤).

وقال:

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(الزمر - ٦٧).

عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال[1]:

جاء حبر إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد! أو يا أبا القاسم! إن الله تعالى يُمسك **السماوات** يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ تعجبا مما قال الحبر، تصديقا له. ثم قرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

(يطوى الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟) [2]

فكما بدأ الله خلق الكون من كتلة واحدة، انفجرت وتوسعت وشكلت الكون الحالى الذى نراه ونشعر به، فسوف يجمع ذلك كله بقوته وقدرته على ما كان عليه إبتدأ[3].

---

(١) متفق عليه

(٢) متفق عليه

(٣) وهى إحدى النظريات العلمية عن إنتهاء الكون وتسمى الإنسحاق العظيم the big crunch، يقول د. زغلول النجار:

إن الله عظيم، كن على يقين من ذلك، إجعل (الله أكبر) جزء من حياتك، وفى كل أمر من أمورك، وستتغلب بيقينك على ما تواجهه من إبتلاءات وشدة ومعاناة، فهو لا يترك عبادة المؤمنين بدون معونة.

انظر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.

انظر كيف أغرق الأرض بالطوفان لنوح ومعه قلة من المؤمنين،

انظر كيف شق البحر لموسى عليه السلام لينقذه ومن معه من المؤمنين.

وإنظر كيف غير من طبيعة النار فجعلها برد وسلاما على إبراهيم.

وانظر كيف أخرج يوسف من غيابات البئر وظلمات السجن، ليُمكن له فى الأرض.

وكيف حمى رسول الله ﷺ من كفار قريش وجعل من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً، فأغشاهم فلم يبصروه وهو يسير بينهم.

هذا هو الله، فأرى الله من نفسك خيراً حتى تستحق معونته وتوفيقه.

(ومن عجائب القرآن التى لا تنقضى أن تأتى الإشارة إلى هاتين النظريتين نظرية الانفجار العظيم، ونظرية الانسحاق العظيم، فى سورة واحدة هى سورة الأنبياء. فسبحان من أنزل القرآن الكريم على عبده ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وسبحان القائل فى محكم كتابه:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣)

وأخيراً، احذر واحترس

وهى الرسـاله الأخـيره فى هذا الكتاب، ففى هذه الفـترة الزمنيه من عمر أمة الإسلام، حيث ضعُف الإسـلام فى نفوس أتباعه، وإبتعدوا كل البُعد عن تعاليمه، وإتبعوا سنن الذين من قبلهم من يهود ونصارى، فضلوا ضلالاً بعيداً، فتركوا الصلاة واتبعوا الشـهوات وأهواء النفس، هنا لابد أن يكـون لك أخى الكريم وقفه تراجع فيها نفسك وتعرف ما هو مُلخص حياتك الدنيا، لابد أن تعرف من انت حقيقة؟

أنت نطفة صغيرة نمت فى مكان ضيق مظلم، ثم خرجت إلى دنيا واسـعة زاهية مُضيئة، لم تكن تعلم شـيئا، ولم تكن تملك شيئا، كنت ضعيفاً هشاً، ثم صارت لك سـلطة وقوة، واصبح لديك أموال وبنين، ثم بعد ذلك، كما بدأت سـتعود، ستصبح ضعيفاً، لا تملك من أمر نفسك شئ، ثم ستكون تراباً كما بدأت.

ولكن ليس الأمر هكذا وفقط، إن الله الذى أنشأك من هذه النطفة، ثم أمدك بالقوة والرزق، سوف يبعثك من جديد ليحاسبك على ما كان منك فى رحلة حياتك الدنيا.

إن لله عليك حق، أن تعبده ولا تشـرك به شـئ، وأن تكون حياتك ومماتك طبقاً للمنهج الذى إرتضاه لك، فإن وفيت بذلك، أمدك بقوة ثانية، ولكنها قوة دائمة لن تزول، وسيمدك بمُلك أخر ورزق أخر ولكنه أيضاً لا يزول.

أنت محظوظ أنك مسلم مؤمن بالله، أنت محظوظ أنك حى ترزق، لم ينتهى الوقت بعد، يمكن أن تنقذ نفسـك مما تجده من الفـتن المحيطة بك، لم يُغلق باب التوبة بعـد، ما زالت الفرصة مُتاحة، ولكن إحذر وإحترس، أنت لا تدرى متى سـيأتى أجلـك وتنتهى هذه الفرصة فاغتنمها الأن، إبدأ فـوراً من الأن، إبحث فى حياتك الشخصية، ضع علامات على جوانب الخلل فيها، عالج نفسك بنفسك، قبل أن يأتى يـوم تقول فيه رب إرجعون، حتى تُغير وتعدل مـا كان يجب عليك تعديله وأنت حى، إن الأمر راجع إليك أنت، إن أردت النجاة فى هذا العصر الصعب الشديد.

إن الله يريد بعباده اليسـر ولا يريد بهم العسـر، يريد الله لهم الرحمة ولا يريد لهم العذاب.

إن الله عندما يبتلى المسلم فإنه يقود المسلم إلى الطريق الذى يؤدى به إلى تحقيق العبودية له سبحانه وإلى الطريق الذى يرفع من درجته فى الجنة، وإن استطاع هذا المسلم أن يفهم مراد الله فى خلقه والمسار الذى تُبنى عليه حياة كل واحد منا، لرضى بقضائه وقدره، واطمأنت نفسه أن من يُدبر له هو العليم الحكيم، ومن حاد عن هذا فقد ضل ضلالاً بعيداً وإقرأ معى هذا الموقف:

عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال: التقى النبى ﷺ هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفى أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان! فقال الرسول ﷺ: أما إنه من أهل النار!

فقال رجل من القوم: أنا صاحبه.

قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله قال: وما ذاك؟ قال: الرجل الذى ذكرت آنفاً أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت فى طلبه ثم جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه فى الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة)[1].

لننظر إلى حال هذا الرجل قبل موته، وإلى الطريق الذى كان يسير عليه، فلقد كان (فيما يبدو للناس)، مؤمنا بالله وبرسوله، بل وخرج مجاهداً مع رسول الله ﷺ وأثبت شجاعة فائقة فى القتال، فهو طريق فى نهايته الجنة إن شاء الله، ولكن!

(١) رواه البخارى، باب: لا يُقال فلان شهيد

هــذا الرجل لم يصبر علــى الابتلاء، لم يصبر على أخر امتحــان وُضع فيه قبل موتــه، فقتل نفســه، فأصبح من أصحاب النار، فالإختيار كان له، وهو إســتعجل الموت ولم يرضى بقضاء الله، ولكن الله بعلمه المحيط أخبر نبيه بما ســيكون من أمر هــذا الرجل حتــى يكون عبرة لمن خلفه من المؤمنين، أنه ليس فقط أنك على الطريق إلى الله، يعنى أنك ســتظل عليه وســتموت عليه، بل ينبغى عليك كمؤمن أن تصبر أيضاً على هذا الطريق، أن تجاهد نفسك، وتجاهد ألمك ومعاناتك حتى لا تسقط وأنت قاب قوسين أو أدنى من حصولك على مكانك فى جنة الرحمن.

إن المؤمن قوى ثابت على دينه، له منهج واضح وطريق يسير عليه، لا يتزحزح عنــه مهما كانت الحوادث، نعم يتألم مــن الفتن والابتلاءات التى تحيط به، وتقع عليه، نعم يتألم مما يرى ويســمع وتذوب نفســه أن يُعصى رب العالمين جهراً ليل نهار، نعم يتألم من سجن الحياة الدنيا، ولكن شعاره لنا أعمالنا ولكم أعمالكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ **(يونس:٥٧ - ٥٨).**

فهرس المحتويات

الموضـــــوع	الصفحـة
المقدمة	٥
معنى الابتلاء	١٧
تمهيد	١٩
لماذا ينزل الابتلاء بالمؤمنين	٣٩
الدروس والحكمة الخفية فى الابتلاء	٤٢
أمثلة على بعض من الحكمة الخفية فى الابتلاءات	٤٥
أنواع من الابتلاءات	٥١
١ – اختبار الإيمـان	٥٣
٢ – اختبار الصبر	٥٧
على ماذا يجب أن نصبر؟	٦٠
لماذا لا نصبر	٦٢
رسالة إلى الذين لا يصبرون	٦٣
صورة من ابتلاء الصبر	٦٤
٣ – ابتلاء رفع الدرجات وتكفير السيئات	٦٧
مثال لابتلاء رفع الدرجات وتكفير السيئات	٧٠
٤ – ابتلاء التحذير	٧٣
صورة من ابتلاء التحذير (قصة أصحاب الجنة)	٨١
٥ – ابتلاء الضنك	٨٥
كيف بَعُد المؤمن بالله، عن الله؟!	٨٧
ففروا إلى الله	٩٤

لماذا لا نتوب ٩٤
صورة من صور ابتلاء الضنك ٩٨
٦ – ابتلاء النعمة ١٠٥
كيف تكتشف نفسك؟ ١١٠
الغاية تبرر الوسيلة ١١١
مكانتك عند الله ١١١
صورة من ابتلاء النعمة (ابتلاء قارون) ١١٣
٧ – ابتلاء الدعوة إلى الله ١١٧
صور من ابتلاء الدعوة ١٢٣
ظاهرة أبى لهب ١٢٥
٨ – ابتلاء التمكين ١٢٩
فاصبر إن العاقبة للمتقين ١٣٩
المؤمن كالنخلة ١٤٢
بين الابتلاء والدرجة فى الجنة ١٤٤
دراسة لبعض صور الابتلاءات الشديدة للمؤمنين ١٤٧
أولا: الابتلاء فى قصة يوسف عليه السلام ١٤٩
ثانياً: ابتلاء رسول الله موسى عليه السلام ١٥٦
ثالثاً: ابتلاء الصحابة فى غزوة الخندق ١٧٨
رابعاً: الابتلاء فى قصة أصحاب الأخدود..... ١٨٨
كيف ننجو فى الابتلاء التى نتعرض لها؟ ١٩٢
وأخيراً، احذر وأحترس ٢٤٠
فهرس المحتويات ٢٤٣